

صمد بهرجى

خوثة
وآلف خوثة

ترجمة وتقديم : د . ماجدة العنانى

مراجعة : د . إبراهيم الدسوقي شتا

● قصص عن الفارسية مباشرة



صمد بهرنجی

خوخة وألف خوخة

وقصص أخرى

ترجمتها عن الفارسية وقدمت لها

د. ماجدة العناني

راجعها

د. إبراهيم الدسوقي شتا



۱۹۹۷

هـذا الكتاب

ترجمة لقصة يك هلو وهزار هلو

وقصص أخرى للكاتب الإيراني

صمد بهرنگي

من مجموعته القصصية

قصه های بهرنج

تهران - دنیا - ۱۳۵۹ هـ. ش.

۱۹۸۰

إهداء

إلى روح أبى .. رحمة الله عليه
وإلى أمى .. أمد الله فى عمرها
إعترافا بفضل
يبقى أبـد الدهر.
ماجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

غريبة هي حياة ذلك الكاتب الإيراني الشاب صمد بهرنجي (١٩٣٩-١٩٦٨) أولعها بتعبير أحد الكتاب الإيرانيين المعاصرين " العمل الأعظم من أعماله " . تسعه وعشرون عاما فحسب عاشها هذا الشاب ، مثل ومضة البرق ، لكن على نور هذه الومضة ، وضع الشاب لنفسه موضعاً في الأدب القصصي الفارسي المعاصر مع خمسة آخرين ، مات معظمهم في سن الشباب ، وإن كان صمد قد مات في سن أصغر ، إلا أن المرء لا يكاد يصدق أنه في خلال إحدى عشرة سنة فحسب منذ أن تخرج من مدرسة إعداد مدرسي الأرياف والمناطق النائية وحتى وفاته ، يمكن لكاتب أن يترك كل هذه الأعمال من قصص للأطفال إلى مقالات نقدية ومترجمات عن أدبه القومي الأدب الآذري نسبة إلى " آذريجان " إلى اللغة الفارسية ، إلى نظرات في نظم التعليم ومقررات الدراسة ، وكلها على مستوى واحد من الجودة والدقة ، وسيادة روح التغيير والحماس ، ووضوح الهدف والإتجاه إليه مباشرة . إلا أن أهم ما يتميز من أعمال صمد حقيقة تلك المجموعة من القصص التي كتبها للأطفال وعن الأطفال ، ومن خلالها ولج إلى حياة الكبار ومشاكلهم في مرحلة تعد من أعقد مراحل التاريخ الإيراني المعاصر ، ويرغم عمره القصير ، أعتبر واحداً من بناء الفكر الثوري الإيراني المعاصر ، وترجمت مجموعات من قصصه إلى لغات أوربية عديدة من أهمها الإنجليزية والفرنسية ،

وكتبت عنه دراسات نقدية عديدة، وفازت بعض أفلام الأطفال التي أخذت عن قصته " السمكة السوداء الصغيرة " بجوائز أولى في مهرجانات عالمية لسينما الأطفال ، وبعد الثورة ، ملأ الدنيا وشغل الناس ، وتعرضت أعماله لعاصفة من النقد ، بين إفراط وتفريط ، لكن أحدا لم ينكر أنه مؤسس كتابة القصة للطفل في الأدب الفارسي المعاصر، وأن كل من كتبوا القصة للطفل من بعده إستفادوا منه بشكل أو بآخر.

ومن ثم فقد كانت مفاجأة حقيقية لي يوم أن إطلعت على رسالة الماجستير التي كتبتها الباحثة الدكتورة ماجدة العناني المدرس بكلية الآداب جامعة حلوان عن صمد وقدمت من خلالها ترجمة ست قصص من أشهر قصصه ، ووجدت ترجمة الباحثة ترجمة دقيقة تتميز بحساسية لغوية نادرة ربما كان مصدرها أن الباحثة تمارس أيضا كتابة القصة للطفل ، واقتрحت عليها أن تضم إلي هذه القصص بقية قصص صمد المشهورة ، وبخاصة قصة السمكة السوداء الصغيرة التي كانت قد تركتها على أساس أنها ترجمت من قبل إلى العربية ، غير أنني بمضاهاة الترجمة على النص إكتشفت أن مترجمتها - وربما نقلت ترجمتها عن ترجمة أوربية مشوهة - قد تصرفت كثيرا في النص . وبهمة تحسد عليها قامت الدكتورة ماجدة العناني بإضافة ست قصص أخرى من قصص صمد لتقدم هذه المجموعة الغنية إلى القارئ العربي في ترجمة مشرقة غنية فياضة بالمحبة للطفل ولعالم الطفل ، متعاطفة أشد ما يكون التعاطف مع مشاكل الطفل وآلامه وعالمه الصادق ، وينفس الهممة قدمت لمجموعتها بمقدمة تتناول

بعض الموضوعات التي لم تكن قد تناولتها في رسالتها، وهي عن صمد
والتراث وصمد والقيم الثورية وصمد والرمز. وإنني إذ أقدم هذه
المجموعة أقدم إلى المكتبة العربية كاتبا جديدا كما أقدم لها مترجمة
جديدة واعدة وملتزمة في نفس الوقت تبشر بالكثير وينتظر منها
الكثير. والله من وراء القصد.

دكتور

إبراهيم الدسوقي شتيا

أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

في ٢٤ مايو سنة ١٩٩٦

مقدمة المترجمة

لست أريد في هذه الصفحات القليلة التي أقدم بها قصص صمد بهرنجي إلى قراء العربية أن أخوض في موضوعات سبق أن بحثتها في رسالتي للماجستير التي تقدمت بها إلى قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ونلت بها الدرجة سنة ١٩٨٩ ففيها من التفصيل ما يغنى القارئ الذي يريد الإستزادة عن مكونات شخصية صمد بهرنجي الأدبية والفكرية وملابسات حياته عن أن أعيد هنا ما كتبت ، وأكرر ما أسلفت من قول ، إلا أن هناك بعض النقاط رأيت أنني لم أتطرق إليها ، وإن كنت قد مسستها مساهة رفيقا ، فهي في حاجة إلى بسط وزيادة وهي صمد والتراث ، وصمد والقيم الثورية ، وصمد والرمز .

١ - صمد والتراث :

كان صمد يكتب قصصه دون أن ينسى لحظة واحدة أنه معلم ، وعلى لسان أحد أبطاله من الأطفال يقول : "رسالة المعلم ، أن يبين حقائق الطبيعة ، ويحارب الخرافات . " الدمية المتحدثة : حوار بين ياشار ويهرام " ، وخلف صمد بهرنجي ، كان هناك تراث خصب من الأدب الفارسي ، وللأدب التعليمي فيه شأن وأى شأن^(١) ويرغم ندرة الإشارات الصريحة في قصص صمد إلى أعلام الأدب الفارسي " إشارة إلى سعدى وإلى ابن سينا عن الطاووس في الدمية المتحدثة " إلا أن هناك - في هذه النقطة بالذات - تأثيرات أخرى لم يشر إليها صمد كما سنرى فيما بعد .

^(١) Rypka , yan , History of Iranian Litterature ,pp. 419- 480
Dordrecht ,Holland ,1968

وهناك إشارة عند مولانا جلال الدين الرومي عن أدب الأطفال وما يمكن أن يحتوى عليه من حكم ومعان عميقة :

- كانت سبأ هذه مدينة كبيرة جدا ، إستمع إلى حكايتها كحكاية من حكايات الأطفال .

- إن الأطفال يقصون الحكايات ، وتحتوى حكاياتهم على كثير من الأمثال والعظات .

- إنهم يتحدثون بكثير من الهزل في حكاياتهم ، فداوم البحث عن الكنوز في الخرابات .^(٢)

ويواصل مولانا جلال الدين على مدى أكثر من عشرين بيت في قص حكاية من حكايات الأطفال المشهورة على مستوى التراث الشعبي للعالم الإسلامي . وربما كانت هذه الإشارة المفصلة لمولانا جلال الدين إلى أهمية قصص الأطفال وإلى توشي المعاني المستترة وراءها برغم سذاجتها الظاهرة سببا في إهتمام صمد بمولانا الذي يبدو شديد التأثر به في ثلاثة مواضع :

الموضع الأول في حديثه عن الطاووس في قصة " اولدوز والدمية المتحدثة " حيث توجد هذه المعاني بشكل شديد التفصيل في أكثر من موضع من مثنوى مولانا جلال الدين ، أكثرها تفصيلا الواردة في الكتاب الخامس :- كان طاووس يقتلع جناحه في واد ، وكان أحد الحكماء قد ذهب هناك للنزهة .

- فقال له : أيها الطاووس ، أمثل هذا الجناح السني ، كيف تقتلعه هكذا من أصله دون توقف ؟

- وكيف يطاوعك قلبك أن تقتلع هذه الحل وتلقي بها في الوحل ؟

(٢) مثنوى مولانا جلال الدين الرومي - الكتاب الثالث الترجمة العربية لإبراهيم الدسوقي شتا - تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة الأبيات ٢٦٠٣ - ٢٦٠٥

- وكل ريشة منك من عزتها والإعجاب بها ، يضعها الحفاظ في المصاحف .

- وهي مفيدة من أجل التهوية ، ومن ريشك تصنع المراوح (٢) أما الموضع الثاني فقد ورد في قصة خوخة وألف خوخة عندما تتحدث الخوخة عن تحولها بعد أن يأكلها الإنسان إلى حياة داخل جسده ، ويذكرنا هذا بحديث السيدة التي تنضج حبوب الحمص الواردة في الكتاب الثالث من مثنوى مولانا جلال الدين:

- ويا حبة الحمص ، داومي على الغليان في الإبتلاء ، حتى لا يبقى لك وجود أو ذات.

- وإذا كنت ضاحكة في ذلك البستان ، فأنت الآن زهرة بستان الروح والبصر.

- وإذا صرت منفصلة عن بستان الماء والطين ذاك ، فقد تحولت إلى لقمة ، ودخلت إلى عالم الأحياء .

- فتحولي إلى غذاء وقوة وفكر ، لقد كنت عصارة ، فتحولي إلى أسد في الغابات (٣)

أما الموضع الثالث فقد ورد في قصة " اولدوز والدمية المتحدثة " عند حديثه عن بقرة اولدوز التي ذبحت فصار لحمها مرا لمن يكرهون اولدوز حلوا مستساغا لمن يحبونها ، تماما مثل ماء النيل عند مولانا جلال الدين الرومي الذي كان عذبا زلالا على بني اسرائيل دما على آل

(٣) مثنوى مولانا جلال الدين الرومي - الكتاب الخامس الترجمة العربية لإبراهيم الدسوقي شتا - تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة الأبيات ٥٣٧-٥٤١ .

(٤) مثنوى مولانا جلال الدين الرومي - الكتاب الثالث الترجمة العربية لإبراهيم الدسوقي شتا - تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة الأبيات ٤١٨١-٤١٨٤ .

فرعون ، وفي الكتاب الرابع من المثنوى تصوير لهذه الحادثة التراثية ، أغلب الظن أن صمد قد إستفاد منه في رسمه لهذه الصورة (٥) ومهما كان يقال عن صمد من أن موقفه من الدين كان سلبيا " وربما روج لهذا اليسار الإيراني التقليدى ومنظمة فدائى خلق التى كانت تعتبر صمد واحدا من مفكرىها وشهداءها " ، نرى أنه من المستحيل أن يتجاهل كاتب إيراني التراث الصوفي الإيراني من قبله، وحتى إن كان يرفضه من منطلق فكرى ، إلا أنه لا يستنكف إستخدام بعض مفرداته ، وتوظيفها لبيان بعض أفكاره ، ولا يمكن أن يكون صمد قد تجاهل في تصويره الحمام الرامى لجيش الملك بالمنجنيق في قصة " الأقرع اللاعب بالحمام " حادثة تراثية هامة تتعلق بالطير الأبايل ورميها لجيش أبرهة وفيله عندما جاء لهدم الكعبة ، والواردة في القرآن الكريم وفي التفاسير وفي كافة كتب التراث . كما أن قصة " دومرول ديوانه سر أو دومرول المجنون " قائمة في أساسها على فكرة دينية هي أن حضور الله تعالى يتجلى لأشد البشر إنكارا له ولربوبيته عند الموت وعند حضور ملك الموت ، ففي المأثور الدينى أنه كان يظهر قديما لمن يريد أن يقبض روحه ، وفكرة أخرى تقوم عليها القصة وفحواها أن أشد الناس جرأة وشجاعة إنما يقف أمام الموت مكتوف الأيدى ضعيفا لا يملك حيلة ، ثم فكرة ثالثة : أن أحدا لا يستطيع أن يموت بدلا من أحد حتى ولو كان أمه وأباه . ومن المظنون أن القصة خصوصا فيما يتعلق بذلك الحوار الذى يتوقع فيه البطل على الذات الإلهية في الحديث قد

(٥) مثنوى مولانا جلال الدين الرومى - الكتاب الرابع الترجمة العربية لإبراهيم الدسوقي شتا - تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة الأبيات ٣٤٣١ - ٣٤٤٣ - القاهرة ١٩٩٣ .

يصدم القارىء .. لكن ألم ينقل القرآن الكريم أحاديث الكفار وتوقعهم ؟

ومثلما إستفاد صمد من التراث الفارسي الكلاسي ، فإنه يعد جزءا لا يتجزأ من تيار الأدب الفارسي المعاصر ، ومن المعروف أنه كان يترجم إلى الآذرية بعض عيون الأدب الفارسي المعاصر للشعراء نياما يوشيج وأحمد شاملو ومهدى أخوان ثالث وفروغ فرخزاد وغيرهم ، ويرى رضا رهگذر (٦) أن قصة السمكة السوداء الصغيرة قد تكون مستلهمة من شعر لمهدى أخوان ثالث يقول فيه :

إنني هنا ضيق الصدر جدا
وكل لحن أسمع ، سيء التردد
فتعال لنحمل زاد الطريق
ولنمض في طريق بلا عودة

ولننظر إلى السماء في كل مكان .. هل هي بنفس اللون ؟
ومن الممكن أن يعتبر صمد واحدا من المدرسة التي بدأها صادق هدايت وطورها جلال آل أحمد وحمل لواءها من بعدهما جماعة من الكتاب الذين كانوا شبانا قبل الثورة : جمال ميرصادقي و غلامحسين ساعدي ومحمود دولت آبادي ، تلك المدرسة التي كانت تنتج أدبا مرتبطا في لغته وبيئاته وخلفياته ومشاكله بالطبقات الدنيا من الشعب الإيراني .

وكان نقد الشعر من إهتمامات صمد أيضا . وله مقال قصير ناقش فيه مهمة الشاعر ورسائله وعلاقته بالسياسة وعلاقة الشعر بالمجتمع . ليس الشاعر صحفيا أو موظفا أو وسيلة تسلية أو نديما ، والشعر

(٦) رضا رهگذر: نجاهی دیجربه ماهی سیاه کوتشولو - فی کیهان فرهنجی
سال بنجم - اردیبهشت سال ٦٧ ص ٣٦ .

الجيد لا يمكن أن يكتب في موضوعات فاسدة (٧) كما أنه لم يكن يعيش بمنأى عن الحركة الأدبية من حوله ، وينفس أسلوبه الحاد يفتح مقاله :

نظري به أدبيات امروز : نظرة إلى أدب اليوم " أول كلامي مع جماعة الشعراء والكتاب الأحياء ، ولأترك جانبا الأدباء أصحاب اللحي والشوارب ، فلا شأن لي بهم " (٨) ويقدم نقدا لرائعة غلامحسين ساعدي " عزاداران بيل : القائمون بالعزاء في قرية بيل (٩)

إلى جوار التراث الفارسي ، كان جل إعتقاد صمد على تراث آذربيجان ، والواقع أن جوانب عديدة من قصصه تعتمد على هذا التراث وتجليه ، وله كتاب ضخم عن أساطير آذربيجان " افسانه های آذربایجان - صمد بهرنجي ويهرز تبریزی - ط ٤ - ١٣٥٧ هـ ش - قدم صمد ورفيقه في هذا الكتاب تسعا وثلاثين حكاية شعبية آذرية لا يخطو قاروها الجوال العام المشترك بينها وبين القصص التي أبدعها صمد ، ومعظمها يدور حول فكرتين أساسيتين : البطولة والعشق ، ومنهما تنبثق عدة أفكار تدور في فلك الفكرتين الرئيسيتين كالألحان الداخلية المنبثقة من اللحن الرئيسي والتي تدور حوله : الضعيف الذي ينقلب إلى يطل قوى بمعونة قوى أسطورية ، والأميرة التي يخرجها العشق من جلودها الأرستقراطي المرفه ، والفقراء في صراعهم الممتد

(٧) انظر مقال : شعرواجتماع في مجموعة مقاله هاتشاب دوم سال ٢٥٣٧ ش . صص ١٠١-١٠٤ وانظر الترجمة الإنجليزية في :

Critical Perspectives on Modern Persian Literature Edited and Compiled by Thomas M.Ricks
Three Continents Press PP240-241 First Edition 1984 .

(٨) مجموعة مقاله ها : ص ١٠٥ .

(٩) انظر ترجمتها الإنجليزية في :

Critical Ptespectives PP 360-365.

ضد الأغنياء وآكلي الحقوق وأكلة السحت ، والحمائم الوديعه التي تنقلب إلى حمائم مقاتلة إنتصارا للضعفاء ومساعدة لهم ، بل وتتجلى الأنماط التورانية في سدى القصة الفارسية ولحمتها من تأثير هذا الجوالآذرى الصرف " أسطورة حب " : البشر الذين ينقلبون إلى جياذ ، والحديد الذى تصنع منه السيوف الأسطورية " الحديد أيضا قاسم مشترك أعظم في الأساطير التورانية والترك يسمون أبناءهم دمير وتيمور ومعناها الحديد " كما تشترك الأساطير التركية مع الأساطير الفارسية في أنهما معا يحفلان بوصف الطبيعة التي تتجلى في قصص صمد وتلعب دورا شديد الأهمية : ليالى الشتاء الطويلة ذات الثلج والتي تزيد أبطاله الفقراء بؤسا فوق بؤس ، والطبيعة القاسية وكيف تتكاتف مع البشر القساة في اضطهاد الضعفاء وصب الولايات فوق رؤوسهم حيث تتجلى براعة صمد في وصف الطبيعة ومنحها دورا في القصة يؤثر في مصائر أبطالها وفي تيار الحدث .

والأساطير التي نقلها صمد عن الآذرية أساطير ذات برنامج وذات هدف - إن صح التعبير - حيث يتداخل الحدث الواقعي مع الحدث الأسطوري ، وكل يؤدى دوره دون أن يطغى على الآخر.. ومن ثم يمكن الفصل بينهما بسهولة ، ومع ذلك فإن هذا التداخل يستهوينا ، إذ نلتقي بعالمى صمد الواقعي والأسطوري في إنسجام وتناغم يخفف كثيرا من حدة الجوالكئيب الذى يزوج بنا فيه ، حيث يركز عينا على المجتمع بكل تناقضاته وشخصياته الطيبة والشريرة على السواء ، ويقدم جانبا من صراعاتها ، ثم تتدخل القوى الأسطورية في الوقت المناسب لتحدد مسير تطور الحدث بما فيه مصلحة الفقراء ، ويكفى هنا أن أقدم نموذجا واحدا يتمثل في قصة " ابنة الحاج صياد " حيث الابنة الشابة الفاتنة ، يأتمن عليها أبوها قبل سفره إلى الحج أحد " الملات " الذى يحاول أن يخون الحاج في عرضه ، ثم هروب الفتاة

بشرفها وإنقاذ الملك لها في البرية ، وزواجه منها ، ثم الملا الشرير الفاسد(١٠) يرسل إلى أبيها أن ابنته قد فرطت في عفافها وهربت ، وسعى أخ الفتاة في العثور عليها لقتلها ويعد عدد من المغامرات تثبت براءة الفتاة أمام أبيها (١١).

والأبطال الضعاف الذين يخرجون من بين الطبقات الدنيا من الشعب ولا يتميزون بقوة جسدية خارقة لهم في أعمال صمد شأن وأى شأن ، وتكمن قوتهم الحقيقية في عقولهم وحسن تصرفهم وسعة حيلتهم ومواتاة الحظ لهم . وتلفت شخصية الأقرع وهو من أهم شخصيات الأسطورة الآذرية النظر كما أنه من أهم الشخصيات في قصص صمد، وهو في العادة شاب فقير معدم لا يتقن صنعة يعيش في الغالب مع أمه العجوز ويأكل من كدها ، هو كسول ، لكنه إذا ما اضطر إلى إطعام نفسه يبدى من العقل والفراسة والذكاء ما يعجز عنه الأبطال والوزراء والملوك(١٢). وعندما يعيد صمد صياغة صورة البطل الشعبي " كوراوغلو" ومعناها الحرفي ابن الأعمى والبطل الشعبي كتشل حمزه " حمزه الأقرع" في قصة تحمل نفس العنوان في مجموعته القصصية الرئيسية " قصة هاي بهرنج " تتبين إلى أي حد استطاع أن يستفيد من القصص الشعبي في تصوير مجتمعه المعاصر وبيان أفكار جديدة وتعاليم جديدة وقيم جديدة ، لكنه يظل يتغنى

(١٠) وهو شخصية نمطية في الأدب الفارسي القصصي المعاصر. أنظر: إبراهيم الدسوقي شتا: مطالعات في الرواية الفارسية ، غلامحسين ساعدي الخوف والرعدة " ترس ولرز " حيث يصور الشيطان في صورة ملا .

(١١) سخر حاجي صياد في افسانه هاي آذربايجان صص ١٣ - ٢١ .

(١٢) كلها متمثلة في قصة الأقرع اللاعب بالحمام من قصص هذه المجموعة وفي أسطورة كتشل مم سياه التي نقلها في افسانه هاي آذربايجان صص ٣٠٥ - ٣٢٥ .

بالضعفاء وما يستطيعه الضعفاء ، وأن النصر في النهاية لهم ، هذا ما كان يقصده صمد بهرنجي في كل أعماله .

٢- صمد والقيم الثورية :

لكي نعرف مكانة القيم الثورية في قصص صمد ودورها في يقظة الشعب الإيراني ، علينا أن نضع في الحسبان أن الجيل الذي كان يقرأ هذه القصص في الستينيات هو نفس الجيل الذي أدركه العام الدامي للثورة " ٧٨/٧٩ " شابا وشارك فيه مشاركة فعالة . وفي كل كتابات صمد ، هناك إحساس شديد بمدى ما تفعله الطبقية في المجتمع الإيراني ، وأبطاله في الأغلب مقهورون ينزل عليهم القهر من كل مكان ، إنهم في داخل البيت تحت سيطرة زوجة الأب القاسية ، وفي المجتمع تحت سيطرة الأغنياء وأرياب الذهب والقوة ، والحكام والشرطة ، الأب في الغالب مهاجر إلى العاصمة في سبيل لقمة العيش ، والصبي يتحمل في سن صغيرة مسئولية البيت ، يحلم أبطاله جميعا بالعيش الرغد وهم يعيشون في حضيض المجتمع " أربع وعشرون ساعة من القلق " ، ويتحملون من الصغر مسئولية الإنفاق على الأسرة " الصبي بائع البنجر المسلوق ، الأقرع اللاعب بالحمام - أربع وعشرون ساعة من القلق - خوخة وألف خوخة " . ومما عمق هذا الإحساس بالدونية ومعاناة الإضطهاد أن صمد نفسه كان ينتمي إلى أذربيجان ، يضطر إلى إستخدام لغة ليست لغته الأم " التركية الأذرية " كل هذا مع إحساسه بغنى منطقتة وبالدور الذي لعبته في تاريخ إيران المعاصر (١٣) وغنى تراثها ، يحس أنها منطقة على الهامش ، مما عمق في قصصه هذا الإحساس بالإحباط المستمر " قيل أنه كان

(١٣) له مقال عن دور أذربايجان في الثورة الدستورية أنظر مجموعهء مقاله ها

يعرض أعماله على بعض الكتاب للنظر في صياغتها الفارسية!!^(١٤) وبالرغم من أن من سمات قصص الأطفال أنها تجرى في غير زمان وفي غير مكان - أو هكذا في أغلبها - إلا أن صمد قدم لنا المجتمع الإيراني قبيل الثورة بكل تناقضاته الطبقية وصور الظلم الشائعة فيه والخلل البين في بنياته الاجتماعية والإقتصادية والفكرية والسياسية ، والمشكلات التي يعانيها أطفال قصصه هي في الغالب من نتاج كل هذه التناقضات الموجودة من حولهم ، وعندما " تُدس " كل هذه الأفكار الكبيرة في قصص " الصغار " تشارك بشكل أو بآخر في خلق وعي مبكر بحركة المجتمع عند الصغار والشباب في سن مبكرة .

وكمعلم في القرى " من سن الثامنة عشرة حتى وفاته في سن التاسعة والعشرين " ، كان صمد على صلة بقاء المجتمع من ناحية ، ومن ناحية أخرى إكتسب هذه الخاصية شديدة الوضوح في قصصه ، وهي أنه في كل قصصه يهدف إلى تعليم شيء ، وكانت ثورته على نظام التعليم والمواد الدراسية والحالة المزرية للمدارس والتلاميذ والمعلمين جانبا كبيرا من جوانب نشاطه ، وهو في هذا المجال يلتقي مع كاتبين كبيرين بارزين في عصره : أحدهما مشهور وهو جلال آل أحمد الذي صب كل نقده على النظام التعليمي في روايته المشهورة " مدير المدرسة " ، والثاني أقل شهرة وهو رسول برويزي الذي ضمن مجموعتيه القصصيتين : " لولي سرمست : اللعوب الثملة " و " شلوارهای وصله دار : السراويل المرقعة " سخرية سوداء من المدارس ونظام التعليم (١٤) وفي مقدمة قصصه التي ترجمت أغلبها في هذه المجموعة ينص على هدفه التعليمي الثوري " لقد مر الزمان الذي

(١٤) انظر بحث ابراهيم الدسوقي شتا بالفارسية تحت عنوان " بحثی درباره رسول برويزی وآثاروی المنشور فی مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد ٥٩ لسنة ١٩٩٣ .

نجد فيه أدب الأطفال بالدعوة عن طريق النصائح الجافة التي لا ثمر فيها ، وتلقينها ، ينبغي إيئاس الأطفال من العوامل المؤملة الواهية ضعيفة الأساس ، ثم خلق آمال أخرى على أساس معرفة الواقعيات الإجتماعية وسر مقاومتها ^(١٥) ويقول في موضع آخر " ليس الهدف من القصص هو مجرد التسلية والمتعة ، أنا لأحب أن يقرأ الأطفال قصصي من أجل المتعة والتسلية فحسب " ^(١٦) ولم يكن نشاط صمد قاصرا على التعليم في المدارس ، بل كان يبذل نشاطا ملموسا من أجل التعليم في المناطق القروية والنائية ، يحمل الكتب التي يشتريها من مرتبه الضئيل ويوزعها في قرى آذربيجان ، يدخل محال بيع الكتب ويناقش الناس حول الكتب التي يجب أن يقرأوها .

كان صمد يعاني مثل كل كتاب عصره من الرقابة ، وكان يريد أن يقول الكثير ، لكن الرقابة بالمرصاد ، فما العمل ؟ القصة ، قصة الأطفال ، وبالنسبة لمعلم أطفال لا يستغرب إستخدام هذا الأسلوب ^(١٧) وهناك جانبان متميزان في هذا المجلل عند صمد بهرنجي : جانب التنظير الذي ضمنه كتابه " كندكاو در مسائل تربيتي در ايران : بحث في القضايا التربوية في ايران " حيث تحدث في المقام الأول عن السيطرة الأمريكية على عملية وضع المناهج الدراسية في ايران والفجوة الموجودة بين ما يدرسه التلميذ وبين الواقع الذي يعيش فيه ، وهو نفس الموضوع الذي دق عليه جلال آل احمد ورسول بروينزي ،

(١٥) قصة هاي بهرنج - مقدمة - ص ٥ - انتشارات دنيا - طهران ١٣٦٠ هـ ش .

(١٦) من مقال معلم مردم لغلामحسين فرنور في آرش - ١٨ - ١٣٤٧ ص ٦٠ .

(١٧) Brad Hansen . The westoxication of Iran : Deception and Reaction of Behrangl . Ale Ahmad and Ali Shariati

الترجمة الفارسية تحت عنوان " غرب زدگی در ايران از ديدگاه

صمد بهرنجي و جلال آل احمد و على شريعتي المنشورة في كتاب

شريعتي در جهان صص ١٣١ - ١٦٦ .

ثم جانب التطبيق عن طريق القصص التي تشير كل قصة منها إلى وجوب القيام بثورة تعليمية وتدرسية في المقام الأول ، وأنه لا أمل للجيل الجديد في أي تقدم طالما هو خاضع لهذا النمط من التربية والتعليم في نفس الوقت الذي يعاني فيه من حياة يومية غير إنسانية .

ومن قضايا التربية والتعليم إنتقل صمد إلى نقد النظام القانوني والإجتماعي (٨)

ويتساءل : أينبغي علينا أن نخبر أطفالنا عن أطفال لم يروا الجبن لشهور وربما لسنوات ؟ أينبغي أن نخبر أطفالنا أن أكثر من نصف سكان العالم من الجوعى وكيف نحد من جوعهم ؟ أينبغي علينا أن نعلم أطفالنا التاريخ على حقيقته ؟ وتقدم المجتمعات البشرية وتقدمها ؟ .

وبالرغم من أن صمد كان يعيش في ظل دولة ملكية ، تكاد عبادة الشاه تكون فيها فكرا مسيطرًا ، إلا أن معظم الملوك المصورين في قصصه يصورون بصورة ساخرة " أسطورة المحبة مثلا " ، فلا شخصية مسيطرة ولا مهابة، وفي الأغلب يكون الشاه ألعوبة في يد وزيره الأكثر رغبا ، وتظل الشخصية المتسلطة عادة شخصية ضعيفة مهترئة من الداخل ، تصبح في بعض الأحيان ألعوبة في أيدي الأطفال ، لأنها ببساطة أقل ذكاء وأكثر عبادة للخرافات " اولدوز والغريبان " . في نفس الوقت يقدم صمد شخصية الطفل بشكل مختلف ، فهي شخصية ذكية متآمرة جريئة مبادرة ، تصارع عالم الكبار وتنتصر عليه في بعض الأحيان " اولدوز وياشار في الدمية المتحدثة - اولدوز في اولدوز والغريبان - الأقرع اللاعب بالحمّام - أسطورة المحبة -

(18) Sabri Tabrizi , Human Values in The works of two Persian Writers in correspondance d'orient ,Acts x1 " 1970 pp411-418

لطيف في أربع وعشرين ساعة من القلق " وهناك نماذج جديدة حقا بالملاحظة والتقدير: تارى وردى الصبي بائع البنجر المسلوق الذى يتصدى لصاحب المصنع دفاعا عن شرف أخته ، ولطيف في أربع وعشرين ساعة من القلق الذى برغم إحساسه بالدونية تجاه الأغنياء ، إلا أنه يتحرش بهم ، وكان مستعدا حتى للقتل في سبيل ما يراه حقا له . وتثير النقطة الأخيرة بالذات سؤالا مهما هو: هل كان صمد يؤمن بالعنف كوسيلة لتغيير المجتمع ؟

الواقع أننا لا نلتقي في قصص أطفال بسمكة تدافع عن نفسها بخنجر " السمكة السوداء الصغيرة " وبغراب يبرر السرقة ولا يرى أنها حرام " اولدوز والغريبان " ويحمائم مقاتلة " الأقرع اللاعب بالحمام " وبماعز تنتج المنجنيق " الأقرع اللاعب بالحمام " ويطلق يتمنى لو كان يملك مدفعا رشاشا ليحول دون بيع لعبة تعلق بها قلبه " أربع وعشرون ساعة من القلق " اللهم إلا في قصص صمد ، ويمكن تفهم هذا الاتجاه إلى العنف في إطار الروح التي كانت سائدة في ايران في ستينيات هذا القرن، والإحباط العام واليأس الكامل من جدوى التغيير السلمي ، وإلى أن صمد في رفضه للنمط السائد من قصص الأطفال كان قد سار إلى نهاية الشوط ، فضلا عن أن النمط السائد في القصص الشعبي الأذرى كان نمط تمجيد القوة والشجاعة والروح القتالية وخوارق الأمور التي تجرى أيضا على أيدي الأطفال ، وهو ما لا يفصله عن العنف سوى خط واه ، وكان هذا التراث الشعبي كما رأينا شديد التأثير على صمد . ويدافع أحد نقاد اليسار عن القيم التي ينشرها صمد عندما هوجم بأنه ينشر قيم الحقد والكراهية ، وكأن الحقد والكراهية ليسا من الأحاسيس الإنسانية ، وكأن الحب والبغض والصداقة والعداوة مجرد قيم في خيال الإنسان وليس لها مصادقات خارجية ، إنهم يعلموننا أن بني آدم أعضاء جسد واحد وأسألوهم

أى بنى آدم مع أى بنى آدم أعضاء في جسد واحد ؟ هل الطفل الذى يموت جوعاً عضواً في جسد واحد مع المليونير المتختم ؟ وإذا كان البشر يصلون في كراهيتهم للبشر إلى حد قتلهم جوعاً، فعلى من تقع المسؤولية ؟ على كواهل النهابين أو المنهويين ؟ وهل يلزم على أمثال صمد أن يأتوا ويعلموا الأطفال التصوف والزهد ؟ أو كالمسيح يقولون له : من ضريك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر؟ الكراهية التي يعلمها صمد للأطفال " ولولم يعلمها لهم لعلمها الزمان لهم " كراهية إنسانية ، كراهية الشر والأشرار والجبناء ، الحقد والكراهية سلاح استخدمته السمكة السوداء في مواجهة السرطان، وإلا كان قد ابتلعها. (١١)

هذا العنف يقابله عند الأبطال إحساس عظيم بحب التضحية ، ورغبة في المعرفة والإكتشاف " السمكة السوداء الصغيرة " (٢٠) ويظل الأمل في انتصار الثورة موجوداً، فلا إحباط ولا يأس ، ومع كل الجو الأسود الذى يصوره بصراحة ووضوح " وحتى دون رحمة بالقارئ " وبإخلاص شديد للصدق الفني ، وكأنه كان يتمثل قول معاصريه العظيمة الشاعرة فروغ فرخزاد " لا أمر على الحوارى التي تفوح برائحة البول في تهران ثم تطالبونني بوصف العطور " ، يظل صمد على أمله في المصير النهائي . فلم يكن صمد كاتباً إصلاحياً ، بل كان كاتباً ثورياً ، وكان الكتاب الثوريون أكثر مساهمة في تطوير الأدب وفي التأكيد على دور الكاتب في التغيير ، وكان ثم مصطلحات تملأ المحيط الأدبي : أدب المقاومة وأدب الإستسلام ، شعر الشعب وشعر

(١٩) منوچهر هزار خانى : جهان بينى ماہى سیاہ کوچولو - نشر احیاء تبریز - بدون تاریخ - صص ٨ - ٩ .

(20) The Little Black Fish and other Persian Stories by Samad Behrangi , Tran. by Eric Hoogland and Mary Hagland - P13- Washington , Three continent Press , 1987.

القصر، شعر التعبئة والناس (٢١) وقد فهم صمد الدور الثورى للكاتب والفنان، وبالطبع عندما كان يكتب عن أطفال القرى النائية المحرومين العراة، لم يكن يكتب عن أطفال محترمين يحبون الملك، كما يعبر صمد عن الضغوط الإقتصادية المتزايدة والضغوط العسكرية لأوربا والولايات المتحدة، في مقدمة قصة اللاعب بالحمام يقول صمد " في المجتمع السليم، ينبغي ألا يوجد أثر للمرض، والإفلاس وقول الزور والكذب والسرقة كلها أمراض، ومن أجل علاج كل هذه الأمراض ينبغي أن نكتشف عللها، إنكم تسألون أنفسكم دائماً: لماذا أرسل زميلكم في الدراسة إلى مشاغل السجاد؟ لماذا يسرق بعضهم؟ لماذا توجد الحروب وسفك الدماء هنا وهناك؟ ماذا يؤول إليه حالي بعد الموت؟ وماذا كنت قبل الحياة؟ وما نهاية الحياة؟ ومتى ينتهي الفقر والجوع؟ وهناك آلاف الأسئلة الأخرى ينبغي أن تطرحوها حتى تفهموا المجتمع وأمرضه. واعلموا أيضاً أن المجتمع ليس هو الجدران الأربعة لمنزل كل منكم. المجتمع هو كل مكان يعيش فيه مواطنونا، من القرى النائية، حتى المدن الكبيرة والصغيرة، من أزقة القرى المليئة بالطين والروث إلى شوارع المدن النظرة النظيفة، من الأكواخ الضيقة المظلمة المليئة بالذباب للقرويين الفقراء، إلى القصور البانخة لسكان المدن، من أطفال الزراع وناسجي السجاد لابسى الأسمال إلى الأطفال الذين يعد أقل طعام لهم الأرز بالدجاج والديكة الرومية والموز والبرتقال، هذا هو المجتمع الذى سيورثه آباؤكم لكم، ولا ينبغي أن تسلموه لأولادكم دون أدنى تغيير، بل ينبغي أن تقللوا من المساوىء أو أن تقضوا عليها.

(21) Thomas M. Ricks , Samad Behrangi and Contemporary Iran, the Arist in Revolutionary Struggle in Critical Prepectives P363 .

المجتمع أمانة لا يحتفظ بها كما هي" (٢٢)

وفي هذا المجال تدور قصص صمد حول محاور ثلاثة :

١- الثقافة المهتزة المتباينة الإتجاهات للشعوب الإيرانية ، والصراع التاريخي بين الأسر الحاكمة والقوى الثورية .

٢- أهمية التعليم والحاجة إلى تفسير العلاقات الداخلية للحضارة والتاريخ بنظرة واقعية للمجتمع وأقل تقليدية .

٣- الحاجة الملحة إلى مقاومة مسلحة لتحقيق مكاسب للناس وليس لمجرد نظرة قيمية . (٢٣) والثقافة ليست تيارا متقطعا بل يعتمد سابقها على لاحقها ، والهجوم على روافد الحضارة لشعب من الشعوب يعد هجوما على الشعب نفسه ، وهكذا ففي خلال بحثه في المأثور الأذري الشعبي وعيشه إحدى عشرة سنة متتالية في قاع المجتمع الأذري إكتشف صمد معنويات هذا الشعب وجاهد في المحافظة على الأسس الثقافية من خلال قصصه وترجماته ، وأرسى أسس تحليل علمي للمجتمع.

والصراع عنصر أساسي من عناصر قصص صمد ، وفي قصة اللاعب بالحمام مثلا يقدم صمد صراعا علنيا بين أقرع فقير وبين أصحاب المصانع ، ومن خلالها يدق على قيمة العمل " يدعو الأميرة نفسها إلى العمل " ويعيد الثروة التي نهبها صاحب المصنع المستغل إلى الفقراء والمحرومين . وفي قصة " الصبي بائع البنجر المسلوق " يقدم صراعا بين صبي نسيج وحده يقف بالمرصاد لصاحب المصنع مضحيا بمصدر رزقه للدفاع عن عرض أخته . وكأنه كان يريد أن يقول لقارئه : إنك مهما كنت وأربع وعشرين ساعة من القلق " حيث تصيح السمكة السوداء الصغيرة " في يوم ما سوف أضطر إلى مواجهة الموت ،

(٢٢) قصة های بهرنك : صص ١٤٣ - ١٤٤ .

(23) Thomas M.Ricks , Samad Berhangi and Cotemporary Iran. P.364

صغيرا وضعيفا وفقيرا إلا أنك تستطيع أن تقاوم وأن تقف وأن تصمد . والقستان كلتاها تصوران بشكل مباشر الفروق الراهبة بين نوعين من الحياة : حياة مرفهة إلى درجة السفه حيث تستغل الأموال المكتسبة من عرق العمال في عقد زيجات المتعة بينما يعيش العمال في مستويات أدنى من مستوى الحيوان ، نفس الصورة التي تتكرر في قصصه "خوخة وألف خوخة" والسمة السوداء الصغيرة لكن هذا لا يهم ، المهم هو تأثير حياتي أو موتي في حياة الآخرين " (٢٤) . ومن خلال تعبيرات بسيطة جدا يقدم صمد آراء لا تخفى على القارئ الفطن الخبير بتاريخ إيران ، ومن خلال عبارة واحدة في "خوخة وألف خوخة" يقدم رأيه في الإصلاح الزراعي التي جاءت به ثورة الشاه البيضاء ، فالإقطاعي يحتفظ بالأرض الخصبة والبستان النضر لنفسه ، بينما يبيع الأرض البور الجرداء للفلاحين ، وبينما يحرم الفلاحون من ثمار البستان ، تتمنى الخوخة نفسها أن تكون طعاما للصبيين المحرومين الذين زرعاها ، وعندما يموت أحد الصبيين بلدغة ثعبان ، ويرحل الآخر ، تسقط الشجرة ثمارها بنفسها ، ولا تعود تثمر ، نظرة نفانة لما يمكن أن يؤدي إليه الظلم من خراب . وتنتهي قصة "أربع وعشرون ساعة من القلق" بأن يتمنى بطلها لطيف أن لو كان يمتلك مدفعا رشاشا ليحول بين اللعبة التي كان يعشقها ويشاهدها من وراء زجاج المحل وأن تباع إلى طفلة مرفهة ، قد تلعب بها يوما أو بعض يوم ثم تلقي بها في سلة المهملات . وإذا قورنت أعمال صمد ببعض الأعمال الأخرى ذات الطابع الثوري في الأدب الفارسي ، يظل صمد أخطر الكتاب جميعا ، فقد كان يكتب للأطفال بما يمكن أن يحرك الكبار ، وكان يزرع بهذه القصص البسيطة معاني شديدة العمق في نفس الطفل ، كان يقدم للأطفال

(24) Thomas M. Ricks , Samad Behrangi , p 366 .

أحلاما يكون تعبيرها في مرحلة الشباب ، ومن ثم فقد كان صمد يضحى في كثير من الأحيان بمقاييس فنية في سبيل أن تصل الرسالة ، وكان هو نفسه يفخر بأنه يكتب للمشردين والعراة والجياع وليس لأولئك الأطفال الأنانيين المرفهين السمان ركاب السيارات وداهني شعورهم المعطرين^(٢٥) ومن هنا يمكن إدراج أدب صمد بهرنجي في مقدمة ما أطلق عليه "أدب النضال: أدبيات مبارز" تلك التي استمرت أكثر من نصف قرن بداية بهدايت ومرورا بصادق تشويك وجلال آل احمد تعبىء الشباب الإيراني ، وتعدده لليوم الموعود .

٣- صمد والرمز :

من الطبيعي في قصص الأطفال - وبخاصة تلك القصص ذوات البرنامج والهدف المحدد المرسوم - أن تكون قائمة على استخدام الرمز، ومن الطبيعي أيضا أن يكون الرمز في قصص الأطفال واضح الصلة بالرموز له بحيث يصل إلى هدفه مباشرة ، ولا يكدر ذهن الباحث أو الدارس - ناهيك عن المخاطب الحقيقي وهو الطفل - في الوصول إليه . فهل نجح صمد بالفعل في تقديم مجموعة من الرموز يمكن أن تكون مفتاحا إلى العالم الذي أراد أن يقدمه للطفل؟ الواقع أن صمد في رموزه لم يسلك طريقا ثابتا ، ربما لأن النظرة الفانتازية عنده كانت تغلفها واقعية مغلقة محددة بأطر فكرية تحد من إنطلاق الرمز وعموميته من ناحية ووضوحه من ناحية أخرى . وثمة خاصية أخرى في قصص صمد جعلته لا يجيد صناعة الرمز أولغته، وهي أن قصصه وإن كانت للأطفال إلا أنها في الواقع قصص عن الكبار وعن عالمهم ومشاكله والتي تنعكس بدورها على الأطفال .

⁽²⁵⁾ Thomas M. Ricks , Samad Behrangi , p.369

وقد فطن رضا رهگذر إلى هذه المشكلة (n) وفي تحليله لأشهر قصص صمد " السمكة السوداء الصغيرة " فطن إلى أن صمد لم يكن يعرف حدود استخدام الرمز، فكل مجموعة من النباتات أو الجمادات أو الحيوانات تستطيع أن ترمز لبشر، فما العلة في اختيار الحلزون رمزا للمفكر المتحرر؟ ويمكن أن يقال نفس الشيء عن بقية رموزه.. ولماذا تكون السمكة الصغيرة سوداء؟ لماذا لا تكون حمراء مثلاً؟ ويمكن الرد على هذه النقطة بالذات. المغامرة كلها قامت بها سمكة سوداء، وفي آخر القصة كانت الجدة قد أنهت قصتها، وظلت سمكة حمراء ساهرة ولم تنم.. والرمز هنا شديد الوضوح، فإذا كان من المتعارف عليه، وكانت أجهزة الأمن تعرفه، أن اللون الأسود في أعمال أدباء ما قبل حتى الثورة كان يرمز إلى الجناح الديني من المقاومة، وأن اللون الأحمر كان يرمز إلى الجناح اليساري^(٢٧)، فإن هدف صمد يكون شديد الوضوح وليس في حاجة إلى تأويل، وإذا كانت القصة قد ألفت في منتصف الستينيات حيث كانت المقاومة بالفعل في أيدي رجال الدين بعد الحركة الخمينية الأولى " ١٩٦٣ " فإن الرمز هنا يكاد يكون تصريحاً. غير أننا لا ينبغي أن نسلم بهذا التفسير تماماً، ففي قصصه الأخرى وعلى الخصوص " اولدوز والدمية المتحدثة واولدوز والغريبان يغلب اللون الأحمر تماماً،

(٢٦) مقال نكاهي ديكر به ماهي سياه كوجولو - كيهان فرهنگي - سال بنجم - ارد يبهشت ١٣٦٧ - صص ٣٤-٣٧.

(٢٧) كان الشاه نفسه يسمي رجال الدين المناضلين الرجعية السوداء. ولتفصيلات أنظر: ابراهيم الدسوقي شتا - الثورة الإيرانية الجنور والأيديولوجية ط ٢ - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٩٨٨ - ص ٣٠٤ وأيضاً: ابراهيم الدسوقي شتا: مطالعات في الرواية الفارسية المعاصرة - الهيئة العامة للكتاب - ١٩٨٦ - صص ١٦٦-١٦٧.

كما أن نشيد الوردية الحمراء الذى تغنيه الحيوانات في الغابة ليس أيضا في حاجة إلى تأويل ، والسطور الأخيرة في القصة تكاد تكون بيانا ثوريا : " لابد أنكم تنتظرون إلام انتهى أمر الدمية والأطفال ، وإن لم تكن حادثة الغريان قد حدثت ، لما انت اولدوز حزنا ، ولضاعت من أيدينا ، لكن ظهور أم الغراب ، وصداقة الأطفال مع الغريان غيرت الأمور برمتها ، فلقد استعادت اولدوز واستعاد يشار حماسهما ، وجاهدا كثيرا ليصلا إلى مدينة الغريان " (٢٨) هذا التعاقب بين الأحمر والأسود لا يعني أن صمد قد انتصر للون الأسود إلى النهاية ، ففي الصفحة التالية للصفحة المذكورة آنفا يقول " يقول مؤلف هذا الكتاب : لقد تعرفت على اولدوز بعد سنوات من ضياع الدمية المتحدثة وصادقتها كما ذكرت في قصة اولدوز والغريان ، تعرفت عليها في قرية جدتها ، وكانت آنذاك في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وكنت معلما في نفس القرية ، وفي النهاية استطعت أنا وتلاميذى أن نجد دمية اولدوز المتحدثة ، وهذه قصة أخرى سأذكرها في كتاب : الغريان والدمى والبشر ، فانتظروا من الآن صدور هذه القصة " (٢٩) اللون الأسود عند صمد له دوره الثورى أيضا ، وإن كان يرقب إتحادا بين اللونين لعله كان يريد التعبير عنه في قصة الغريان والدمى والبشر التي لم يصدرها قط فيما أعلم " وإن كان هذا الإتحاد قد حدث في عام الثورة والعام التالي له " ، لكن تبقى بعض الإشارات تهز من اليقين في أن صمد كان ينتظر بالفعل دورا من اللون الأسود ، ففضلا عن السمكة السوداء الصغيرة تختفي لتترك دورها لسمكة حمراء ، يجعل الكلب الذى هدد اولدوز ويشار

(٢٨) قصه هاى بهرنك : ص ١٣٨ .

(٢٩) المصدر السابق ص ١٣٩ .

في اولدوز والغريبان أسود ، كما يجعل القطرة التي أكلت الكارع السحري في اولدز والدمية المتحدثة سوداء ، فاللون الأسود عنده ذو دور ثوري كما أنه ذو دور سلبي أيضا .

والواقع أن رموز صمد بالذات قد أثارت ردود فعل عديدة وذلك من خلال الدراسات التي أعادت تقييم أعمال صمد بعد انتصار الثورة الإسلامية ، ولم يكن الإتجاه اليساري عند صمد مما يصادف هوى عند المثقفين الثوريين الإسلاميين الذين وجدوا عالمه شديد البعد عن القيم الإسلامية ، بل ووقر الشك في أصالة ثورية صمد ، ويصل الأمر هنا إلى درجة الإحالة ، ففي تقييم رضا رهجذر على قصة السمكة السوداء الصغيرة ، يناقش لا منطقية الحدث ، وكأن قصص الأطفال ينبغي عليها أن تحافظ على حدود المنطق ، ويتساءل : هل من الممكن أن تكون هناك قصة ثورية تحكيها جدة قبل النوم ؟ وهل تقييم سمكة النبع أسماك البحر؟ وهل تحركت أسماك البحر بعدها في عمل ثوري ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة المترصدة التي تغيب تماما عن طبيعة عملية الإبداع الخاص بالأطفال . وينكر رضا رهجذر على صمد أنه ما دام قد استخدم رموز الحيوان في القصة فلا قيمة إذن لوجود الإنسان ، وهو حكم في محله إذا تم تجاهل طبيعة قصة الطفل ، فالإنسان الطيب الضعيف المسحوق الذي يواجه قوى أقوى منه ، عادة ما تخف قوى غيبية لنجدته قد تكون من الجن ومن المخلوقات الخرافية ، وإن اختار صمد قواه الغيبية من الطيور والحيوانات فذلك لكي يقوم بعملية ربط بين الإنسان الطفل وبين ما يحيط به من مخلوقات ، وهذا لا يقلل أبدا من قيمة الإنسان سيد المخلوقات والذي خلق كل ما في الأرض لخدمته كما في المأثور الديني نفسه . ويتساءل الناقد : القصة الرمزية لا تدور في زمان معين أو في مكان معين .. هي قصة تجريدية ، وكيف يمكن للطفل أن

يقتنع بالأحداث الخارقة وهي تجرى في زمان ومكان عاديين ومعلومين ؟ وينسى الناقد أن كل أساطير إيران محددة بأزمنة وأماكن ، وينسى أيضا أن صمد لم يكن يريد أن يحس الطفل بالجو الأسطوري . لأن الأمر إن كان برمته أسطورة ، فإن الغرض من التعليم ينتفي ، فضلا عن أنه كان يريد أن يضع الطفل على أرض الواقع عن طريق الأسطورة ، وينسى أيضا أن ثمة فرقا بين الزمن الأسطوري في الأسطورة ، وبين نفس الزمن في قصة الأطفال .

ويتساءل الناقد : كيف يصدق الطفل أن القصة تجري على السنة الحيوانات ؟ وهل تتحدث الحيوانات ؟ وهنا يصل إلى قمة ترصده وغيابه التام سواء عن الأدب الرمزي أو أدب الطفل أو أدب الحيوان مع ماله من ماض في الأدب الفارسي ، ومن الطريف أن مولانا جلال الدين رد على هذه القضية وناقشها مناقشة مستفيضة ، يقول :
- وإن لم تكن قد رأيته لا من الداخل ولا من الخارج ، فخذ من الحكاية المعنى أيها المسكين .

- لا مثل ذلك الذي سمعها كحكاية ، والتصق بصورتها كالشين في كلمة نقش .

- حتى ليقول : كليلة تلك التي لا لسان لها ، كيف تسمع الكلام من دمنة التي لا تتكلم ؟

- وإذا كانت كل منهما تعرف لغة الأخرى ، فكيف فهمهما البشر وهما لا تنطقان ؟!

- وكيف صارت دمنة رسولا بين الأسد والثور ؟ وكيف خدعتهما معا ؟

- وكيف صار الثور النبيل وزيرا للأسد ؟ وكيف خاف الفيل من إنعكاس القمر ؟

- إن كليله ودمنة هذه كلها إختلاق ، وإلا فمتى كان بين الزاغ والقلق إمتراء ؟

- فيا أخي ، إن لقصة مثل الكيل ، والمعنى داخلها على مثال الحبوب .

- ورجل العقل يأخذ حبوب المعنى ، ولا يرى الكيل إن نقل إليه .

- فاستمع إلى حادثة البلبل مع الوردية ، وإن لم يكن ثم مقال ظاهر فيها .

-- واستمع أيضا إلى ما جرى بين الشمعة والفراشة ، واختر أنت المعنى من الحكاية . (٣٠)

فكأن مولانا كان يرد على رضا رهجذر عندما قال نقدا على قصة السمكة الصغيرة السوداء بعد مناقشة ما جرى على ألسنة الأسماك حرفيا وأنهى المناقشة بأن الأسماك لا تتحدث في الأصل "!!" وأن الحيوانات لا تفكر أصلا ولا ترسم الخطط ، وما يحدث من الحيوانات في قصص صمد يغاير تماما ما يحدث في حياتها الطبيعية "!!!" (٣١) منتهى التنطع والإحالة .

غير أن هذا التنطع وهذه الإحالة كانا أمرين طبيعيين إذا وضعنا في الحسبان ما استخرجه نقاد اليسار من قصص صمد من أفكار تبدو بدورها من الإحالات ، والفريقان كلاهما بدأ من نقطة خاطئة هي مناقشة قصص الأطفال بمعايير قصص الكبار من ناحية عند نقاد ما قبل الثورة والبحث والتنقيب عن الرمز السياسي ومناقشة

(٣٠) مثنوى مولانا جلال الدين الرومي - الكتاب الثاني - الترجمة العربية

لإبراهيم الدسوقي شتا - الأبيات : ٣٦٣١-٣٦٤١ .

(٣١) مقال رضا رهجذر : ص ٣٧ .

القصص من منطلق أن صمد يسارى ملتزم بالمقولات اليسارية وهو حكم مسبق لم يقم عليه أى دليل ، وأبرز مثال على نقاد ما قبل الثورة الناقد منوتشهر هزارخاني في نقده على السمكة الصغيرة السوداء . (٣٢) يعتبر هزارخاني المناقشة بين السمكة السوداء وبين الأم في الذبح والجيران الذين يسخرون منها ومن تطلعاتها ، ومن إتسامها بالسمات اللازمة للثورى الحقيقي : الفكر والوعي والإرادة ، بينما تمثل الأم والجيران جناح المحافظين الذين يفكرون في المصلحة ، والأمر في رأى هزارخاني يمثل الصراع الفكرى بين الأجيال ، نمط تفكير جيل في سبيله إلى الإنقراض ، في مواجهة جيل متمرّد ، أو الصراع الدائم بين جيلين : جيل وصل بمرور الزمان إلى نوع من السكون الفلسفى المزيف ، وجيل في حالة غليان (٣٣) ، وتنتصر السمكة السوداء على هذا المنطق " العفن " طبعاً بالفكر والإرادة والوعي ، وإن كان وعياً نسبياً في مواجهة حياة رتيبة ووتيرية ، فهي لا تعلم ماذا تريد ، لكنها تريد تغيير الوضع فحسب حتى بالتضحية بكل روابطها وعلاقاتها ، لكنها تعلم - ولسنا ندري من أين - أن الطريق سوف يتضح لها عند قطعه . ويتساءل هزارخاني : إذا وصفنا هذا النمط أمام أصحاب الأيديولوجيات .. ماذا يقولون ؟ سيقولون : بورجوازية صغيرة مغامرة ورومانسية ثورية كاذبة وعندها جنون مؤقت ناشيء عن عقدة النقص والنظرة الدونية إلى نفسها ، وإخلال بالنظام وتحريض على أمن الأسماك ، عميلة للأجانب " الحلزون المتلوى " ، وثمة نقاد لا يودون أيضاً النظر بغضب ، لكن صمد كان يخلق نمطاً جديداً .

(٣٢) منوچهر هزارخاني : جهان بيني ماهي سياه كوجولو - نشر إحياء تبريز -

بدون تاريخ .

(٣٣) هزارخاني : ١-٢ .

يتميز بخصلتين بارزتين: الجرأة والشجاعة ، جرأة وشجاعة ثوريتين ، ليست فروسية اسكندر ديماس الكاذبة أو الفرسان الأغبياء في قصة الملك بهمن .. وهذه الشجاعة نتيجة قوة خلاقة عن طريق الإرادة والوعي ، تنبثق كالطاقة الذرية ، وتمنح الحياة أبعادا وآفاقا أوسع ومستوى أعلى إلى حد تكامل الإنسانية وقمة نضجها ، فهل هذه رومانسية كاذبة ، ومغامرة لبورجوازية صغيرة ؟ (٢٤)

ويتحمس هزارخاني ، ويصور الضفادع الصغيرة وحوارها معها بأنه تعبير عن طبقة البورجوازية المفكرة "!!" التي تعيش في بركة ساكنة وتدعي الأصالة والأرستقراطية ، حتى أسماؤهم ليست ملكا لهم ومع ذلك يظنون أنهم محور الوجود ، والبركة التي يعيشون فيها هي كل العالم ، والضفدعة هي نموذج الإدعاء واحتقار الآخرين لمجرد أنها تستطيع العيش في الماء واليابسة ، وتسمع الحقيقة من السمكة السوداء الصغيرة : " عيشي أضعاف هذا العمر مائة مرة ، سوف تظلين ضفدعة حقيقية " (٢٥) لكن السمكة الصغيرة واعية بضعفها وقوة الآخرين ، فلا تجر إلى معركة غير متكافئة ، ولا يخرجها أيضا خداع السرطان عن وعيها ويجعلها تتبعه ، وتظل على كراهيتها للسرطان وتحذر منه ، ويجدها هزارخاني فرصة للدفاع عن القيم التي ينشرها صمد بما أشرنا إليه آنفا .. ثم يأتي هزارخاني إلى السطحية ، لماذا هي رمز الوعي ؟ لأنها تعرف أعداءها جيدا وأصدقاءها جيدا ولا تنخدع وتعرف مخاطر الطريق ، وتفضح الأعياب البجعة ، وتحذر السمكة السوداء منها .. وهذا في رأي هزارخاني رمز للتعلم أثناء الحركة ، واستخدام العلم من أجل التقدم ، ومن بعدها تصبح

(٣٤) نفس المصدر ص ٤-٥.

(٣٥) جهان بيني ماهي سياه كوتشولوص ٧.

السمة السوداء الصغيرة قائدة للأسماك الضئيلة التي تحس بالخوف والرعب من البجعة ، ومن ثم فهي مشلولة ، علم نفس الخوف وروحياته ، ومن ثم فهي تشق فيه فجوة ، منها يمكن العبور إلى غير الممكن وإلى المحال ، وفي الصراع مع البجعة تمثل الأسماك الضئيلة حالة الرعب والفرع ، فحالتها خارج كيس البجعة ليس بأفضل من حالها داخله ، بل هو نتيجة حتمية لهذا الرعب (٣٦) وعند الخطر تبدو قيمة المرء الحقيقية وجوهه ، فثمة مشاجرة بين السمة الصغيرة والأسماك الضئيلة داخل كيس البجعة ، الأسماك الضئيلة هلعة خائفة نادمة تود أن تتوسل إلى قاتلها بأن يرحمها ، وتتملقه ، لكن السمة السوداء تعلم أن كل هذا لا يجدى ، إنها تكره - حتى في هذا الخطر- ضعف النفس والملق والتوسل والتذلل ، وعندما تحاول البجعة أن تؤلب الأسماك الهلعة على السمة السوداء وتطالب برأسها ثمناً للعفو عنهم ، تعلمهم السمة السوداء الدرس الأخير ، وعندما تبتلع البجعة الأسماك الضئيلة تقوم السمة السوداء بعملها ، ويخنجرها ، تمزق جوفه ، وتلخص فلسفة حياتها قائلة : " الآن ليأت الموت نحوى ببساطة شديدة ، لكن مادميت حية لن أسعى للقاء الموت ، ولكن إن اضطرت إلى مواجهة الموت ، لا يهم ، المهم أى أثر لحياتي أو موتي في الآخرين " وفي بطن النورس تقول للأسماك الضئيلة التي تتوجع وتتفجع وتنادى أمهاتها " كفى ، كفى يا صغيراتي ، لقد قضيتم على كرامة الأسماك تماماً " والآن تريدون أن تنتهي القصة بانتصار السمة البطلة وتنصيبها زعيمة على الأسماك ؟ لقد فهمتم خطأ ، فصمد لا يعترف بالبطل الدائم والبطل المحترف ، إنه يقبل البطل أثناء بطولته ، عمله ، صراعه وكفاحه ، لقد

(٣٦) المصدر السابق ص ١٢.

صارت السمكة الصغيرة جزءا من كل سمكة حرة تصل إلى البحر، هي ليست سمكة حرة، لكنها جزء من قيمة الحرية، لتمت السمكة السوداء الصغيرة، لكن السمكة الحمراء الصغيرة التي استمعت إلى قصتها ظلت ساهرة طوال الليل تفكر في البحر. (٢٧)

الناقدان إذن اليساري والإسلامي وقعا بين إفراط وتفريط، الإسلامى وقف عند الظاهر لا يريم، واليساري صور كل شيء بمصطلحاته هو، والسمكة الصغيرة السوداء قد تكون هذا أو قد تكون ذاك، وقد تكون شيئا آخر أراد صمد أن يضرب به للأطفال الصغار مثالا عن عدم الإستسلام لحياة الخنوع، والمقاومة حتى ولو لم تكن مجدية، فضلا عن أن يسارية صمد ليست يسارية معلنة، وجنوحه إلى المقاومة الدينية ليس واضحا أيضا، ومن ثم تبقى السمكة السوداء الصغيرة مجرد قصة أطفال، وينبغي أن يقرأها الطفل أولا ثم نسأله: بماذا خرجت منها؟

وختاما لهذه العجالة أرجو أن أكون بمجموعتي هذه قد أضفت شيئا يذكر إلى المكتبة العربية، وأضفت إلى وجدان الطفل القاريء بالعربية جديدا، ولا يفوتني أن أقدم شكرى لأستاذى الجليلين: الدكتور أحمد الخولي على مساعدته إياى عند كتابتي لرسالة الماجستير وبدء طريقي مع صمد، والدكتور ابراهيم الدسوقي شتا على الآفاق الجديدة التي فتحها أمامي بشأن صمد، وعلى تفضله بتشجيعي على إكمال هذه المجموعة ومراجعتها إياها، جازاهما الله عنى خير الجزاء. والله ولي التوفيق.

دكتورة

ماجدة العنانى

مدرس اللغة الفارسية وآدابها

كلية الآداب - جامعة حلوان

مايو ١٩٩٦

(٢٧) اجهان بينى ماهى سياه صص ١٥-١٦.

١ - "أولدوز" والدمية المتحدثة

أوشكت الشمس على المغيب ، وكانت " أولدوز " تجلس فى
المخزن، وهى تضع دميتها الكبيرة أمامها وتحدثها ببطء شديد
قائلة :- أتريدى الحقيقة يا دميتى الكبيرة ؟!! ليس لى غيرك فى
دنياى ، أتسأليننى عن أمى ؟ أنا لا أتذكرها مطلقا !! ولكن جيراننا
يقولون أن أبى طلقها منذ زمن بعيد ، وأرسلها عند أبيها فى القرية ،
وأنا أيضا لا أحب زوجة أبى ، فمنذ أتت إلى بيتنا أخذت منى أبى ،
وأنا وحدي فى هذا البيت ، لقد ذبحوا أيضا بقرتى بالأمس ، وكانت
علاقتى بها أفضل منهما عندي ، كنت أحدثها وهى تلعق يدي
بلسانها وتعطينى لبنها ، وكانت لا تسمح لأحد أن يحلبها إذا لم ترنى
أمامها . كانت فى منزلنا منذ صغرها ، فأمى هى التى استقبلتها
على يدها منذ ولادتها ، وقامت برعايتها حتى كبرت ... يا دميتى
الكبيرة ، إما أن تبادلينى الحديث أو أنفجر !! نعم ، قلت إنهم ذبحوا
بقرتى بالأمس ، فقد كانت زوجة أبى تتوحم واشتهت الأكل من لحم
بقرتى ، والآن ها هى وأختها تجلسان فى المطبخ تنتظران نضوج
اللحم لتأكلان ... مسكينة بقرتى الحنون !! أعرف أنك الآن تغلين
فوق النار... دميتى الكبيرة تحدثنى وإلا انفجرت ، إننى أترجى مرارة
الموت ... فمنذ أن كانت زوجة أبى تتوحم وهى لا تطيق رؤيتى ،
وتقول لى " عندما أرى وجهك أصاب بالغثيان ، ليس بيدي " ، ولذلك
فأنا مجبرة أن أقضى معظم الوقت فى المخزن حتى لا ترى زوجة أبى
وجهى فتصاب بالغثيان ، يا دميتى الكبيرة ، تحدثنى وإلا انفجرت ،
أنا لا أعلم منذ متى وأنت معى ؟!! منذ أن فتحت عيني على الدنيا
رأيتك ، فإذا أصبحت أنت الأخرى سيئة وعابسة معى ، فلا أدري

ماذا يجب على أن أفعل ؟!! يا دميتي الكبيرة !! تحدثي وإلا سأنفجر...
سأموت كمدأ ، يا دميتي الكبيرة !! إننى أنفجر...تحدثي...تحدثي... !!
فجأة شعرت " أولدوز " بيد تمسح دموعها وتقول لها بهدوء : -
" أولدوز " !! يكفى هذا !! لا تبكى ... لن تنفجرى ... فها أنا أتحدث ،
أتسمعين صوتى ؟!! دميتك الكبيرة نطقت ، لن تكونى وحيدة مرة
أخرى أبداً !!

أزاحت " أولدوز " شعرها جانبا ورفعت رأسها فرأت دميتها الكبيرة
قد نهضت من جوار الحائط ، وجلست فى مواجهتها ، وأخذت تمسح
دموعها بيدها ، فقالت :

" أولدوز " - أيتها الدمية : أكنتِ تتحدثين ؟
قالت الدمية المتحدثة : - نعم ، وسوف أتحدث ثانية ، فأنا أعرف
لغتك .

كان الليل قد هبط ، وكانت " أولدوز " ترى دميتها بمشقة ، وخرجت
من المخزن وهى تتحسس طريقها فى الظلام ، واتجهت نحو الرف لكى
تحضر الكبريت لتشعل المصباح ، لكنه لم يكن بجانب المصباح ،
فوضعت المصباح على الأرض وذهبت لتحضر الكبريت من الرف
الآخر . فاصطدمت رجلها فجأة بالمصباح فانقلب ، وانكسرت
زجاجته وانسكب الكيروسين على السجادة ، واختلطت رائحة
الكيروسين بالظلمة وانتشرت فى الحجرة . أثناء ذلك دق الباب
فاضطريت " أولدوز " ، فقالت لها الدمية وهى تقترب من عتبة
المخزن : - أدخلى هنا يا " أولدوز " من الأفضل أن نتجاهل الأمر ،
وقولى أنك لم تخرجى من المخزن مطلقا .

تناهى إلى الأسماع صوت الأب وزوجته في الممر الخارجى ، وتقدمت زوجة الأب وقالت : - كنت فى المطبخ ولم أشعل المصباح ، وسوف أشعله الآن .

قالت العروسة لـ " أولدوز " : - أسرعى ... وادخلى هنا .
قالت " أولدوز " : - من الأفضل أن أقف هنا وأقول لهما أن الزجاجة قد انكسرت ، وإلا ربما وطأت أقدامهما الزجاج ويسوء الأمر .
وعندما كانت زوجة الأب تمر من العتبة إلى داخل الحجرة ، أشعلت " أولدوز " الكبريت وقالت لها : - أمى !! انتبهى !! لقد وقع المصباح وانكسرت زجاجته .

ودخل الأب عقب زوجته بينما كانت زوجة الأب ترفع يدها لتصفع " أولدوز " ولكن سرعان ما أنزل الأب يدها وقال لها : - ألم أقل لك اتركها وشأنها عدة مرات ؟!!

وكانت " أولدوز " عندما كانوا يذبحون البقرة قد بكت وأظهرت الجزع ، حتى قال الجميع أنها ستنفجر من شدة البكاء . وبالأمس أيضاً لم تتناول عشاءها ، وأخذت تهذى وتقلد صوت البقرة حتى الصباح ، لذلك أوصى الأب زوجته بأن تترك " أولدوز " لعدة أيام ولا تترصدها .

قالت زوجة الأب : - لم أربنتاً مهمة وكسولة مثلها !! حتى الصباح لم تستطع إشعاله ، الآن أغربى عن وجهى !!

ذهبت " أولدوز " إلى المخزن ، وأشعلت زوجة الأب مصباحاً آخر ، وقالت لزوجها : - إن رائحة الكيروسين تجعلنى أشعر بالغثيان .
كان الجو صيفاً ، والنافذة مفتوحة ، أطلقت زوجة الأب من النافذة

وتقيأت ، وكان الأب قد أبدل ثيابه ، ثم قام بجمع الزجاج المكسور
وأثناء ذلك جاءت أخت زوجة الأب مسرعة وقالت : - أختى ...!!
صار اللحم أمراً من السم !!

اعتدلت زوجة الأب وقالت : - ماذا قلت ؟!! اللحم مرّ المذاق !!
وقدمت " برى " قطعة من اللحم لها وقالت : - تذوقى ... وانظرى ؟!!
اختطفت زوجة الأب قطعة اللحم من يد أختها ووضعتها فى فمها ،
وكان اللحم حقاً مرّ المذاق ، سيئ الطعم ، بحيث شعرت زوجة الأب
بالغثيان مرة أخرى .

- لن أطيل عليكم - وأسرعت زوجة الأب والأب و " برى " إلى
المطبخ ، وكانت " أولدوز " ما زالت - هي ودميتها المتحدثّة - تجلسان
بالمخزن وتتحدثان ، بينما كان الضوء خافتاً ، قالت " أولدوز " : -
أسمعتِ يا دميّة المتحدثّة ماذا قالت " برى " ؟ لقد قالت أن اللحم
أصبح مرّ المذاق .

قالت الدمية المتحدثّة : - أظن أن البقرة جعلت لحمها مرّ المذاق لهم
فقط ولكنه لن يكون مرّ المذاق فى فمك !!
قالت " أولدوز " : - سوف آكل منه .

قالت الدمية : - لا بد أن تحتفظى بشيء من البقرة ، سوف ننفعنا
هذا النوع من الأبقار فإن له خواصاً عديدة .

قالت " أولدوز " : - أى قطعة فى رأيك أحتفظ بها ؟!
قالت الدمية : - كارعها مثلاً !!

إنه مر المذاق لزوجة الأب

حلو المذاق لـ " أولدوز "

اجتمع الأب وزوجته و " برى " في المطبخ ، وأخذوا يتذوقون قطع اللحم قطعة وراء الأخرى ، ويلفظونها ، وكان قدر كبير من اللحم لا يزال معلقا بالخطاف ، كانوا قد تركوه لليوم التالي ليفرموه . فقطع الأب قطعه من اللحم النئ وتذوقها فوجدها أيضاً مرة المذاق ، سيئة الطعم ، فقال : - لا أدري ماذا أكلت البقرة قبل ذبحها فصار لحمها هكذا ؟ !!

قالت زوجة الأب : - لم تأكل شيئاً ، ولكن ابنتك صبت سم عينيها عليها ، كم هي دميمة !!

قال الأب : - لقد ذبحناها بلا سبب !! حرام !! وكم قلت لك دعيني أشتري لك لحم بقر من القصاب ، ولكنك لم تقبلي .

قالت زوجة الأب : - فلتذهب البقرة إلى الجحيم ! ... أنا موشكة على الإنهيار فالرائحة العفنة تشعرني بالغثيان .

وأمسكتها " برى " من ساعدها وقالت لها : - هيا بنا نخرج .

إتكأت زوجة الأب على ساعد " برى " ، وذهبت وجلست على حافة الحوض وقالت : - نادى " أولدوز " لتأخذ هذا اللحم وتحمله إلى بيت كلثوم فرائحته العفنة تملأ البيت .

كانت كلثوم جارتهم من جهة اليسار ، وكان زوجها فى طهران يشتغل عاملاً فى حرق الطوب ، ولها طفل صغير يدعى " يشار " يذهب إلى المدرسة بينما كانت هي تقوم بغسل الملابس أغلب الوقت .

أسرعت " برى " صوب الحجرة ونادت على " أولدوز " قائلة : -
" أولدوز! أولدوز! أمك تريدك أن تذهبى إلى منزل " ياشار " .
وعندما نادت " برى " على " أولدوز " قطعت حديثها مع دميتهما .
فقد كانت تُعرفها بـ " ياشار " .
وقالت الدمية المتحدثة : إذا رغبتِ فى نقل خبر نطقى إلى " ياشار "
فافعلى .

فقالت " أولدوز " : - أجل لابد أن أقول له .
ذهبت " أولدوز " إلى الفناء وكان المصباح الكهربى على رأس الحارة
يبعث ضوءاً خافتاً فى الفناء ، وكانت زوجة الأب جالسة تتقيأ ، وقد
أحضر الأب الوعاء ووضع تحت شجرة التوت ، وذهب ووضع كفه
على جبهة زوجته .

وقالت " برى " لـ " أولدوز " : - خذى هذا الوعاء وأعطيه لكثوم .
وقالت زوجة الأب : - لا تجلسى كثيراً وتحدثى مع هذا الولد
الصائح... عودى سريعاً ! ...

قالت " أولدوز " : - أمى ، لماذا لا تأكلين من اللحم؟
أجابت زوجة الأب وقد نفذ صبرها : - هل خشيت أنفك بالقطن؟!
ألا تشمين رائحته العفنة؟! إحمليه وأسرعى .

قالت " برى " لزوجة الأب : - يا أختى الكبيرة : عندما كانت هذه
البقرة حية ، كانت بليدة عنيدة، إنها حيوان حقير .

ولم يكن الأب ينبس . وعاد ينظر إلى - " أولدوز " فراها قد أخرجت
قطعة من اللحم من الوعاء وأخذت تلوكها بشهية وتلذذ ثم تبتلعها .
وفجأة صاح وقال : - أيتها البنت !! لا تأكليها فتمرضين

وهنا التفت الجميع لصوت الأب ، وأخذوا ينظرون إلى " أولدوز " فتجمدوا فى أماكنهم من شدة تعجبهم .

وقال الأب مرة أخرى : - أيتها البنت قلت لا تأكلى !! أبصقيها على الأرض .

قالت " أولدوز " : - يا أبت !! لحم بهذه الجودة والمذاق الطيب ... لم لا أكل ؟!!

قالت " برى " : - عجباً !! عجباً !! إنها مثل الجوارح ، أى شىء تحصل عليه تأكله!!

قالت زوجة الأب : - إنها ليست آدمية .

وضعت " أولدوز " : - قطعة أخرى فى فمها وقالت : - أنا لم أكل من قبل لحماً أشهى من هذا !!

ارتعدت زوجة الأب ، وعبست " برى " وبهت الأب ، فقالت " أولدوز " مرة أخرى : - يا لها من رائحة طيبة ، إن مذاقه مثل مذاق الزيد ولحم الدجاج وما يشبهها يا أمى .

كانت زوجة الأب تدعك يديها ووجهها ، فنهضت وذهبت نحو الغرفة وقالت لها: - كلى كما تشائين ، حتى ولو خرجت أحشاؤك ، فمالى أنا!! قال الأب : - يكفى آخر يا بنت ،، إنك ستمرضين ، احمليه واعطيه لبيت كلثوم .

قالت " أولدوز " : - أتركنى أكل قطعة أو إثنين .

ودلف الأب و " برى " أيضاً إلى الداخل . وأخذت زوجة الأب تقطع الغرفة ذهاباً وإياباً ، وهى تضع يدها على بطنها وتقاؤه ، وعندما دخل الأب و " برى " قالوا : - الرائحة العفنة تملأ المكان !!

قالت "برى" : - ورائحة الكيروسين أيضاً يا أختى الكبيرة .
قالت زوجة الأب : - هل أنا غبية إلى حد أنى لا أعرف رائحة الكيروسين؟!! آخ!! بطنى!! أحشائى تخرج ... آه ... آه!!
قال الأب : - إحمليها يا "برى" إلى الفناء حتى تشم هواءً نقياً .
وأخذت "برى" يد زوجة الأب ، وخرجتا إلى الفناء ، وكانت "أولدوز" لا تزال جالسة تحت الشجرة ، تأكل من اللحم بشهية ، متلذذة به وهى تلعق أصابعها وتعلن استحسانها ، فصاحت زوجة الأب قائلة : - يا نصف الشير : ها أنت تقومين ثانية بإخراجى عن طورى ، قلت لك أخرجى هذه الرائحة العفنة من البيت!!
قالت "أولدوز" : - أى رائحة عفنة هذه يا أمى؟!!
رمت زوجة الأب الوعاء وصاحت قائلة : - اقول لك ، لحم بقرتك الجرياء هذه ... ياللا ، إنهضى واحملى هذه الرائحة وأخرجيها من هنا ، فإن أحشائى تخرج من بطنى .
قالت "أولدوز" : - أتركينى يا أمى آكل بعض القطع منها ، فإننى جائعة .
أمسكت زوجة الأب بشعر "أولدوز" وأخذت تصيح قائلة : - أتعاندينى يا بنت الكلب!!
أطل الأب من النافذة على الصياح والصراخ وسأل : - ماذا حدث ثانية؟!!
قالت زوجة الأب : - إنك لا تقدر على أحد قط سوى أنا التعيسة ، لاتزال تقول لى ألا يكون لى شأن مع هذه الصفراء ، الآن أنظر كيف تعاندنى ؟

حملت " أولدوز " الوعاء وذهبت به تجاه باب الممر ، ووضعت الوعاء خلف الباب على الأرض ، وأمسكت بحلقة الباب ، وألصقت إحدى قدميها بالباب ورفعت نفسها الى أعلى ، وفتحته ، ثم نزلت ، وحملت الوعاء وخرجت .

فصاحت زوجة الأب وراءها قائلة : - لا تغلقى الباب !!

حديث بسيط وودى :

وفى تلك الليلة نام الاب وزوجة الاب فى الفناء ، قالت اولدوز سوف انام فى الحجرة .

قال الأب : - يا بنت ، إنك دائماً تقولين إنك تخافين من النوم فى المخزن وحدك ، الآن ماذا حدث لك ؟!! أتريدين أن تنامى بمفردك تماماً ؟

قالت " أولدوز " : - أشعر بالبرد .

قالت " برى " : - جوبهذه الحرارة !! وتقول أنها تشعر بالبرد ؟ مسكينه يا أختى !! إنك على حق عندما لا تطيقين رؤيتها .

قالت زوجة الأب : - إهملوها ، ولتذهب إلى الجحيم ، فهى ليست بآدمية ، تأكل اللحم العفن وتتلذذ به !!

وعندما هدأت الضوضاء ، نادى " أولدوز " على دميته المتحدثة ، فجاءت العروسة ودخلت تحت غطاء " أولدوز " وانهمكتا فى الحديث ، وسألت الدمية " أولدوز " قائلة : - هل رأيت " يشار " ؟

قالت " أولدوز " : - نعم رأيته ! لم يصدق أنك صرت تتحدثين ولا بد أن نجتمع ثلاثتنا ذات يوم و...

قالت الدمية : - الآن نحن فى الصيف ، و " يشار " لا يذهب إلى

المدرسة ، نستطيع أن نلعب ونتنزه من الصباح حتى المساء .
قالت " أولدوز " : - " ياشار " ليس عاطلا ، إنه يعمل فى نسج
السجاد .

قالت العروسة : ولكن أين أبوه ؟!!
قالت " أولدوز " : - ذهب إلى طهران ليعمل فى قمائن الطوب .
قالت الدمية : - يا " أولدوز " لابد أن تحتفظى لنا بكارع البقرة فى
أى مكان تكونين فيه ، ذلك لأنها لم تكن بقره عاديه .
قالت " أولدوز " : - أوافقك على ذلك ، كل من يأكل لحمها يصاب
بالغثيان ، أما بالنسبة لى فلها مذاق الزيد والعسل ولحم الدجاج ،
كذلك " ياشار " وأمه أعجبهم وأكلوه بشهيه .

قالت الدمية : - هل كان " ياشار " بخير ؟
قالت " أولدوز " : - قطعت السكين إبهامه هذا الصباح وهو فى
المصنع ، يالسوء الحظ ، لن يستطيع أن يعقد العقد بعد .
فجأة ارتفع صراخ زوجة أبيها عليها بصوت عال : - يا بنت ...
إكتمى .. لماذا تثرثرين مع نفسك هكذا مثل المجانين ، كلامك غير
واضح ، ماذا تقولين ؟!!

قال الأب : - إنها تحلم .
قالت زوجة الأب : - تنام ما تقوم .
همست الدمية : - من الأفضل أن تنامى .
فهمست لها " اولدوز " : - إننى لا أرغب فى النوم ، أريد التحدث
واللعب معك هل تعرفين حكى القصص ؟
أجابت الدمية : - فلتنامى الآن قليلاً ، وعندما يحين الوقت سأوقظك

لأننى أريد أن آخذك أنت و " ياشار " إلى الغابة .
لم تقل " أولدوز " شيئاً ، وتمددت على ظهرها ، وثبتت عينيها
بالنافذة ، وأخذت تنظر إلى السماء فى انتظار رؤية النجوم .

٥ ليلة الغابة

٥ ليلة وكأنها كانت حلما

٥ شقلمبة فى السماء

بعد أن انقضى نصف الليل ، وبينما أخذ القمر فى الظهور من
خلف الجبال ، سكن الهواء فوق الأرض ، ولم يكن ثم نفس ، وكان
النسيم فى الطبقات العليا يهب عيلاً ، بينما كانت هناك ثلاث
حمام بيض يطرن على جناح النسيم ويمضين بخفة وينزلقن ، كانت
البلدة نائمة تحت أرجلهن وأجنحتهن فى ظل ضوء القمر . وكان
لإحدى الحمام ريشة مكسورة مريوطة بخيط ، وكان هناك بعض
الأشخاص ينامون على الأسطح ، واستيقظ طفل وقال لأمه : - أمى :
انظرى هذه الحمامات وكأنها ضلت طريقها ، كانت أمه تغط فى
نوم عميق ، فلم تستيقظ ، وظلت عين الطفل تتابع الحمامات
وتتحرر ، وظل هكذا حتى غلبه النعاس مرة أخرى .

وبينما كان القمر يزداد سطوعاً أخذت الظلال تنحسر ، وكانت
الحمام قد ابتعدت عن البلدة كثيراً ، وقالت الحمامة ذات الريشة
المكسورة للحمامة

الوسطى : - أيتها العروسة المتحدثة : هل الغابة بعيدة جداً ؟!!
أجابت الحمامة الوسطى : - لا يا عزيزى " ياشار " إنها تقع وسط
هذه الجبال ، إنها تلك الغابة التى يظهر من خلفها القمر ، أخشى أن

يكون التعب قد أصابك .

قال " يشار " : - وهو نفسه الحمامة ذات الريشة المكسورة : -
لا أيتها الدمية المتحدثة ، فأنا سعيد بالطيران ، فمهما أطيروا
أتعب ، ففي أيام الصيف دائماً كنت أحلم أنني أركب طائرتي
الورقية وأطير بها .

قالت الحمامة الثالثة : - أنا دائماً أحلم كل ليلة أن لدى جناحاً
وأطير .

قالت الحمامة الوسطى : - وهي الدمية المتحدثة : - كيف ؟!
قالت الحمامة الثالثة : - ذات ليلة رأيت في الحلم أنني كنت أحمل
علبة عسل وقد أكلتها ، وعرفت زوجة أبي فتعقبته بيديها عصا
العجين فحاولت - بقدر المستطاع - الهرب منها ، ولكنني لم أستطع ،
كنت أحس بثقل في قدمي ، وأخذت أراجع للخلف ، ولم يبق سوى
القليل وتلحق بي زوجة أبي ، وفجأة ارتفعت في الهواء وبدأت في
الطيران ، وابتعدت عنها ، وأخذت أطيروا من سطح إلى آخر ، وأخذت
زوجة أبي تصيح من أسفل وتتبعني .

قال " يشار " : - وفي النهاية ؟!!

قالت " أولدوز " : - بعد ذلك مدت زوجة أبي يدها فجأة وأمسكت
بقدمي وسحبته إلى أسفل ، فصرخت من شدة الخوف ، وفزعته
من نومي . رأيت أن النهار قد طلع ووجدت زوجة أبي تمسك بإصبع
قدمي وتهزني وتقول : - إنهضى ، لقد أشرقت الشمس ، أما زلت
نائمة حتى الآن ؟!!

ضحك " يشار " والدمية المتحدثة وقال : - يا له من حلم عجيب !!

قالت الدمية المتحدثة بعد ذلك : - أي سوء فعلته بزوجة أبيك بحيث لا تقلع عن إيدائك حتى فى النوم ؟

قالت " أولدوز " : - لا أعرف !! ذات يوم قالت لأبى ما دمت أنا فى البيت فلن يحبها أبى ، ولكن أبى أقسم أنه يحبنا نحن الاثنين .
قال " ياشار " : - أريد أن أتشقلب عدة شقلبات .
قالت العروسة : - فلنعمل ثلاثتنا .

فى تلك الليلة كان الرعاة الذين يتجولون فى هذه المنطقة ، ينظرون إلى السماء يرون ثلاث حمامات أشد بياضاً من اللبن يطرن فى السماء ويتشقلبن ويتكلمن ويذهبن ومع ذلك لا يتعبن مطلقاً .
فجأة قال " ياشار " : - اوه ، انتظروا لقد فُتح جرحى .

فنظرت " أولدوز " والدمية فشاهدتا الدم يتساقط من ريشة " ياشار " المكسورة ، فنزعت العروسة زغباً من صدرها ، وسدت به جرح " ياشار " ، ثم قالت : - عندما نصل إلى الغابة سندهن جرحك بالدهان ليشفى سريعاً .

وفى ذلك الوقت كانوا قد وصلوا إلى أسفل الجبال ، فرأوا فى البداية وادياً ضيقاً ، وكانت الجبال قد التقت فى فوهة الوادى وجعلت الوادى أكثر ضيقاً ، فدفقت الحمائم داخله . وسأل " ياشار " الدمية : - أيتها الدمية المتحدثة : لم تقولى لنا بعد ، لماذا نذهب إلى الغابة ؟

قالت الدمية : - اليوم ستأتى جميع الدمى إلى الغابة ، فقد اعتدنا الإجتماع مرة كل عدة شهور .

قالت " أولدوز " : - لماذا تجتمعون ؟

قالت الدمية : - إننا نجتمع لنتباحث فى أمور الأولاد والبنات الصغار ، هل هم طيبون أم لا ؟ أيضاً نحن محتاجون للأفراح والاحتفالات .

إنتهى الوادى ، وبدأت الغابة ، كانت الأشجار طويلة طويلة تتلأأ تحت ضوء القمر . وظل الثلاثة يطيرون مدة فوق الأشجار حتى وصلوا إلى وسط الغابة . ووصل إلى أسماعهم ضجة وضجيج وهممة حديث ، كانت أرضا شاسعة بلا أشجار ، وكانت هناك بركة تبدأ من إحدى الزوايا وتلتوى خلف الأشجار ، وتحيط بها الأشجار المختلفة العالية تحط عليها طيور ملونة تغرد أو تتحدث ، وبجوار هذه البركة اشتعلت نار كبيرة كان نورها الأحمر يشع فى كل مكان ، وكانت هناك مئات وآلاف الدمى الصغيرة والكبيرة تذهب هنا وهناك ، أو تجلس مجموعات تثرثر ، وكانت الدمى سواء الكبيرة منها أو الصغيرة ترتدى ملابس جميلة ، ومنها من كانت ترتدى ملابس متواضعة ، وكان الأولاد والبنات مختلطين .

وفى تلك الليلة كانت حيوانات الغابة قد تركت النوم ، بل وتجمعت أسفل الأشجار وحولها ، وكانوا يشعرون بالراحة فى أماكنهم وهم يتفرجون على الدمى .

كان " ياشار " و " أولدوز " فرحين لرؤية الدمى والطيور والحيوانات ، فلم ير ذلك أى طفل حتى فى الحلم ، كذلك كان القمر يُشاهد منعكساً على سطح البركة ، وكانت الطيور والأشجار ومشاعل النار . كان كل شئ يبدو جميلاً ورقيقاً ، وطيباً ، وكان

كل شئ يبعث على الحب ، كل شئ ... كل شئ

طاووس بذيل كالمظلة ... وثرثار :

كان الطاووس يحط بمفرده على شجرة وذيله معلق .
وقالت الدمية المتحدثة لـ " ياشار " و " أولدوز " : - تعاليا
لأخذكما عند الطاووس لنحدث معه ، أما أنا فسوف
أذهب عند ساره ، وعندما أنادى عليكما تعاليا عندالدمى .

قالت " أولدوز " : - ومن ساره هذه ؟!!

قالت الدمية : - ساره هي كبيرة الدمى .

ثم قدمت الدمية الأطفال للطاووس ، وذهبت إلى
أصدقائها .

قال الطاووس : - إذن فأنتما صديقا الدمية المتحدثة .

قالت " أولدوز " : - نعم لقد أحضرتنا هنا لكى نشاهد
احتفال الدمى .

وقال " ياشار " : - حقا ، أيها الطاووس كم أنت جميل !!

فقال الطاووس : - وماذا رأيتم منى الآن ، أنظرا إلى ذيلى !!
فنظر " ياشار " و " أولدوز " ، فرأيا ذيل الطاووس يرتفع
لأعلى ببطء شديد ، ثم ينفتح وكأنه مظلة كبيرة ، وكان
ريش الطاووس يشع ألف لون فى ضوء القمر والنار ، حتى
أن الطفلين ظلا فاغرى فميهما من شدة التعجب .

قال الطاووس : - نعم ، أناكما تريانى ، طائر جميل جداً ،
أتريان كيف صنعت قوساً جميلاً بذيلى ؟ فكل الأطفال
يتوقون شوقاً لريشة من ريشى . وجميع الشعراء امتدحوا
جمالى ورقتى ، فمثلا يقول " سعدى الشيرازى " :

من شدة جمال الطاووس يقتلع الأطفال ريشه وأجنحته

وقد قرأت في كتاب قديم أن "أبا على سينا" الحكيم الكبير قد مدح شحمى ولحمى على أنهما علاج لكثير من الأمراض . والشعراء أيضا يشبهون الشمس بى ، فيقولون " الطاووس نارى الریش " ، وأیضا كانوا قد أطلقوا على فى بعض الكتب القديمة إسم " أبى الحسن " ، كذلك فأنا أجمل من زوجتى ...

تضایق " یاشار " من كثرة كلام الطاووس ، ولكنه كان يرغب فى أخذ ريشة أو ريشتين من ريشه ، فأنصت له جيداً ، وكان يتحين الفرصة ، وبعد ذلك قاطع الطاووس قائلاً : - يا عزيزى الطاووس ! هل تعطينى أنا و " أولدوز " ريشة أو ريشتين من ريشك الجميل ؟ فإننى أريد الاحتفاظ بها فى طيات كتبى .

دهش الطاووس وقال : - لا ... لا أستطيع أن أنتزع ريشى الغالى ، فهو جزء منى ، هل تستطيع أن تخرج عينيك وتعطيها لى ؟

كان إنتباه " أولدوز " كله موجهاً للدمى والحيوانات ، بينما كانت تنصت قليلاً إلى حديث الطاووس . لذلك كانت أسرع إنتباهاً من " یاشار " فى رؤية الدمية المتحدثة وهى تنادى عليهم . وكانت الدمية قد ألقت بجلدها ، ولم تعد فى صورة حمامة . نظرت " أولدوز " إلى " یاشار " فرأته فى حالة ضيق ، فقالت له : - تعال يا

"ياشار" نهبط، فالدمية المتحدثّة تناديننا .

سلما على الطاووس ثم طار، وهبطا، وكان الطاووس لايزال رافعاً ذيله، ولم يتحرك من مكانه حتى لا تظهر ساقاه القبيحتان، وعندما رأى أن الطفلين يرغبان فى الذهاب، قال لهما: - مرحباً بكما، أتمنى منكما ألا تنسيا أن تمتدحا جمالى فى أى مكان تذهبان إليه .

التعرف على "سارة" والدمى الأخرى:

مسحت الدمية المتحدثّة بيدها على رأسى "أولدوز" و"ياشار" ووجهيهما وأخرجتهما من جلد الحمام، وكانت دمية صغيرة يبلغ طولها شبراً قد جلست على حجر، وقالت الدمية المتحدثّة: - يا سارة: - "أولدوز" و"ياشار" أصدقائى .

فألقي "ياشار" و"أولدوز" السلام، فنهضت "سارة" واقفة فأنحنى الطفلان وصافحاهما .

قالت "سارة": - مرحباً بكما فى حفلنا، فأنا أرحب بكما نيابة عن كل الدمى .

قال "ياشار": - ونحن أيضاً نفتخر كثيراً بأننا قد استطعنا اكتساب حب الدمية

المتحدثّة، ونحن سعداء بحضورنا، وسعداء أيضاً لأنكم تعاملونا مثل أصدقائكم ونشكركم جميعاً .

قالت " سارة " : - فى البداية أوجه الشكر لكما لأنكما استطعتما بأخلاقكما وسلوككما الحسن أن تجعلا دميكما تتحدث ، ولأنكما أتيتما إلى هذه الغابة .
بعد ذلك يمت وجهها نحو الدمية المتحدثة وقالت : -
خذى الطفلين وعرفيهما بالدمى الأخرى ، وأخبرى الجميع بأن يحضروا عندى حتى نتكلم قليلاً ثم نبدأ الرقص .
وبمجرد أن سمعت الدمى أن الدمية المتحدثة اصطحبت أصدقاءها ، أخذت الدمى تتقدم مجموعة مجموعة ، وأخذت تلتف حول الطفلين وبدأت فى الترحيب والملاطفة وتجادب أطراف الحديث .

كيف يكون شكل المغرورين ؟!!

كان إصبع " يشار " يؤله بشدة فأمسك بيد الدمية ، وقال : - إصبعى يؤلنى بشدة، إفعلى شيئاً !!
قالت الدمية : - حقاً ، لقد ذكرتنى ، كان ذلك قد راح عن بالى تماماً .

وتقدمت دمية كبيرة وقالت : هل جُرحت يا " يشار " ؟!
قال " يشار " : - نعم يا سيدتى الدمية ، لقد قطعت السكين إبهامى .

وأضافت " أولدوز " قائلاً : فى مصنع نسيج السجاد .
قالت الدمية الكبيرة : - هيا نذهب للغابة ، فإنى أعرف

مرهماً سيشفى جرحك بعد ساعات قليلة ، هيا !!
بعد ذلك أمسكت بيد " ياشار " وذهبت به .
قالت الدمية المتحدثة : - إذهب يا " ياشار " إنها دمية
عطوف تعرف دواءً ممتازاً من العشب .
ثم مر الإثنان من وسط الدمى حتى وصلا إلى أسفل
الأشجار ، وافسحت حيوانات الغابة لهما الطريق ، وكان
هناك أرنب أبيض يلوك ساق نبات ، فقالت له الدمية : -
يا رفيقى الأرنب : هل تستطيع أن تذهب إلى الغابة ،
وتحضر لنا ورقة
عريضة أو ورقتين من هذا العشب ؟!
قال الأرنب : - من الذى ستعالجين جرحه هذه المرة ؟
قالت الدمية : - سوف أعالج جُرح " ياشار " وسنظل
جالسين هنا تحت شجرة السرو .
لم يقل الأرنب شيئاً ، بل قفز وغاب وراء إنحناءات
الغابة ، وجمعت الدمية عدة أصناف من أوراق الأشجار
والأعشاب ، ثم جلست تحت شجرة السنار ، ووضعت
حجراً عريضاً وأخذت تدق ورق الأشجار والأعشاب .
كانت الدمى الأخرى لتُشاهد من هذا المكان ، كانت
تُشاهد فحسب بشكل أو بآخر وسط أعواد الأشجار
وأوراقها .
قال " ياشار " : - سيدتى الدمية : أتعرفين الطاووس ؟!!

قالت الدمية : - أعرفه جيداً ، فهو نفاج دائماً ومغرم بالتظاهر .

قال " يشار " : - أخذتنا الدمية المتحدثة أمامه لكي نتحدث ، ولكنه تحدث عن نفسه طوال الوقت .

قالت الدمية : - لقد أخذتكما الدمية المتحدثة أمامه لكي تريا بأعينكما كيف يكون شكل المتكبرين .

قال " يشار " : - لقد قلت له أن يعطيني ريشة أوريشتين من ريشه لأحفظهما في طيات كتبي ، ولكنه لم يعطيني ، وقال أن ريشاته ليست رخيصة كما أعتقد .

قالت الدمية الكبيرة - والتي كانت لا تزال تدق أوراق الشجر والأعشاب - : إنه يتحدث بلا معنى ، ففي هذه الأيام يتساقط ريشه ، وتستطيع أن تأخذ منه كيفما شئت .

قال " يشار " : - أحقاً ؟ !

قالت الدمية : - في مثل هذه الأيام من كل عام يتساقط ريش الطاووس .

قال " يشار " : - ترى كيف يصير شكله في ذلك الوقت ؟ !!
قالت الدمية : - عبارة عن شيء قبيح ، ومنظر مُنفر ، خاصة وهو لا يستطيع أن يخفي رجليه القبيحتين .

ليالى الغابة المظلمة ...

ويراعة الليل المضيئة

بينما كان " ياشار " ينظر فى ظلمة الغابة وقعت عيناه فجأة على ضوء ضعيف يقترب منهما من وسط الأعشاب ببطء شديد ، فقال للدمية : - سيدتى الدمية من أين ينبعث هذا الضوء ؟!!

نظرت الدمية وقالت : - هذه هي اليراعة المضيئة ، إنها فراشة طيبة ، وهى ترسل ضوءاً خافتاً فى الظلام ، وأظن أنها تأتى نحونا ، إنها لا تحب أن تبقى فى الظلام .
إنتظر " ياشار " والدمية حتى وصلت اليراعة وألقت عليهما السلام ، قالت الدمية : - سلاماً أيتها اليراعة ، إلى أين تريدان الذهاب ؟

قالت اليراعة : كنت أتجول فى الغابة المظلمة ، وعندما سمعت صوتكما قلت لنفسى ، عندى ضوء قليل ، فلماذا لاأتى ؟؟؟

فشكرتها الدمية وأشارت إلى " ياشار " وقالت : - إننى أعد مرهماً لجرح " ياشار " إنه ولد طيب ، فلتتعرفى عليه .
وأخذ " ياشار " واليراعة يتحدثان وقد أخبرها " ياشار " عن المدرسة ونسج السجاد ، وأمه وأبيه . وحدثته هي أيضاً عن الغابة والحيوانات والأشجار وليالى الغابة المظلمة ، بينما أعدت الدمية الكبيرة المرهم وجهزته ، ثم ذهبت بعد

ذلك إلى إحدى الأشجار الضخمة وقطعت إحدى ثمارها
وأحضرتها ، ثم عصرت الثمرة وأخذت ماءها وغسلت به
جرح " ياشار " ونظفته .

أى نورولو كان ضئيلاً ...

فهو أيضاً نور ...

رقع فوق ركبة " ياشار " :

بعد عدة دقائق وصل الأرنب ، وكان يمسك بين
أسنانه ورقتين ناعمتين عريضتين ، فأعطاهما للدمية ،
وعندما رأى اليراعة سلم عليها وقال : - يا له من مجلس
ودى عجيب .

قالت اليراعة المضيئة : - يا رفيقى الأرنب : أنا دائماً
أسعى لإضاءة مجلس الآخرين المظلم ، إننى أضىء الغابة ،
ومع ذلك هناك بعض الحيوانات فى الغابة يسخرون منى
ويقولون : أ يكون الريح بوردة واحدة ، فأنت تسعين
بلافائدة ، كيف بنورك الضئيل تضيئين الغابة المظلمة ؟

قال الأرنب : - هذا كلام القدماء ، ولكن نحن نقول : إن
أى نور مهما كان ضئيلاً ، فإنه يضىء أيضاً .

دهنت الدمية الجرح بالمرهم ، ووضعت عليه ورقة الشجرة ،
وسألها الأرنب : - سيدتى الدمية : هل تحتاجينى مرة
أخرى ؟

قالت الدمية:- لى طلب واحد عندك ، ذلك الطاووس
الجالس على شجرة لسان العصفور بجوار البركة ، فى هذه
الأيام يتساقط ريشه ، فلتذهب وتصنع معه أى شئ ليهتز
فتسقط منه ريشة أوريشتان وعندئذ خذها وأحضرها
لنعطها لـ "ياشار"، فإنه يرغب فى وضعها بين طيات كتبه.
ذهب الأرنب ، وقالت اليراعة : هل هو نفس الطاووس
المغرور؟

قالت الدمية : - نعم !!

وقال " ياشار " : - نعم ، إنه يدل بريشه جداً .

قالت اليراعة : يا رفيقى " ياشار " أنظر للسيدة الدمية :
إنها ترتدى ثياباً ملونة ، كم هي جميلة !! إنها أجمل من
الطاووس ، ولكن ليس لديها ذرة واحدة من غرور أو تكبر ،
لذلك فإنها إذا خلعت ملابسها ، وألقت بها بعيداً سنظل
نحبها أيضاً ، كما انها لن تصبح قبيحة المنظر ، فهي
بثيابها مثلما هي بدونها .

لم تكن الظلمة دامية وسط الأشجار ، وأخذ " ياشار "
يتحسس الرقعة الموجودة على ركبته ، ثم نظر لأكمامه
الممزقة ، وقدميه الحافيتين وكعبيه المتشققين ، ولم يقل شيئاً .
قالت الدمية : - " ياشار " ، لا تعتقد أننى مثل الطاووس
أسيرة لثيابي الملونة ، فقد ألبسونى إياها فى البيت ، فأنا
أعيش فى بيت أناس أغنياء والدمية المتحدثة تعرف بيتنا
جيداً .

وقطعت الدمية قطعة من طرف قميصها وربطت بها يد
" ياشار " ، وعندما نهضوا

لكى يذهبوا ، قالت اليراعة : - سأبقى هنا حتى يعود
صديقنا الأرنب ، لأرسله وراءكما .

كانت الدمية و " ياشار " لا يزالان فى وسط الأشجار ،
حتى وصل إليهما الأرنب ، وكان فى فمه ريشتان جميلتان
للطاووس ، فأخذ " ياشار " الريشتين ومضوا فى طريقهم .

أجمل رقصات العالم :

كانت " سارة " كبيرة الدمى تتحدث بجوار البركة ،
والدمى الأخرى صامته منصته ، وكانت " أولدوز " تقف فى
أحد الأركان .

وكانت " سارة " تقول : - لن أزعجكم أكثر من ذلك ،
وسوف نرى بعضنا مرة أخرى فى الخلوة الصغيرة ، وفى
نهاية حديثى أوجه شكرى مرة أخرى للضيفين العزيزين ،
لأنهما استطاعا بعطفهما وإخلاصهما أن يجعلا دميتهما
تتحدث ، فجميعنا نعرف أنه لا يوجد طفل حتى الآن
استطاع بسلوكه الحسن أن يجعل دميته تتكلم ، لذا أتمنى
أن تدوم صداقة " أولدوز " و " ياشار " ودميتهما ، والآن
ترحباً وافتخاراً بضيوفنا الأعزاء ، فلنرقص رقصة الوردة
الحمراء .

صفق الجميع لـ "سارة" وتفرقوا ، وأجلست الدمية
المتحدثة الأطفال على صخرة مرتفعة وقالت : - إجلسا
هنا وتفرجا على رقصة الورد الحمراء ، أفضل رقصات
الدنيا .

رقصة الورد الحمراء

نشيد الورد الحمراء :

خلا الميدان للحظة، وكانت الحيوانات ملتفة حول
الأشجار والطيور من فوق الأشجار، ولم يكن هناك شئ
يشاهد أكثر من ذلك . ثم انبعث صوت الموسيقى الحاملة
الجميلة ، ودخلت الميدان عشرة أو عشرون دمية ترتدين
الملابس البنفسجية وتعزفن ، ومشين ببطء شديد ، ثم وقفن
فى زاوية ، بعد ذلك طفا من قاع البركة قارب أبيض
عجيب بلون الثلج ، يهتز على أنغام الموسيقى وهو يتقدم ،
وكانت دمي كثيرة ذات ثياب بيضاء تقفن فى صمت على
القارب ، وصوت خرير الماء ينبعث من البركة كالهمس ،
وكان الكثير من البط والبجع يتجمع أمام القارب وخلفه
ويدفعونه ، وكذلك الأسماك الحمراء الصغيرة والكبيرة
كانت تلتف حول الدمي البيضاء وهى تنزلق إلى الأمام ،
وكان ضوء القمر منعكساً فى الماء ، وعندما وصل القارب
إلى حافة الماء ، نزلت الدمي البيضاء على الأرض وهن

يرقصن ، واصطف البط والبجع والأسماك على حافة الماء ،
وأخذت الدمى تهز أجسادها وأيديها ، وترقص بهدوء ،
وكانت أذيال قمصانها تصل إلى الأرض ، وهن يرقصن ،
وتقترب كل منهن من الأخرى ، ويتسمن ، وكن يرقصن
اثنتين اثنتين، وثلاثة ثلاثة ، وبدأت واحدة أو اثنتان فى
الغناء ، وبعد قليل إلتحقت الأخريات بهن ، وملأت
الموسيقى والألحان فضاء الغابة .

وأخذت العرائس تغنى هكذا :

كان ياما كان

على حافة هذه المياه الزرقاء

نبئت وربة حمراء

كبيرة

جميلة

كثيرة الأوراق

وهبت الريح

تساقطت الأمطار

حلت العاصفة الثلجية

هبت العاصفة

اقتلعت الوردة الحمراء من مكانها

تساقطت أوراقها

اين ذهبتي ؟!!

ماذا فعلوا بها ؟!!

هل هي حية ؟!! هل هي ميتة ؟!!

لا أحد يعرف !!!

وأسفاه !! كم كانت وردة ... وردة حمراء جميلة ...

تجمعت الدمى البيضاء مغنيات وراقصات ، ووقفن بجوار

الدمى البنفسجية ، وبعد قليل ظهرت دمية صغيرة حمراء

من خلف الأشجار وأخذت ترقص .

بدأت الدمى البيضاء بالغناء :

نحن نعرفها

أوراق الورد الحمراء

من أين تأتي ؟

إلى أين تذهب ؟

لا أحد يعرف !!

أخذت الدمية تتجول هنا وهناك ، ثم خرجت من زاوية

أخرى ، بعد ذلك دخلت دمية حمراء أخرى .

وعاودت الدمى البيضاء الغناء :

ورقة حمراء أخرى

من أين أتت ؟

إلى أين تذهب ؟

لا أحد يعرف !!

وأخذت الدمية الحمراء تتجول قليلاً هنا وهناك ، وأرادت

الخروج من الزاوية، ولكنها اصطدمت بدمية حمراء

أخرى . وأخذتا كل منهما تنظر إلى الأخرى للحظة ، ثم

أمسكت كل منهما بيد الأخرى ، وأخذتا ترقصان بأقصى سرعة وبفرحة ، رقصتا لفترة قصيرة ، ثم لحقت بهما دمية حمراء أخرى ، ثم أخرى ، وأخرى ، حتى دخلت مئات الدمى الكبيرة والصغيرة الحمراء فى الرقصة ، وأخذن يشكلن حلقة كل مجموعة على حدة ، وشرعن فى الرقص . إزداد الرقص سرعة وبهجة ، وكان القمر بديراً فوق رؤوسهن تماماً ، فى الوقت الذى خمدت فيه النار .

صار صوت الموسيقى أكثر ارتفاعاً ، وتركت الدمى أيدي بعضهن ، وتفرقن ثم اختلطن ، وتجمعن على حافة البركة . كانت " أولدوز " و " ياشار " مازالا جالسين على الحجر ، وكانا مشدوهين من رقص الدمى لدرجة لا يمكن وصفها ، حتى أنه كان قد نسى ريش الطاووس ، وفجأة رأيا ورده حمراء نمت على حافة البركة ، وكانت كبيرة ، جميلة كثيرة الأوراق ، وبدأت تتمايل وترقص ، ثم تحركت الدمى البيضاء والتفت حول الوردة الحمراء ، وشرعت هي الأخرى فى الرقص والتمايل .

وأخذت نغمات الرقص تزداد حدة وسرعة شيئاً فشيئاً ، ومن شدة انفعال الطفلين بالرقص نهضا وأمسكا بأيدي بعضهما البعض ، وقاما واندسا فى وسط الدمى ، واندمجت معهما أيضا الحيوانات والطيور والأشجار .

وأخذت الدمى ترقص وترقص ، ولما حان الوقت تفرقن

جميعاً ، وعاد الميدان خالياً ، وبعد لحظة ظهرت الدمى
بملابسها الأولى .

وحان وقت الذهاب ، وبدأ ضوء القمر يتلاشى قليلاً قليلاً .

ذهاب ومجيء الحمام

اللغز الذي لا تستطيع زوجة الأب حله :

كان الفجر على وشك البزوغ ، فتحت زوجة الأب
عينها ، فرأت ثلاث حمامات يجلسن على شجرة القوت ،
وكانت كل منهن تنظر للأخرى ، ثم طارت إحداهن ،
وذهبت إلى بيت " ياشار " وخلت الإثنتان الأخريان من
النافذة . وظلت زوجة الأب تنتظر خروجهما ، ولكنهما لم
يخرجا ، فطار النوم من عينها ، ونهضت وذهبت لتنظر من
النافذة فرأت " أولدوز " ودميتها نائمتين ولا يوجد شيء آخر
في الحجرة ، فتعجبت تعجباً شديداً وانتابها الخوف
لدرجة أنها لم تستطع دخول الحجرة ، ووقفت لعدة دقائق .
وبعد ذلك دخلت تحت غطاءها وهي حائرة ، وكانت عينها
مثبتتين على النافذة ، وأذنها كانت تتصنت . وبعد قليل
وصل إلى أذنها صوت غريب ينبعث من الحجرة ، وبعد
ذلك أجاب هذا الصوت صوت آخر همسا ، وكأن هناك
شخصين يتحدثان . وأخذ العرق يتصبب من زوجة الأب
خوفاً ، فثبتت عينها على النافذة ، ووصل همس شخص في

أذنها مرة أخرى ، وفى هذه المرة سمعت زوجة الأب اسمها
يتردد ، فازداد خوفها ، وأيقظت زوجها ، وقالت
له : - إنهض ، وانظر ماذا فى الغرفة ، فإننى خائفة !!
قال الأب : - نامى يا امرأة .. من يأتى فى الصباح ليسرق
من بيوت الناس ؟

قالت زوجة الأب : - إنه ليس لصاً ، إنه شئ آخر ، فهناك
حمامتان قد دخلتا الغرفة ، ولم تخرجا بعد !!
ونهمض الأب من أجل زوجته وذهب ، ونظر من النافذة
فرأى " أولدوز " نائمة وتحتضن دميتها ، فعاد إلى زوجته
وقال : - أرايت يا امرأة ؟ ماذا أصاب عقلك حتى ترى
الحمام فى الحلم ، إنهضى وأشعل السماور ، وأبعدى هذه
الأفكار الصببانية عن رأسك .

فنهضت زوجة الأب ، وذهبت إلى المطبخ لتشعل النار
وذهب الأب إلى الخلاء وأخذ معه الإبريق ، وكانت " برى "
لا تزال نائمة ، ولو أنها كانت مستيقظة لكانت قد رأت
حمامة بيضاء وهى تطير من بيت " ياشار " وتدخل من
نافذة بيتهم ، ويعد ذلك ازداد الهمس ارتفاعاً .

وكانت زوجة الأب تمسك بيدها منقداً ، وأخذت تعبر
الدھليز ولكنها سمعت صوت الحديد : قال صوت :
إنهضى أيتها الدمية المتحدثة ، وإخلى عنى جلد الحمام
ثم عاودى النوم .

قال صوت آخر : - حسناً فعلت بمجيئك لأننى كنت قد نسيت أنك ذهبت إلى بيتك وأنت داخل جلد الحمام ، تعالى لأخرجك من جلدك .

قال الصوت الأول : لابد أن نذهب إلى بيتنا ... فهنا لا ينفع قال الصوت الثانى : - نعم ، طرّواذهب ، فلا يجب أن يراك أحد هنا .

وكادت زوجة الأب أن تجن ، وصرخت من الخوف ، وأسرعت إلى الفناء ، وكان الأب جالسا على حافة الحوض يغسل يديه ووجهه فرأى حمامتين بيضاوين ناشرتين أجنحتهما ، تطيران خارجتين من النافذة ، وأخذتا تطيران هنا وهناك قليلاً ، ثم حطتا فى فناء البيت المجاور من جهة اليسار . وأخذ الأب ينظر إلى الحمام وقال لزوجته : لماذا لم تكفى عن مثل هذه الحركات الجنونية ؟ ألم تكونى خائفة من الحمامتين ؟ هاهما قد طارتا وذهبتا . استيقظت " برى " على الضوضاء وجلست ، وكانت زوجة الأب تقف بجوار الحائط ، تدور كاللهب ، وقالت : - إنهم أيضاً كانوا يتحدثون ، إنهما من الجان .

كانت " برى " تقف حائرة ، وكان الأب وزوجته يتشاجران ، فلم يلتفتا إلى أن هناك حمامة بيضاء تختفى خلف سياج السطح ، وتريد أن تدخل خفية ، كانت هذه الحمامة هي الدمية المتحدثة نفسها ، وكانت عائدة من عند " ياشار " ، وعندما رأت إنه ليس هنا أحد يراها

دخلت من النافذة . وعندما رفعت زوجة الأب رأسها على صوت حركة جناح الحمامة رأتها فصرخت وصاحت قائلة : - أنظروا ! هذه واحدة أخرى دلفت إلى الداخل .

جرب الأب صوب النافذة فرأى الحمامة تدخل المخزن ، فذهب الأب بنفسه إلى المخزن ولكنه لم ير شيئاً ، فوقف مذهولاً لا يتحرك لأنه لا يعرف أين اختبأت هذه الحمامة الملعونة !! وفجأة وقعت عيناه على الدمية المتحدثة واقفة خلف الباب .

كانت " أولدوز " لا تزال نائمة ، وكأنها لم تنم منذ عدة أيام ، ولذلك لم يكن يبدو عليها أنها تريد أن تستيقظ ، نظر لها الأب ورفع الغطاء عنها فوجدها بمفردها ، وداهمته فكرة : فمن الذى حمل الدمية ووضعها فى المخزن وراء الباب ؟! وكانت " برى " زوجة الأب واقفتين أمام النافذة تحملقان فى الأب . قالت زوجة الأب : - ماذا حدث لدمية البنت ؟ فعندما جئت كانت بجوارها .

قال الأب : - إنها فى المخزن ، ولا يوجد حمام أيضاً . قالت زوجة الأب : - على ما أعتقد أن هذه الدمية بها شئ ، أخشى أن تكون سبباً فى بلايا تحل بنا .

وقرأت زوجة الأب الأدعية وعودت نفسها ، وبعد ذلك قالت : - الآن ! أيقظ هذه البنت !!

هز الأب بطرف رجليه " أولدوز " وقال : - انهضى يا بنت

" ياشار " كان قد صار مشمولاً ببركة الأئمة :

عادت أم " يشار " ظهرا لبيتها ، فرأت " يشار " لا يزال نائما . وكانت كلثوم منذ الصباح وحتى الظهر عند زوجة أب " أولدوز " ، تغسل الملابس وتنظف المكان من لحم البقرة العفن ، وحملته وألقت به إلى كلاب الطريق .

كان الجوحارا ، وكان " يشار " يتصبب عرقا ، لذلك القى بغطائه بعيدا ، وكان ينام على جانبه الأيسر وقد رفع بركبته حتى بطنه . ونظرت أمه إليه فرأت أن قطعة القماش التي ربط بها جرحه قد تبدلت ، فلم تكن هي نفس القطعة التي ربطت بها الجرح ، لقد كانت قطعة قماش حريرية زرقاء اللون ، هزت " يشار " ففتح عينيه وقال : - يا أمى ! اتركىنى أنام قليلاً

قالت أمه : - إنهض يا بنى ، فقد صار الوقت ظهراً ، منذ متى وأنت كسول هكذا ؟ من أين أحضرت قطعة القماش الزرقاء هذه وربطت بها جرحك .

نظر " يشار " بتركيز شديد لإبهامه ، وفجأة تذكر كل شئ وظل - للحظة - حائراً متردداً ، وجلست أمه أعلى رأسه ، وأخذت تجفف عرقه بعباءتها وقالت : - لم تقل يا بنى من أين أتيت بقطعة القماش النظيفة هذه ؟

قال " يشار " : - رأيت فى الحلم أن رجلاً نورانياً جاء وجلس بجانبى وقال لى : - يا بنى ! أترىد أن أشفى جرحك ؟ قلت : - ولم لا أريد يا سيدى ! فأخرج الرجل النورانى مرهما من جيبه وربط جرحى مرة أخرى وقال

لى:- عندما تستيقظ ستجد أن جرحك قد تحسن .

صمت " يشار " برهة ، ثم قال مرة أخرى : - لقد كان رجلا طيبا جدا ، ولم أستطع أن أصف لك كم كان نورانيا ، فعندما ربط جرحى قال لى : - أنظر ما الذى يقف خلف رأسك ، فنظرت خلفى ولم أر شيئا وعندما أدبرت رأسى للأمام لم أر شيئا ، كان الرجل قد اختفى .

أخذت أم " يشار " تنظر إليه وهى حائرة ، وكانت تجلس صامتة ، فخاف " يشار " فى بادئ الأمر ، لكنه بعد ذلك فهم أنها اقتنعت بكلامه .

قالت أمه : - أقلت أن وجهه كان نورانيا ؟!

قال " يشار " : - نعم يا أمى ! مثل نفس اليوم الذى قلت أنه قد جاء لجدتى فى الحلم وأبرا قدمها المشلولة . أنظرى ! لم يعد جرحى يؤلمنى مرة أخرى .

غلب البكاء أم " يشار " فأخذت تبكى سرورا وحنينا . واحتضنت ابنها ، وقبلت رأسه ووجهه وقالت : - لقد صرت مشمولا ببركة الأئمة يا بنى ، إنهم سعداء بك ، مسرورون منك ، آه لو يعرف أبوك ، أقلت إن إصبعك لم يعد يؤلمك ؟!!

قال " يشار " : - أصبح مثل الأصابع الأخرى ، وأستطيع أن أعمل مرة أخرى من الغد .

رفع " يشار " الرياط من جرحه ، ورفع ورق الشجر ومرهم العشب وأراه لأمه ، وكان مكان الجرح أبيض وليس به أى

صديد أو تلوث ، ثم ربط الجرح مرة أخرى وللم " يشار " غطاءه وحشيته ووسادته ووضعهم فى أماكنهم وقال : - الجو اليوم حار يا أمى ، فلننم اليوم فوق السطح . بهتت أمه ، ولم تقل شيئاً ، فتركها " يشار " وذهب إلى الفناء ليغسل يديه ووجهه . ودخلت " كلثوم " إلى الغرفة ، وأخذت تقرأ الدعاء وتشكر ربها ، وتذكر " يشار " لتوه أنه نسي ريش الطاووس فى الغابة .

الذمل الفارسي :

كان " يشار " يقف على حافة البركة يقضى حاجته ، فوقعت عيناه على كارع البقرة ملقاة بجوار الحائط ، وكانت هناك قطعة سوداء تتشمم فى الأرض ، لم يفهم " يشار " شيئاً من وجود كارع البقرة ، ولكنه سرعان ما تذكر ما قالت " أولدوز " والدمية له بالأمس . بالأمس عندما عادوا من الغابة كانت " أولدوز " قد قالت له : - ستأتى أمك فى الصباح إلى منزلنا ، وسوف أرسل معها كارع البقرة فلتحافظ عليها جيداً .

فقال لها " يشار " : - ولماذا أحافظ عليها ؟!

فأجابته الدمية : هذه البقرة لم تكن عادية ، فلتحافظ على كارعها ، إنها من الممكن أن تنفعنا ، فعندما نصادف مشكلة نستطيع أن نطلب منها المساعدة .

وأثناء استغراق " يشار " فى التفكير علا صياح " أولدوز "

وصراخها، وسمعها تقول أثناء صياحها : - لا تفعلنى يا
أمى !! لن أفعل بعد ذلك ، ساعدنى يا خالتى " برى " !! آه
سأموت !

كان " ياشار " يقف على حافة الجدول وهو مذهول ،
لا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل . فأسرع وتوجه نحو كارع
البقرة وحملها وهمس لها قائلاً : ستقتل زوجة الأب
" أولدوز " ، ماذا نفعل الآن ؟

سمع " ياشار " صوتاً ضعيفاً يقوله له : - إلق بى فوق
السطح ، وانتبه للقطعة السوداء .

ضرب " ياشار " القطعة السوداء وأبعدها عن البيت ثم ألقى
بكارع البقرة على السطح ، فأحدثت صوتاً عند ارتطامها
بالسطح ، فصاحت أمه من الغرفة قائلة : - " ياشار " ! ما
الذى ارتطم بالسطح الآن ؟

قال " ياشار " : - لا شئ ! كارع البقرة التى كنت قد
أحضرتها لى ، ألقيت بها فوق السطح ليتيبس
قالت أمه : أهى التى أعطتها لى " أولدوز " ، ليس واضحاً
ماذا تريد أن تفعل بكارع البقرة ؟!

قال " ياشار " : - يا أمى ! أظن أن زوجة الأب تضرب
" أولدوز " أليس من الأفضل أن تطللى عليهم !!
قالت أمه : - الموضوع لا يخصنا يا بنى ، فكل شخص
يعرف مصلحته أكثر من الآخرين .

قال " ياشار " : - فى النهاية يا أمى !!!

قالت أمه : - أسرع واغسل يديك ووجهك ، وتعال لتناول الغداء .

لم يتلکأ " يشار " بل صعد على السلم الموصل للسطح ، فقال له كارع البقرة : - لقد أرسلت عشرة أو عشرين نملة من أتباعي ليحاسبوا زوجة الأب ، فلتحتط من القطعة السوداء ، فأنا أخاف أن تخطفني ذات يوم وتأكلني .
أخذ " يشار " يتلفت حوله فرأى القطعة السوداء تتسلل ، فالتقط حجراً وقذفها به ففرت هاربة .

أى مذاق للقلقل ؟!

النمل الفارسي يصل لنجدة " أولدوز " :

﴿ الآن نرى ماذا حل بـ " أولدوز " ... فلنعد إلى الورا قليلاً ، ولنذهب إلى " أولدوز " وزوجة أبيها ﴾ .
كان بيت أبى " أولدوز " عبارة عن غرفتين قبليتين ، وممر فى الوسط وغرفة جلوس بها صندرة أيضاً ، وغرفة أخرى للضيوف ، وغرفة استقبال . وكان هناك مطبخ صغير فى نهاية الممر ، وفى الجهة الأخرى من الفناء دورة المياه ، ومكان آخر مثل الغرفة به الفرن ، فوقه أيضاً فتحة بالسقف ، وهناك سلم يمر من جانب حجرة الإستقبال ويوصل إلى السطح .

وفى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه أم " يشار " إلى بيتهم ، كانت زوجة الأب جالسة فى المطبخ تعد لنفسها عجة ، وقد تركت " برى " خلف باب الحجرة لتتخلص على " أولدوز " وتكتشف سرها ، فكانت زوجة الأب قد أحست منذ الصباح أن هناك سراً أكيداً بين " أولدوز " والدمية . كانت " برى " تقف خلف الباب تتصنت وتراقب " أولدوز " من ثقب الباب ، ولم يكن الأب قد عاد من عمله عندئذ .

وحتى هذه اللحظة لم تكن " أولدوز " قد وجدت فرصة للتحدث مع الدمية ، وكان الأب وزوجته يجتهدان ليجبراها على الكلام ، ولكنهما لم يستطعا ، وكانت " أولدوز " تتظاهر بأنها لا تعرف ، وعندما اطمأن قلبها بأنه ليس هناك أحد يراها ، ذهبت إلى دميته وقالت لها: - أصبحت زوجة أبى عيناً ترى وأذناً تسمع فقط ، وأتصور أنها قد عرفت قصتنا . قالت الدمية المتحدثة : - من الأفضل أن نبتعد عن بعضنا لعدة أيام .

قالت " أولدوز " : - خالى " برى " ليست سيئة ، أما زوجة أبى أعوذ بالله منها ! فإنها إذا عرفت أن لدى دمية تتكلم ، فإنها لن تصبر ولوحتى دقيقة واحدة ، فسوف تشعل الفرن ، وتلقى بك داخل النار ، فتحترق وتصبح رماداً .

أثناء المحادثة نهضت " برى " وذهبت إلى زوجة الأب وأخبرتها ، فألقت زوجة

الأب بالجاروف الذى كان فى يدها ، ووقفت خلف الباب ولكن الصوت انقطع ، فرأت " أولدوز " من ثقب باب المخزن - الذى - أحكمت " أولدوز " غلقه وقد ذهبت وجلست بجوار الحائط ، وأخذت تعد أصابعها وتلهو بها ، وفتحت زوجة الأب الباب وقالت لها : - مع من كنت تتحدثين ؟ قولى بسرعة ؟ وإلا وخزت يدك بالإبرة ، يا قليلة الحياء!!

خافت " أولدوز " ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها أخذت تتلعثم من شدة الخوف ، فسحبت زوجة الأب إبرة من ياقتها ووخزت " أولدوز " فى يدها ، فأخذت " أولدوز " تصرخ وتبكي ، وكررت زوجة الأب نفس العمل ، وحاولت " أولدوز " أن تخلص نفسها ، ولكن " برى " أمسكت بها وأوقفتها أمام زوجة الأب التى أخذت توخز يدها الأخرى وتقول لها : - الآن لا تستطيعين الكذب ... فأنا لست أباك الذى تستطيعين الضحك عليه فقولى ما هي حكاية دميتك المسوخة تلك ؟ أتقولين ؟ أم أملاً فمك بالفلفل ؟!

قالت " أولدوز " وهى تبكى : - أنا لا أعرف شيئاً يا أمى ... لا أعرف شيئاً ؟!

التفتت زوجة الأب إلى " برى " وقالت لها : - برى !! إذهبي واحضري زجاجة الفلفل بسرعة ، الفلفل يستطيع

جيداً أن يجعل هذه تتحدث .

أسرعت " برى " وأحضرت زجاجة الفلفل ، ووضعت زوجة الأب مقداراً من الفلفل بكف يدها ، وأرادت أن تمسك بـ " أولدوز " ولكنها فرت من يديها واحتمت بجوار الحائط ، فقالت زوجة الأب لـ " برى " : - تعالى وامسكى يديها لابد أن أعرفها اليوم ما معنى زوجة الأب .

طرحت " برى " وزوجة الأب " أولدوز " على ظهرها ، وجلست زوجة الأب على رجليها ، و " برى " أعلى رأسها ، وأمسكت يدي " أولدوز " بإحكام ، ثم فتحت زوجة الأب فم " أولدوز " وأرادت أن تضع الفلفل في فمها ، فعلا صياح اولدوز ، وأخذت تبكى حتى أن بكاءها وصل إلى البيوت المجاورة وأخذت " أولدوز " تصيح وتقول : - تبنت ، ساعدينى يا خالتي " برى " !!

ولم تقل " برى " شيئاً ، وقالت زوجة الأب : - ما لم تقولى الصدق ، فلن تستطيعى أن تخرجى سالمة من يدي .
قالت " أولدوز " باكية : - أنا لا أعرف شيئاً ! اتركونى ...
آه سأموت .

حاولت " أولدوز " تخليص نفسها ، ولكن زوجة الأب ملأت فمها بالفلفل وقالت : - الآن كلى الفلفل ، وأنظرى أى مذاق له .

أصاب " أولدوز " سعال فبصقت فى وجه زوجة الأب ، فدخل الفلفل في عينها ، وفزعته " برى " ونهضت من

مكانها ، ووضعت يدها على قفاها ، فقد لدغتها نملة
فارسية بكل قوتها ، ولدغت نملة أخرى قدم زوجة الأب ،
وثالثة لدغت ساعد " برى " ورابعة لدغت ظهر زوجة
الأب ، فهرعت الإثنتان إلى الفناء بعد أن سحقتا النمل
بأحذيتيهما ، ولكن مكان لدغة النمل ظل يؤلهما حتى أن "
برى " أخذت تبكى بحرقة ، وكانت " أولدوز " ملقاة على
وجهها فى وسط الغرفة وهى تضع يدها على فمها وتتألم .
وانبعثت رائحة احتراق الطعام من المطبخ .

ضيوف زوجة الأب و " برى " :

كان المغرب على الأبواب ، وكان " ياشار " قد ترك
مكانه فوق السطح ، ثم جاء وجلس على حافته ، وأرجله
تتدلى ، وأخذ يشاهد غروب الشمس ، الشمس الذهبية
والألوان المتداخلة فى الأفق ، والسحب التى تبدو وكأنها
مشاعل للغروب ، كانت تبدوله دائماً جميلة ، وحل الليل ،
وسطعت النجوم ، وتناثرت هنا وهناك ، وبدأت تشع
بنورها وتتلألأ وتومض .

وفزعه صوت " برى " من مكانه ، وكانت " برى " تقف
أمام النافذة وتقول لأمه : - كلثوم ، انهضى وتعالى لبيتنا ،
فلك رسالة من زوجك .

بعد دقائق كان " ياشار " وأمه جالسين عند أبى " أولدوز "
وكانت عيونهم مركزة على فمه ، وكانت " برى " وزوجة

الأب أيضاً فى الغرفة ، ولم تكن " أولدوز " موجودة .
كان أبو " يشار " قد أرسل الرسالة على عنوان أبى
" أولدوز " وكان قد كتب فى الرسالة أنه متوعمك ،
ولا يستطيع مواصلة العمل ، وسيعود خلال أيام إلى زوجته
وطفله .

وفى نهاية قراءة الرسالة دق الباب - فقد أتى بعض
الضيوف - كان أخوزوجة الأب وزوجته ، وابنه الصغير
" بهرام " قد أتوا من مكان بعيد . وجلسوا ، ودار بينهم
أطراف الحديث ، وأبقت زوجة الأب " كلثوم " معها لتعد
العشاء .

كان " يشار " أحياناً يذهب إلى أمه فى المطبخ ، وأحياناً
أخرى يجلس أسفل النافذة . ولكن لم يكن لديه ما يقول .
ومما لا شك فيه أنه لديه كلام كثير ، أما الرغبة فى القول
فليست لديه ، وكان يتمنى ألا يكونون فى حاجة إليه
ويتركونه يذهب إلى " أولدوز " .

وأثناء الكلام والضحك إلتفتت زوجة الأخ إلى زوجة الأب
وقالت لها : - جئنا لناخذك أنت و " برى " فلنتحرك فى
الصباح !

قالت زوجة الأب : - هل عاد خطيب " برى " ؟

أجابت زوجة الأخ : - نعم ، وزفافها غداً

وفى ذلك الوقت نظرت زوجة الأخ إلى " برى " وضحكت .

هل سيأتى اليوم الذى يعرف فيه أحد

ماذا فعلت زوجة الأب بـ " أولدوز " ؟!!

بعد أن تناولوا العشاء نهضت زوجة الأب ، وبدأت فى جمع حاجيات السفر من ملابس وأشياء أخرى كانت تلزمها ، ولما فتح باب المخزن وقعت عينها " ياشار " على " أولدوز " التى كانت نائمة على ظهرها ، وكانوا قد ربطوا قمها بقطعة من القماش .

قالت أم " ياشار " : - ماذا حل بهذه البنت ؟ إنها لم تتناول العشاء أيضاً .

قالت زوجة الأب : إنها مريضة ، ومن الأفضل ألا تتناول شيئاً .

قالت كلثوم : - ماذا بها ؟

قالت زوجة الأب : - إن قمها ملتهب .

كانت كلثوم وزوجة الأب تتحدثان فى المخزن ، وكان أخو زوجة الأب جالساً بجوار باب المخزن ، فسمع كلامهما ، وكان الباب مفتوحاً إلى نصفه ، فرأى " أولدوز " فالتفت إلى الأب وقالت : - مازالت هذه البنت لديكم ! كنت أظن...

فقاطعه الأب قائلاً : نعم ، مازالت عندنا إلى الآن !

نظر الأخ إلى زوجته ونظرت هي الأخرى إليه ولم يقولا شيئاً .

من الذى يخاف من الظلمة ؟ كيف يكون الليل فوق السطح !

حل الليل ، وكانت كلثوم تغسل الأواني فى المطبخ ،
وكان الآخرون يتحدثون ، فقال " بهرام " لأمه : - أمى !
أريد أن أقضى حاجة .

أجابته أمه قائلة : - إذهب بمفردك يا عزيزى .
قال بهرام : - لا ، إنى خائف .

إلتفتت زوجة الأب إلى " ياشار " وقالت له : - إنهض
واذهب مع بهرام

كان " ياشار " نفسه يريد أن يقضى حاجته ولكن كسله
كان قد ألصقه بمكانه وجعله لا يستطيع أن ينهض ويذهب
ليقضى حاجته ، ونهض الإثنان وخرجا ، ووقفا على حافة
الجدول يقضيان حاجتهما ، وقال " بهرام " : - أتذهب
أنت أيضاً إلى المدرسة ؟ أنا فى الصف الرابع
قال " ياشار " : - وأنا أيضاً .

وعاد الصمت مرة أخرى، إذ لم يكن لدى " ياشار " الرغبة
فى الكلام ، ثم قال بهرام : - أنا التلميذ الأول على الفصل ،
وقد قال أبى أنه سيشترى لى دراجة ، وأنت كيف حالك ؟
قال " ياشار " : - أنا .. لا !

وعندما أراد العودة وقعت عيننا " بهرام " على الدرج ،
فسأل : - لماذا هذا الدرج ؟

قال " ياشار " : - إنه يؤدي إلى السطح ، أترغب فى الصعود إلى أعلى لتنظر؟

قال بهرام : - أنا أخاف من الظلام ، فلنذهب إلى الداخل.
قال " ياشار " : - سأصعد أنا أولاً ، ثم اتبعنى .

وقف بهرام متحيراً وقال : - ألا تخاف من الظلمة ؟!
قال " ياشار " : - لا ... فأنا أنام بمفردى ليلاً فوق السطح ولا أخاف .

قال بهرام : - كيف يكون الليل فوق السطح ؟!!
قال " ياشار " : - إذا صعدت للسطح ، سترى بنفسك .
قال " ياشار " هذا وكانت قدمه على الدرج ، وسريعاً صعد إلى أعلى ، ووقف بهرام قليلاً وهو حائر ، ثم أخذ يصعد ببطء شديد ، وأخذ " ياشار " بيده وأتى به إلى وسط السطح ، كانت النجوم ساطعة ومتلائة ، وعددها كان يبلغ ملايين الملايين لدرجة أنه لم يكن هناك شبر خالٍ فى السماء .

قال " ياشار " : - أترى ؟
وهبط نجم إلى ما فوق رأسيهما وصنع قوساً بالسماء ، ثم وقع إلى أسفل ، وانفجر نجم آخر بعيداً عنهم ، وأخذت الكلاب تنبح فى سكون الليل ، ثم ابتعدت ، وكان هناك فراشة تمضى نحو رأس الحارة ، ومرخفاش - سريعاً - من أمامهما واصطاد الفراشة وتاه فى الظلام ، وهبط نجم

آخر كان يتبعه خط مضى ، ورائحة الحظيرة تهب من عدة بيوت .

وأشار " يشار " إلى طريق مكة فوق رأسيهما وقال : -
أترى هذا الضوء العريض المرسوم فى السماء ؟!
قال بهرام : - نعم

قال " يشار " : - إنهم يطلقون عليه طريق مكة .
قال بهرام : هل الحجاج يذهبون إلى مكة من هذا الطريق ؟

ضحك " يشار " وقال : - لا يا أخى إن الجهلاء هم الذين يطلقون عليه طريق مكة ، فهذه النجوم الصغيرة والكبيرة المتراصة بجانب بعضها لا تتخيل أنها ملتصقة ببعضها ، فبينها مسافات بعيدة وشكلها يبدو هكذا من بعيد .

قال بهرام : - لكن لماذا يطلق الناس عليه طريق مكة ؟
قال " يشار " : - من المعروف أن القدامى لم يكن لديهم علم ، ولذلك فقد كانوا يحكون الخرافات حول الأشياء التى لا يعرفونها ، وهذه أيضاً إحدى الخرافات .

قال بهرام بتردد : - ألا تخلق هذا الكلام ؟!
قال " يشار " : - لقد تعلمته من مدرسنا ، ألم يقل لكم معلمكم مثل هذا الكلام ؟

قال بهرام : - لا ، نحن نقرأ درسنا فقط .
قال " يشار " : - أليس هذا الكلام درساً ؟
وكان هناك نجم يتلألأ فى أحد أركان السماء ، ويتقدم

بسرعة ، فقال بهرام دون أن يجيب عليه " ياشار " : -
أنظر إلى ذلك النجم ، إلى أين هو ذاهب ؟
قال " ياشار " : - هذا ليس بنجم ، إنه قمر صناعى أرسلوه
من الأرض إلى السماء .

قال بهرام : - إلى أين هو ذاهب ؟
قال " ياشار " : - يظل يدور حول الأرض هكذا .
قال بهرام : - لا تخدعنى ، أنت تخلق هذا الكلام .
قال " ياشار " : - هل أخلق الكلام ؟ لقد قاله المعلم لنا ،
تستطيع أنت أيضاً أن تسأل معلمك .
قال بهرام : - معلمنا لا يقول مثل هذه الأشياء .
قال " ياشار " : - لابد أنه لا يعرفها ليقولها .
قال بهرام : - لا ، معلمنا يعرف كل شئ - هو يقول ذلك -
إنك تكذب .

وبينما كان سوق الكلام يحتد ، إرتفع فجأة صوت زوجة
الأب من الفناء قائلة : أين أنت يا بهرام ؟
فقفز الطفلان من مكانهما ، وتذكر بهرام مرة أخرى ظلمة
الليل ، وأراد أن يبكى ، فأخذ " ياشار " يده وقال له :
لا تخف يا ولد ، فأنا واقف بجوارك .

عرفت زوجة الأب صوت " ياشار " وصاحت قائلة : -
يا عجل ! لماذا أخذت الطفل فوق السطح ؟
ثم صعدت فوق السطح سريعاً ولم تقلكأ وأخذت بهرام من
يد " ياشار " ، وأنزلته وقالت له : فلتذهب إلى الجحيم يامتشر

فقال لها " يشار " : يا فاجرة
فاستشاطت زوجة الأب غضباً ، وصفعت " يشار " على
وجهه صفة شديدة ، ثم أخذت بهرام من يده ونزلا . وقف
" يشار " لحظة وكاد ينفجر من شدة الغيظ وأخذ يبكي ،
وعاد إلى سطح بيتهم ، وألقى بنفسه وتمدد على وجهه في
فراشه .

القطة فعلت ما تريد :

استيقظ " يشار " في الصباح على جلبه المسافرين ،
وكانت الشمس قد سطعت
وراء السطح بحرارة مقبولة ، وكانت أمه قد حملت حقيبة
زوجة الأب ، وكانت آخر من خرج من الباب ، وخلا
البيتان فتائب " يشار " ونهض ونزل على الدرج وذهب
إلى " أولدوز " وكانت " أولدوز " قد رفعت قطعة القماش
من على فمها ، وأخذت تبحث في كل زوايا المخزن
وأركانها ، فنادى عليها " يشار " : - " أولدوز " ، عن أى
شئ تبحثين ؟

رفعت " أولدوز " رأسها وقالت : - أهذا أنت يا " يشار " ؟
قال " يشار " : - نعم ! ماذا حل بالدمية ؟
قالت " أولدوز " : - لا أعرف ! لم أجدها .

وأوجزت " أولدوز " لـ " يشار " ما حدث لها بالأمس في
عدة كلمات ، وأيضاً قص هو عليها قصة كارع البقرة

ونفلها ، ثم شرعا فى البحث فى كل مكان ولكنهما لم يجدا شيئا ، قال " ياشار " : - مصيبة أن تكون زوجة الأب قد سرقتهما منا !!

قالت " أولدوز " : - ماذا نستطيع أن نفعل ؟

قال " ياشار " : - النمل يستطيع أن يجدها لنا، حتى ولو كانت تحت الأرض فإنه يستطيع إحضارها والإتيان بها .
قالت " أولدوز " : - أسرع وأحضر لنا كارع البقرة .

ذهب " ياشار " مسرعا فرأى القطة السوداء فوق السطح وبين أسنانها شئ ، وتبتعد مسرعة ، نزل " ياشار " وذهب إلى كوخ الكلب الذى فى زاوية الفناء ، وكان قد أخفى كارع البقرة هناك ، وكان الكوخ خالياً ، وعاد مسرعاً إلى السطح ولكنه لم يجد القطة السوداء ، فنزل مرة أخرى ، ثم عاود الكرة ، وأخذ يكرر هذا العمل عدة مرات بلا فائدة ، ولم يعرف مطلقاً ماذا يجب عليه أن يفعل . وفى النهاية انتبه على صوت أمه وهى تنادى عليه . وكانت أمه عند حافة الجدول تغسل يدي " أولدوز " ووجهها ، فذهب " ياشار " إليهما فقالت أمه له : - " ياشار " ! إذا كان إصبعك لم يعد يؤلك فمن الأفضل ان تذهب إلى عملك .

فقال " ياشار " : - ألن تذهبنى يا أمى لغسل الملابس ؟

قالت كلثوم : - قال لى أبو " أولدوز " أن أبقى فى البيت لرعاية " أولدوز " وأعد الغداء لها أيضاً .

قال " ياشار " : - هل سيأتى أبى اليوم ؟

قالت أمه : - إذا جاء ، سأخبره .

دمية بطول " أولدوز " :

أغنية أطفال النسيج :

وصل أبو " يشار " بعد يومين أو ثلاثة تقريباً ، وكان مريضاً لدرجة أنه كان ينام من الصباح حتى المساء وهو يتألم ، أحضرت كلثوم و " يشار " الطبيب له واشترى له الدواء ، ولذلك لم تستطع أم " يشار " أن تذهب إلى العمل ومكثت في البيت لترعى زوجها و " أولدوز " ، وأحياناً كانت تصنع دهان الوجه ، وكانت جاراتها يأتين إليها ، ويشترين منها أو تذهب هي لتبيعه في الحمامات .

كان " يشار " يعمل نساجاً ، وكانت أغلب نفقات المنزل على كاهله ، وفي الوقت الذي لا يعمل فيه كان يذهب دائماً إلى " أولدوز " وظل عدة أيام في حزن وحسرة على الدمية ، ويحثا عنها كثيراً بلا فائدة ، ولكنهما في النهاية قررا أن يصنعا دمية أخرى ، وأسرعوا في العمل .

تعلمت " أولدوز " من أم " يشار " لضم الإبرة ، والقص والحياسة ، وأخذت هي و " يشار " يجمعان قطع القماش المختلفة من هنا وهناك ، وانشغلا في العمل ، وأحضر " يشار " بقايا الصوف من المصنع ليحشوها يدي الدمية ورجليها . وأرادا أن يصنعا دمية بطول " أولدوز " ، وقررا أيضاً أن يرسم " يشار " وجهها . وكانا صنعا قدأعضاء

الدمية عضواً عضواً ، ويضعها جانباً ثم يحكيها ببعضها بعد ذلك ، أما بالنسبة لصنع رأسها فقد استفادا من كرة بلاستيكية قديمة ، وغلفوها بقماش أبيض . وجلس " ياشار " فى يوم الجمعة حتى العصر ، يرسم عينيها وفمها وبقية ملامحها .

ومضى عشرون يوماً حتى وقفت الدمية على قدميها ، وكانت بطول " أولدوز " ولكنها كانت عابسة لم تكن سعيدة . وجلس الطفلان يفكران ماذا أصاب دميتهما ؟!! لماذا هي عابسة لا تضحك ؟ فتوصلا فى النهاية إلى أنها تريد ثوباً .

ولم يكن من السهل إعداد ثوب لدمية كبيرة فذلك يحتاج إلى قماش كثير ، كذلك فإن القص والحياكة عمل صعب . وظل الطفلان على هذا الحال يومين أو ثلاثة ، ولم يصل تفكيرهما إلى شئ .

فى بداية الأسبوع كان " ياشار " يحضر أجره ويعطيه لأمه ، وكان يأخذ منها قرشاً كل يوم ، وقال " ياشار " لـ " أولدوز " ذات يوم : - سوف أدخر مصروفي لأشتري ثوباً للدمية . وعندما حسبا التكلفة ، وجدا أنهما إذا جمعا النقود لعدة أشهر فهى لا تكفى لشراء ثوب لدمية كبيرة ، ومضت عدة أيام وهما على نفس الحال . وظلت الدمية الكبيرة تقف عارية عابسة وأخذ الطفلان يتحدثان إليها وهى لا تجيب .

وذات يوم كان " ياشار " جالساً خلف النول يمشط
الخيوط ، فطُرأت له فكرة . فقد فكر فى أن الدمية بطول
" أولدوز " وبناء على ذلك فمن الممكن أن تلبس من ملابس
" أولدوز " فسُر من هذه الفكرة وبدأ فى الغناء من شعر
النساجين ، ثم وضع المشط بالأرض ، وأخذ السكين ، وأخذ
يغنى على ضربيات السكين وهو سعيد ويعد عدة دقائق
شاركه الأطفال الغناء وأمتلأ فضاء المصنع نصف المضى
والملئ بالغبار بغناء الأطفال النساجين فكانوا يقولون :

ذهبت أشتري سكر نبات

ألقي به فى الكوب

لم يكن فى جيبى حتى مليم واحد

ثم دللت نفسى فبدأت فى حركات سخيفة

حمل البقال سنجة

وضرب رأسى فشجها

لم يتوقف الدم من رأسى

ثم ناديت على أخى

عودة زوجة الأب :

عندما عاد " ياشار " عصراً إلى البيت قالت له

أمه:- عادت زوجة الأب مع أخيها ، فتغير وجه " ياشار " ،

ومن أجل ألا تفهم شيئاً ، جرى وذهب إلى الشارع ولم

يستطع فى تلك الليلة أن يرى " أولدوز " ونام ليلاً فوق

السطح ، أما أمه فكانت تنام فى الغرفة مع زوجها المريض ، وفى منتصف الليل استيقظ " ياشار " فرأى شيئاً يتصاعد منه الدخان فى وسط جدول جيرانه ويحترق . وكانت زوجة الأب تقف بجوار النار وييدها صفيحة كيروسين ، وأخذ " ياشار " ينظر لفترة وهو حائر ، ولكنه بعد ذلك غلبه النعاس ، وفى الصباح نهض وذهب إلى العمل .

وا أسفاه أيتها الدمية الكبيرة ...

لماذا أحرقوك ؟ ولم يقولوا مطلقاً أن الأطفال ...

كانوا قد صنعوك بآلاف الأمنيات !!؟؟

والآن فلنرجع إلى الوراء قليلاً ، ونرى ماذا فعلت زوجة الأب - عندما عادت - بـ " أولدوز " ودميتها الكبيرة ﴿ كانت " أولدوز " دائماً عندما لا تحتاج إلى العروسة تحملها وتخفيها خلف الحشايا بالمخزن ، وعندما ظهرت زوجة الأب فجأة لم تر شيئاً إلا " أولدوز " وهى تجلس على حافة الجدول وهى تعد أصابعها ، وكلثوم تكنس الفناء . وكان الأب فى الغرفة يكوى سرواله ، وعاد أخو زوجة الأب فى عصر نفس اليوم ، ولكنه قبل ذهابه تحدث قليلاً مع الأب . وفهمت " أولدوز " القليل من حديثهما ، فقد كان يتحدثان عنها ، وكأن زوجة الأب كانت قد شكت من " أولدوز " للأب ولأخيها .

وفى الليل عندما حان وقت النوم حدث شئ سيئ . فعندما ذهبت زوجة الأب لتحمل فراشها رأت شيئاً كبيراً سيئ التركيب موجوداً خلف الحشايا ، وعلى الفور حدثت جلبة واتضح أن هذا الشئ الكبير السيئ التركيب هو دمية " أولدوز " تلك الدمية التى صنعتها بنفسها . وألقت زوجة الأب الدمية الكبيرة من النافذة وسط الحديقة ، وأخذت تصرخ بـ " أولدوز " قائلة : - إن شاء الله تقعين فوق مغسلة الميت ، مع هذه الدمية التى صنعتيها خوفتيني ! سأريكي كيف تعاندينى هكذا ؟ لتوى خلصت نفسى من شر دميتك الأولى أترغبين فى فتح الطريق أمام الجن مرة أخرى إلى البيت ، أتريدين !!

كان الأب واقفاً بلا حراك ، وهو يفكر من أين أتت دمية كبيرة بهذا الحجم ولم يكن يصدق مطلقاً أن " أولدوز " هي التى صنعتها ، فقال : - يا بنت : متى صنعت هذه الدمية وأنا لا أدري ؟ !!

ولم تستطع " أولدوز " أن تفتح فمها لتتكلم ، وقالت زوجة الأب : - إذهبي وادعى ريك ، إنى لا أرغب فى أن أكون عصبية من هذا الموضوع وإلا لكنت ضريتك ضريباً مبرحاً يجعلك تفرين من هذا البيت .

قال الأب لزوجته : - نعم ! لا يجب أن تعكرى دمك من أجل طفلة ، فهذا ضرر عليك .

أشارت زوجة الأب إلى زوجها وقالت : - بناء على كلام

أبيك فإننى أرفعك فى هذا البيت ، ولكن أبى وأخى لم يرسلانى لأعمل فى خدمتك .

قال الأب : - كفى يا امرأة ! على كل فهى طفلة ... لا تفهم شيئاً .

قالت زوجة الأب : - مهما كانت ، فأنا لا أقدر على تحملها ، فلماذا تجلس وتصنع دمية لتؤذينى ؟

وفجأة أجهشت " أولدوز " بالبكاء وارتفع صوتها وفى وسط البكاء قالت بصوت مرتفع :- أنا .. أنا ... أريد دميتى المتحدثة ...!..!

وكانت زوجة الأب تزداد عصبية لمجرد ذكر اسم الدمية المتحدثة ، فأمسكت بشعر " أولدوز " وكورتته وأخذت تنهرها قائلة : - ليس لك الحق فى ذكر هذا الإسم القذر أمامى ، أفهمت ؟ لا أريد أن يصاب طفلى الذى فى بطنى بشئ ، فمثل هذه الأشياء سواء الحسن منها أو السيئ تفتح طريقاً لهم فى بيتنا ، الجن ، أفهمت ؟ أم لابد أن أفهمك بلكماتى وعصاى .

وفجأة خلصت " أولدوز " نفسها من يد زوجة الأب ونهضت وذهبت إلى الباب حيث تستطيع أن تأخذ دميتها الكبيرة التى كانت قد وقعت فى وسط الحديقة ، ولكن زوجة الأب لم تعطها الفرصة لأن تمر من عتبة الباب إلى الطرف الآخر .

وبعد عدة دقائق كانت " أولدوز " تجلس القرفصاء فى

المخزن وهى تبكى بحرقه ، وكان الباب مغلقاً ، وكانت زوجة الأب تقف فى وسط الحديقة ويدها صفيحة من الكيروسين ، تشاهد حريق الدمية الكبيرة ، والدخان يتصاعد منها ، والأب ما زال يفكر من أين أتت دمية كبيرة بهذا الحجم إلى منزله ؟!!

فى وحدة وحزن ...

أمنية ليلة الخلوة الصغيرة :

تعاقبت الأيام ، وكان أبو " ياشار " طوال الصيف مريضاً ويتناول الدواء ، وكان الطفلان لا يريان بعضهما إلا نادراً ، وكانا فى حزن ووحدة شديدة من أجل دميتيهما ، وخاصة حزنهما على دميتهما المتحدثة ، ولم يكن مسموحاً لـ " أولدوز " أن تتلفظ حتى باسمها أمام زوجة الأب ، وإذا حدث ؟ فهل من الممكن أن تفكر فى دميتها المتحدثة ؟ ومهما حدث فهل من الممكن أن تنسى تلك الليلة العجيبة ؟ ليلة الغابة ، تلك الغابة المليئة بالأسرار ، وإذا حدث فهل من الممكن ألا تفكر فى ليلة الخلوة الصغيرة ، فجميع العرائس تتجمع فى ليلة الخلوة الصغيرة فى الغابة ، ولكن لم يعد لدى " أولدوز " و " ياشار " دمية تحملهما إلى الغابة .
وا أسفاه أيتها الدمية المتحدثة ...

فمع عمر ك القصير مع الأطفال ، فقد أثرت في قلوبهم لدرجة أنهم لن ينسوك حتى آخر العمر...
مرت الأيام والأسابيع والشهور ، وكانت " أولدوز " تحسب بالدقيقة موعد ليلة الخلوة الصغيرة وكانت موقنة بأن الدمية المتحدثة ستحاول في تلك الليلة أن تصل إليها .
وأخذت بطن زوجة الأب تزداد في الإنتفاخ ، وكانت فخوره جداً بطفلها القادم ، وكانت تعنف " أولدوز " على أى عمل صغير يبدر منها .

أمل بلا فائدة :

ماذا حدث للأفراح :

ذات يوم أحضر الأب الكهربائى ، وكانت الكهرباء قد أدخلت إلى بيته، واشترى الأب أيضاً مذياعاً ، وكانوا يشعلون المصباح الكهربائى في البيت ، وأخذ صوت المذياع يملأ كل مكان .

وكانت الأمانى في ليلة الخلوة الصغيرة بلا فائدة ، وكان الدمية المتحدثة كانت قد فقدت إلى الأبد . وبعد ليلة الخلوة الصغيرة كانت " أولدوز " قد نسيت جميع الأفراح والأحاديث واللسان الطلق الحلو، وانزوت طفلة صامتة بلا حديث ولا حراك .

كان " ياشار " يذهب إلى المدرسة ، وكان الطفلان يريان بعضهما نادراً ، وخاصة أن زوجة الأب لم تكن تسمح لـ

"ياشار" أن يأتي الى بيتهم ، وكانت تقول : - هذا الولد
الفاقد العاطل ، سيفسد أخلاق البنت أكثر.

لم تصل قصتنا إلى نهايتها "أولدوز والغريان"

لابد أن تنظروا لتروا إلام تطورت قصة الدمية
والأطفال ، فإذا لم يظهر موضوع الغريان لكانت "أولدوز"
ستموت حتماً من شدة الحزن وتضيع من يدنا . لكن ظهور
أم الغراب ، وصداقة الأطفال مع الغريان ، قد غيرا كل
شئ ، وجددا حماس "أولدوز" و "ياشار" مرة أخرى ،
ومحاولتهما الصعبة لكي يستطيعا السفر إلى مدينة
الغريان .

وهكذا قرأتم وعرفتم موضوع الغريان ، هي نفس القصة
الأخرى التي كتبت في كتاب "أولدوز والغريان" ،
وبالفعل انتهت قصة "الدمية المتحدثة" .

٢- "أولدوز" والغريان

جلست " أولدوز " وحيدة فى غرفتها ، وقد تعلقـت عيناها بالخارج بعد أن أغلقت زوجة أبيها الباب ، ونبهت عليها بعدم مغادرة الشرفة وإلا أتت وأنزلت بها أشد العقاب ، ثم ذهبت إلى الحمام . وظلت " أولدوز " جالسة فى الغرفة تحملق وتفكر مثل العجائز ، لا تحرك ساكناً وذلك لخوفها الشديد من زوجة أبيها . وشرعت تفكر فى دميتها الكبيرة التى ضاعت منها لتوها ، وقد أحزنها ذلك كثيراً .

وعدت أصابعها عدة مرات ، ثم تحركت ببطء إلى النافذة ، فقد كان صبرها قد نفذ . وفجأة نسيت " أولدوز " وحدتها ، وسرى عن قلبها ، إذ رأت غراباً أسود يقف على حافة الحوض ليشرب . ورفع الغراب رأسه فلمح " أولدوز " ، عندئذ خاف وهم بالطيران ، ولكنه عندما رأى " أولدوز " لا شأن لها به ، توقف وفتح منقاره قليلاً . فرحت " أولدوز " ، فقد اعتقدت أن الغراب يضحك ، وقالت له : - سيدى الغراب ، إن ماء الحوض قذر ، وإذا شربت منه مرضت .

ضحك الغراب مرة أخرى وقفز نحوها وقال : - لا يا عزيزتى ، بالنسبة للغريان ... فإنه لا فرق ، فنحن نشرب ماء أسوأ من هذا ، ولا يحدث لنا شئ ... أولاً لا تقولى لى " سيدى الغراب " ، فأنا سيدة وعندى أربعة صغار ، فنادينى بـ " أم الغراب " .

لم تكن " أولدوز " تفهم أى جزء فى الغراب هذا الذى يجعله أنثى وأرادت " أولدوز " أن تحتضنها وتقبلها . فكم هى رحيمة !! ... حقا إن الغراب لم يكن جميلاً فقد كان قبيحاً ودميماً ، ولكنه ذو قلب رحيم ، ولواقتربت " أم الغراب " قليلاً لأمسكتها " أولدوز " وقبلتها .

قالت " أم الغراب " وهى تقرقر : ما اسمك ؟
فقالت " أولدوز " - اسمى أولدوز . ثم سألتها " أم الغراب " : - وماذا
تفعلن بالداخل ؟
قالت " أولدوز " : لا شئ فقد تركتنى زوجة أبى هنا وذهبت إلى
الحمام ، وأمرتني بعدم الحركة .
فقالت " أم الغراب " : - إنك تفكرين مثل الكبار فى كل الأمور . لماذا
لا تلعبين ؟ .
تذكرت " أولدوز " عروستها الكبيرة فحزنت وتنهدت ، وفتحت
النافذة ليصل صوتها إلى " أم الغراب " : - ليس لدى ما أَلعب به ،
فقد ضاعت عروستى الكبيرة التى كانت تتكلم .
فجففت " أم الغراب " دموعها بطرف جناحها ، ثم قفزت وحطت
على حافة النافذة . وخافت " أولدوز " فى بادئ الأمر وتراجعت ،
فقالت لها " أم الغراب " : - أليس لديك صديق تلعبين معه ؟ .
فرحت " أولدوز " فرحاً شديداً ، واقتريت منها .
قالت " أولدوز " لها : - يا شار... ولكنى قليلا ما أراه ... قليلا جداً ...
فهو يذهب إلى المدرسة .
فقالت لها " أم الغراب " : - هيا نلعب سوياً .
أخذت " أولدوز " " أم الغراب " واحتضنتها وقبلت رأسها ووجهها .
وكان ريشها خشنا . وضمت " أم الغراب " رجليها حتى لا تلوث
ملابس " أولدوز " فقبلتها " أولدوز " فى منقارها الذى كان يفوح
برائحة الصابون وقالت : - هل تحبين الصابون إلى هذه الدرجة ؟
قالت " أم الغراب " : - نعم ! أموت من أجله .

قالت " أولدوز " : - لولا أن زوجة أبى تستاء من هذا الأمر لأحضرت لك قطعة لتأكلينها .

قالت " أم الغراب " - أحضريها خفية ، ولن تشم زوجة أبىك خبرا .
قالت " أولدوز " : - ألن تخبريها .

قالت " أم الغراب " : - أنا ؟ أنا لا أنم عن كلام أحد لأحد .
قالت " أولدوز " : - ولكن زوجة أبى تقول لى " أى شئ تفعلينه يأتى إلى الغراب ويخبرنى به " .

ضحكت " أم الغراب " من أعماق قلبها وقالت : - إنها تكذب ياعزىرتى ... أقسم برأسى السوداء هذه بأننى لا أنقل الكلام ، ولكنى أحضر إلى هنا بحجة شرب الماء ... وأقف على حافة الحوض ، ثم أسرق الصابون والسمك وأهرب .

قالت " أولدوز " : - لماذا تسرقين ؟ هذا حرام ؟!!
قالت " أم الغراب " : - لا تكونى سانجة يا عزيزتى ... ما الحرام ؟! ... الحرام إن لم أسرق ، سأموت جوعا أنا وصغارى . هل هذا ذنب يا عزيزتى ؟!! ... الذنب هو ألا أملأ بطنى ... هذا هو الحرام ... أكون الصابون تحت قدمى وأبقى جائعة ؟! ... لقد عشت كثيرا بحيث أعرف هذه الأمور ، وأيضاً لابد أن تعرفى أنت بدورك أن هذه النصائح الواهية لا تمنع من السرقة . إلى أن يكون لكل إنسان عمل فى هذه الدنيا ... ستبقى السرقة .

أرادت " أولدوز " أن تذهب وتسرق قطعة من الصابون وتحضرها لـ " أم الغراب " . فتذكرت أن زوجة أبىها تضع المواد الغذائية فى دولاى وتغلقه ، ولكنها تترك الصابون خارجه . فتركت " أم الغراب "

على حافة النافذة وذهبت بمفردها إلى غرفة الكرار وأحضرت قطعة من الصابون صنع "مراغة".

أيها الأطفال ، لا أراكم الله يوما سيئا !! . عندما عادت " أولدوز " وجدت " أم الغراب " قد هربت ، وزوجة الأب تقف بجوار النافذة حاملة بقعة الحمام تحت إبطها ووجهها أحمر كالبنجر . وأصبحت " أولدوز " فى مأزق شديد . وأدخلت زوجة الأب رأسها من النافذة وصاحت : - يا أولدوز ! ماذا حدث ؟ ... ما الذى جعلك تقلبين البيت هكذا ؟ ألم أقل لك لا تبرحى مكانك ؟ ! .

لم تجد " أولدوز " جوابا ، وتحركت زوجة الأب إلى الباب وفتحت القفل ودخلت ، فأسرعت " أولدوز " بإخفاء الصابونة تحت قميصها ، وقبعت القرفصاء فى زاوية من البيت ، ووصلت إليها زوجة الأب وهى تصيح : - ألن تقولى عما كنت تبحثين .

قالت " أولدوز " - يا أمى ... لا تضربينى !! لقد كنت أبحث عن عروستى الكبيرة .

أمسكت زوجة الأب بأذن " أولدوز " وعركتها . فقد كانت تكره عروستها - وقالت لها : - ألم أقل لك أكثر من مرة أن تمحى فكرة العروسة المشثومة هذه من رأسك ! ألا تفهمين ؟

بعد ذلك ذهبت زوجة الأب إلى غرفة الكرار لتعد لنفسها الشاى ، وتذرعت " أولدوز " بأنها ستذهب إلى الحمام ، وتوجهت إلى الفناء وأخذت تحملق بعينيها هنا وهناك باحثة عن " أم الغراب " ، فوجدتها جالسة على حافة السطح ونظراتها حائرة ، فوضعت " أولدوز " الصابونة تحت أشجار الورد ، وغمزت " لأم الغراب " حتى

تحضرو وتأخذ الصابون . نزلت " أم الغراب " صوب أشجار الورد
ودخلت فيها ببطء شديد ، وسألتها " أولدوز " : - ألن تحضرى أحد
صغارك لألعب معه ؟

أجابت " أم الغراب " بصوت منخفض : - انتظرينى بعد الغداء فإذا
وافق زوجى ، سأحضره .

عندئذ حملت الصابونة وطارت .

ظلت " أولدوز " تحملق فى " أم الغراب " وهى تبتعد فى السماء ، ثم
أخذت تتقافز وترقص من شدة فرحها ، وكأنها عثرت على عروستها
المتكلمة . وفجأة صرخت فيها زوجة أبيها : - لماذا ترقصين يا بنت ؟
أدخلى وإلا أصابتك ضربة شمس . لاوقت لدى ولا صبر عندى .

دخلت " أولدوز " وجلست فى الغرفة ، وحان وقت الغداء ، وبعد
دقائق ، عاد أبوها من عمله متجهماً ، وكأن رئيس الإدارة قد تشاجر
معه ، لذا لم يرد التحية على " أولدوز " وشرع فى الأكل دون أن يغسل
يديه .

كانت " أولدوز " تحب البطاطس المقلية ، وكانت الرائحة المنبعثة من
طبق أبيها تكاد تصيبها بالإغماء ، وظلت تبتلع ريقها عدة مرات ،
لكنها لم تأخذ منه شيئاً ، فقد كانت تعلم أنه على الصغار أن ينتظروا
حتى يضع لهم الكبار الطعام فى أطباقهم كما تقول زوجة أبيها .

لنتعرف على السيد غراب :

كان ذلك فى شهر أغسطس ، وقد تناولوا طعام الغداء ، ثم
غلب النعاس على الأب وزوجته فناما ، ونامت " أولدوز " أيضاً مجبرة

حتى لا يوبخها أبوها ، ويصرخ فى وجهها : - لابد أن ينام الطفل بعد تناول الغذاء . ولم تستطع " أولدوز " أن تفهم لماذا يتحتم عليها أن تنام ؟! وقالت لنفسها : - لا أستطيع أن أنام اليوم لأن " أم الغراب " ستأتى وإن لم تجدنى ، ستأخذ صغيرها مرة أخرى .

تمددت على عتبة الباب وتظاهرت بالنوم حتى نام أبوها وزوجته ثم خرجت ببطء شديد وذهبت إلى الفناء ، وجلست تحت ظل شجرة التوت ، وعدت أصابعها ثلاث مرات حتى وصلت " أم الغراب " . وحطت بادية الأمر على حافة السطح ، وأخذت تنظر إلى " أولدوز " فأشارت لها " أولدوز " حتى تستطيع النزول ، فنزلت " أم الغراب " وجلست بجانبها وقد أحضرت معها غراباً صغيراً لطيفاً ، وقالت : - لقد كنت خائفة أن تكونى نائمة .

قالت " أولدوز " : - إنى أنام كل يوم ، ولكنى اليوم تركت أبى وزوجته ينامان ولم أنم

قالت " أم الغراب " : - أحسنت ... فهناك وقت كثير للنوم ، فإذا نمتِ ظهراً فماذا ستفعلن ليلاً ؟

قالت " أولدوز " : - فلتقولى هذا لزوجة أبى ... هل أحضرت لى الغراب الصغير ؟ آه ... كم هو لطيف !

وضعت " أم الغراب " صغيرها فى يد " أولدوز " ، وكان لطيفاً جداً .

فجأة تنهدت " أولدوز " ، فقالت : " أم الغراب " : - لماذا تتنهدين ؟

قالت " أولدوز " : - تذكرت عروستى . ليتها كانت بجانبى حتى نلعب نحن الثلاثة .

قالت " أم الغراب " : - لا تحزنى ... الأبنة الكبرى إحدى حفيداتى

ستضع بيضاً بعد عدة أيام ، وعندما يفقس صغاراً سوف أحضرك واحدا منهم فتصبحون ثلاثة .

قالت " أولدوز " : - أليدك صغير آخر ؟

قالت " أم الغراب " : - لماذا ؟ لى ثلاثة آخرون

قالت " أولدوز " : - أحضريهم .

فقلت " أم الغراب " : - عند ذلك سألقي وحيدة ، كذلك فإن أبا الغراب لن يسمح لى أن أحضرهم لك ، وأعلمى أن هذا الصغير الذى أحضرته لك لا يستطيع الكلام ولا الطيران حتى الآن ، وبعد أسبوع يستطيع النعيق، ثم بعد أسبوعين يستطيع الطيران ، فانتبهى لذلك فإنه فى نهاية الأسبوعين إذا لم يستطع الطيران ، فإنه لن يقدر أن يطير بعد ذلك أبدا ، فلتتذكرى ذلك .

قالت " أولدوز " : - إن لم يستطع الطيران ، ماذا يحدث ؟

قالت " أم الغراب " : عند ذلك يموت ... أتعرفين ماذا تطعمينه ؟

قالت " أولدوز " : - لا ، لا أعرف .

قالت " أم الغراب " : - فى صباح كل يوم قطعة صابون وقليل من اللحم إن أمكن ، وفى بعض الأحيان سمكة صغيرة ... فلديكم منه الكثير فى الحوض ، وأيضاً يأكل الدود والجبن .

قالت " أولدوز " : - حسناً جداً .

قالت " أم الغراب " : - هل تسمح زوجة أليك برعايتك له ؟

قالت " أولدوز " : - لا ، فهى لا تحب رؤية هذه الأشياء ... لابد أن أخفيه .

وضعت " أولدوز " الغراب الصغير فى طرف تنورتها ، فأخذ يتحرك

يمينا ويساراً وهو يلعبها بالتقاط يدها بمنقاره وتركها . وكان ينبعث من عينيه الصغيرة بريق ، وكانت أرجلاه رفيعة مثل إصبع " أولدوز " الصغير ، وكم كانت أجنحته ناعمة ملساء فهي ليست خشنة مثل أجنحة أمه ، فهو أكثر جمالاً .

قالت " أم الغراب " : - حسنا ... أين تخفيه ؟
لم تكن " أولدوز " قد فكرت فى هذا ، ومن ثم استغرقت فى التفكير .
فى أى مكان ؟ ليس هناك مكان .
قالت : - أخفيه داخل شجيرات الورد .

قالت " أم الغراب " : - لا يمكن !! ... ستراه زوجة أبيك ، وعلاوة على هذا عندما تسقى الورد سيبتل صغيرى ويأخذ برداً .
قالت " أولدوز " : - ولكن أين أخفيه ؟!

قالت " أم الغراب " : - بعد أن نظرت هنا وهناك : - تحت السلم ... فهذا أفضل مكان ، السلم يوصل للسطح - وتنتشر مثل هذه السلالم فى المدن الصغيرة والقرى - وكان يوجد تحت السلم كن قديم به مخلفات ، فوضعتا الغراب الصغير فيه وأحكما إغلاق الباب حتى لاتأتى القطة وتأكله ، وكذلك حتى لا تشم زوجة الأب خبرا عنه . وكان هناك ثقب صغير أسفل الكن حتى يستطيع الغراب الصغير التنفس منه .

قالت " أولدوز " : - لـ " أم الغراب " : - ما اسمه ؟

قالت " أم الغراب " : - قولى له السيد غراب .

قالت " أولدوز " : - هل هو ذكر ؟

قالت " أم الغراب " : - نعم .

قالت " أولدوز " : - كيف عرفت أنه ذكر؟ فالغريان كلها شكل واحد!!

قالت " أم الغراب " : - أنت تعتقدين ذلك ... لو أمعنت النظر في الوجه والرأس ستعرفين الفرق بين الذكر والأنثى . فشكلهما يدل عليهما .

دارت بينهما الأحاديث ، ثم ودع كل منهما الآخر.. وذهبت " أولدوز " إلى الغرفة وتمددت وأغلقت عينيها . وعندما استيقظت زوجة الأب وجدت " أولدوز " لا تزال نائمة ، ولكنها لم تكن في الحقيقة نائمة ، ولم يغلبها النعاس ، بل كانت مستغرقة في التفكير في غرابها ، وتختلس النظر إلى زوجة أبيها وتضحك في سرها .

العناكب لذينة الطعم :

مضت عدة أيام وكانت " أولدوز " في قمة سعادتها ، وكان الأب وزوجته في عجب .

قالت الزوجة للأب ليلا : - لا أدري ماذا حل بالطفلة ! ... فدائماً تضحك وترقص وكأنه لا شيء يهتمها ، ولا بد أن أعرف ما هو السر ! سمعت " أولدوز " هذا الحديث ، وقالت لنفسها : لابد أن أحاط أكثر . كانت " أولدوز " تذهب إلى الغراب الصغير مرة أو مرتين في اليوم ، وعندما يكون البيت خالياً كانت تخرجه من عشه لتلعب معه ، وتعلمه الكلام . وفي بعض الأحيان كانت " أم الغراب " تأتي وتحضر لصغيرها قطعة لحم أو صابون ، وأشياء من هذا القبيل ، وقد أحضرت معها ذات مرة عنكبوتين ، وقد كانت العناكب معلقة بمنقار

" أم الغراب " تتملص ، ولا تستطيع تخليص نفسها . وكم كانت أرجلها طويلة . خافت " أولدوز " منها ، فقالت " أم الغراب " : - لا تخافى يا عزيزتى وانظرى كيف يأكلها صغيرى .

حقا ابتلعها السيد غراب بشهية ، ثم أخذ يمسح منقاره بالأرض عدة مرات يمينا ويسارا ، وقال :

- يا أمى العزيزة أحضرى لى مرة أخرى من هذا ، لقد كان لذيذاً جداً . فقالت أمه : - حسناً جداً .

قالت " أولدوز " : - لدينا الكثير منها فى مطبخنا وسوف أحضر لك منها . ابتلع الغراب لعابه وشكرها .

ومن ذلك الحين كانت " أولدوز " تبحث هنا وهناك ، وتصطاد العناكب وتضعها فى جيب قميصها ، وتقفل أزرارها عليها حتى لا تهرب . وعندما تسنح الفرصة تقدمها للغراب الذى يعدها نوعاً من الحلوى أو الديك المصنوع من السكر ، أو النُّقل ، ولا يعتبرها وجبات أساسية ، وكانت " أم الغراب " قد قالت : - إذا لم يأكل الحى يموت ، فليس هناك كائن حى يستطيع أن يحيا دون الطعام ، لا شئ ... لا شئ يحفظه حيا إلا الطعام .

ذات يوم وأثناء الغداء رأت زوجة الأب عدة عناكب مكسورة الأرجل تتحرك على مائدة الطعام . وأدركت " أولدوز " أن هذه العناكب قد خرجت من جيبها فدفق قلبها بشدة ، وأرادت أن تلتقطها وتضعها فى جيبها ولكن بعد تفكير أدركت أنه من الأفضل أن تتجاهل الأمر ، وأمسكت بها زوجة الأب من أرجلها وألقت بها خارجاً ، ومرا الأمر بسلام .

بعد الغداء ذهبت " أولدوز " إلى الغراب الصغير فى عشه بما تبقى من العناكب كما أنها وجدت اثنين آخرين كانا بزاوية الفناء . وأمسكت إحداهما بيدها ووضعتة داخل منقار الغراب كما تعلمت من "أم الغراب" عندما كانت تضع الطعام بمنقارها داخل منقاره الصغير.

مد الغراب منقاره ليأخذ العنكبوت ، ولكنه تراجع برأسه للخلف باشمئزاز وقال : - لن آكل يا عزيزتى أولدوز.

قالت " أولدوز " : - لماذا يا غرابى الصغير ؟

قال " الغراب " : - أنظرى إلى أظافرك وشكلها !

قالت " أولدوز " : - ماذا بشكلها ؟!

قال الغراب : - طويلة ، قذرة ، سوداء ! أنا آسف يا آنستى أولدوز إننى أتطفل . ولكننى لن أستطيع أن أتناول طعامى ... أتفهمين يا آنستى ؟

قالت " أولدوز " : - فهمت ، أشكر كثيرا لأنك بينت لى عيوبى ، فأنا نفسى بعد هذا لن أستطيع تناول طعامى بهذه الأظافر القذرة ... صدقنى !!

المشاجرة على السمك والحكم بإعدام أم الغراب :

فى حوض السمك ... كانت هناك أسماك حمراء وصغيرة . فى اليوم السادس أو السابع من حضور الغراب ذهبت " أولدوز " إلى حوض السمك وأمسكت بواحدة من الأسماك الحمراء الصغيرة الموجودة بالحوض ووضعتها فى طبق صغير وأعطتها للغراب فابتلعها

على الفور، فقد كانت أول سمكة يأكلها منذ أن أخبرتها "أم الغراب" أن صيد السمك وابتلاعه له مذاق جميل. لكنها لم تعرف كيف... لم تكن "أم الغراب" مثل زوجة أب "أولدوز". لقد كانت تعرف أشياء كثيرة. فهي تعرف ما هو الشيء المفيد لابنها، وما هو الشيء الضار. فإذا أراد الغراب شيئاً ضاراً، أو صدر منه تصرف خطأ لم تكن تصرخ في وجهه، ولكنها كانت تقول له: - يا صغيري العزيز: لن أحضر لك هذا الشيء... إنه ضار عليك إذا أكلته يحتبس صوتك ولا تستطيع النعيق!! ...

كانت تعطل كل شيء بعكس زوجة الأب التي كانت تقول بغضب: أولدوز لا تفعل هذا الشيء، لا تأكل هذا الشيء، لا تذهب إلى هذا المكان، لا تفعل هذا ولا ذاك، اجلسي معتدلة، لا ترفعي صوتك، لماذا تهمسين، وأشياء كثيرة من هذا القبيل، مع إنها لم تقل لي أبداً، لماذا لا أرفع صوتي؟ لماذا يجب أن أنام ظهراً؟ ... كانت "أولدوز" في بادئ الأمر تعتقد أن كل الأمهات مثل زوجة أبيها، ولكنها غيرت رأيها بعد أن تعرفت بأم الغراب وصادقتها.

وفي اليوم التالي عرفت زوجة الأب أن هناك سمكة ناقصة فظلت تصيح بصوت عال وصل إلى عنان السماء... وعندما حضر زوجها قالت أثناء الغداء: - إن الذي فعل ذلك هو نفس الغراب الذي يقف على حافة الحوض ويسرق الصابون، إنه وقح جداً، وإن أمسكته سأشنقه... سأعدمه.

وأخذت تسب "أم الغراب" بأقبح الألفاظ. سكنت "أولدوز" لأنها إذا قالت شيئاً ستعرف زوجة أبيها أن هناك علاقة وطيدة بينها

وبين الغراب ، خاصة بعد أن رأتها منذ عدة أيام بجوار الحوض تكاد تمسك برسغها .

قال الأب : - الغريان أصلا طيور قذرة وسارقة للأشياء التافهة ، ولم أرفى حياتى غراباً واحداً مؤدباً ، انتبهى له ! وإلا فإنه لن يترك سمكة واحدة باقية فى الحوض .

قالت زوجة الأب : - نعم ، لابد أن آخذ حذرى ، فإن الأسماك لذينة تحت أسنانه الآن ، ولابد أنه يرغب فى أكلها كلها .

ضحكت " أولدوز " من جهل زوجة أبيها لأن الغراب ليس له أسنان كما قالت لها " أم الغراب " .

" أم الغراب " تعرف أشياء كثيرة ولا تخاف الموت :

جاءت " أم الغراب " ظهرا والجميع نيام ، فجلست هي و" أولدوز " تحت ظل شجرة التوت ، وقصت " أولدوز " عليها ما حدث . قالت " أم الغراب " : - لا تهتمى ... إذا أرادت زوجة الأب أن تمسك بى سأقتلع عينيها .

بعد ذلك أخرجنا الغراب الصغير من العش ، فقد كان يستطيع الكلام عندئذ ولكنه لم يكن مثل " أولدوز " وأمه ، فقط كان مستواه فى الكلام جيدا بالنسبة لسنه ، وكان يقفز قفزات صغيرة بين الشجيرات والورود ، ويتجول هنا وهناك ، رفرف بجناحيه ثم عاد وجلس بجانب أمه فعلمته كيف يلتقط القمل من جسمه بمنقاره ويقتله .

كان لدى " أم الغراب " جرح قديم تحت جناحها الأيسر ، فأرتته لـ " أولدوز " ولصغيرها ، وقالت : - إن هذا الجرح منذ خمسين أو ستين

سنة . فقد كنت ذاهبة لسرقة الصابون ، فضريني صانع الصابون بعصاه وظل جرحى لمدة خمس أو ست سنوات حتى عثرت على فاكهة صحراوية وأكلتها فشفى جرحى تماماً .

أعجبت " أولدوز " بخبرة " أم الغراب " ومعرفتها ، وتمنت أن تكون لها أم مثلها ، فهي لم تكن تتذكر أمها ، وكل ما تتذكره أنها سمعت زوجة الأب ذات مرة أثناء مشاحناتها مع الأب تقول له : - خذ ابنتك إلى أمها وأتركها هنالك ، فإننى اليوم أو غدا سأكون أما لطفل ، ولن أخدمها .

والحقيقة ، لقد كانت بطن زوجة الأب ترتفع أمامها ، وكان موعد وضعها قد اقترب .

وبين الحين والآخر كان عم " أولدوز " يحضر من قريته إلى المدينة ويطل عليها ، كانت " أولدوز " تعرف فحسب أن أمها تعيش فى القرية وأنها تحبها .

ذلك اليوم قبلت " أم الغراب " " أولدوز " ، وقبلت صغيرها وطارت ، وجلست الأم على حافة السطح لتذهب إلى مدينة الغريان ، وودعتها " أولدوز " وقالت لها : - سلمى على أولادك الآخرين وعلى أبيهم .

ثم تذكرت أن عليها أن ترسل هدية للصغار ، واختارت بزازة كانت فى جيب قميصها - كانت زوجة الأب قد أشترتها لها - فأحضرتها وصعدت على السلم المؤدى إلى السطح ... وأعطتها - " أم الغراب " لتعطيها لصغارها ، ثم حطت " أم الغراب " ، وحطت فوق إحدى أشجار الحور الأبيض ، واستدارت تجاه " أولدوز " ونعقت ، وطارت حتى غابت عن عينيها .

زيارة قصيرة لـ "ياشار" :

ظلت " أولدوز " واقفة على السطح تحملق في الأفق البعيد ، ثم تذكرت أنها لم تخبر زوجة أبيها بأنها ستصعد للسطح فخافت قليلا ، وقررت النزول بسرعة ، وألقت نظرة على ما حولها ، ثم حدثت نفسها قائلة : - كم هو جميل ذلك السطح !! وأخذت تنظر إلى فناء الجيران من جهة اليسار حيث بيت " ياشار " ولحته " أولدوز " يخرج فجأة إلى الفناء بهدوء ، ويذهب فيجلس أمام كوخ الكلب الذى كان خاليا دائما . وكان " ياشار " يكبر " أولدوز " بثلاث سنوات ، وكان ذكيا عطوفا . وحاولت " أولدوز " أن تلفت نظره ، ولكنها لم تستطع أن ترفع صوتها أكثر ، وعندما كانت على وشك أن تياس رفع " ياشار " رأسه فرآها وتعجب عندما رآها ، ثم جاء مسرورا ووقف بجانب السور وقال : - ماذا تفعلين هنا يا أولدوز ؟

قالت " أولدوز " : - شعرت بضيق فصعدت للسطح أنظر لما حولى هنا وهناك .

قال " ياشار " : - أين زوجة أبيك ؟

كانت " أولدوز " قد نسيت كل شئ ، ولكنها عندما سمعت ذلك تذكرت أنها نسيت الغراب الصغير فى وسط الفناء ، ومن الممكن أن تستيقظ زوجة الأب وتراه ... وكم سيكون الأمر سيئا ! ... تركت " أولدوز " " ياشار " ونزلت بسرعة ، وأدخلت الغراب الصغير عشه ، وبينما هى تخلق الباب سمعت زوجة الأب تصيح عليها قائلة : - فى أى قبر تخبئين ؟ لماذا لا تجيبين ؟

كاد قلب " أولدوز " ان يتوقف من شدة الخوف ، ولم تستطع أن ترد

فى بادئ الأمر ولكنها استجمعت شجاعتها بعد قليل وقالت : - أنا
هنا يا أماه ، إنتى أقضى حاجة .
ولم تعقب زوجة الأب ومرا الأمر بسلام .

إعدام أم الغرباب :

فى اليوم التالى استيقظت " أولدوز " فزعة على نعيق " أم
الغرباب " تطلب النجدة وكأنهم يقتلون أحدا وهو يصرخ ، جرت
" أولدوز " إلى الفناء مسرعة تستطلع الأمر ، فوجدت زوجة الأب
واقفة تحت شجرة التوت ، وفى وجهها جرح تتساقط منه الدماء ،
وفى يدها عصا تضرب بها " أم الغرباب " المسكينة المعلقة بالشجرة
من أرجلها وهى تسبها ، بينما كانت المسكينة تنعق وترفرف
بجناحيها .

ولم تدر " أولدوز " نفسها متى اندفعت نحو زوجة الأب ، وأمسكت
بأرجلها وعضتها فصرخت زوجة الأب ، ودفعت " أولدوز " بعيدا عنها
،، ثم لطمتها بشدة أسفل أذنها فسقطت على الأرض ، وارتطم رأسها
بحجر ففقدت وعيها وراحت فى غيبوبة ولم تفهم شيئا بعدها .

نوم " أولدوز " المتقطع :

فتحت " أولدوز " عينيها ظهرا فوجدت بجوارها بعض
الجيران ، وكانت زوجة الأب تجلس بجوار رأسها ، وقد أمسكت
بملعقة بها دواء تعطيه لها ، ولكن شيئا فشيئا اتضحت الرؤية
وتعرفت بوضوح على من بالغرفة ، ورأت " ياشار " يحملق فيها وقد
جلس بجوار أمه .

عندما رأت زوجة الأب " أولدوز " تفتح عينيها قالت مندفعة ، - شكر
لله ، لقد فتحت عينيها ... إنها لن تموت ، تكلمى يا " أولدوز " ...
تكلمى ... لم تكن " أولدوز " تستطيع الكلام ، وحولت رأسها ناحية
زوجة الأب . وفجأة تصاعد فى الغرفة نعيق " أم الغراب " ، ويدون أن
تشعر " أولدوز " أمسكت بشعر زوجة الأب كالمجنونة وظلت تصرخ .
لكن رأسها كانت تؤلمها فنزلت يداها دون إرادة منها ، وانقطع
صوتها ، ثم انخرطت فى بكاء مروظلت تردد : أين " أم الغراب " ؟
... أين ؟ أين " أم الغراب " ؟ ماذا حدث للغراب الصغير ؟ ... الأم !
... الأم ...

أسرع " ياشار " إليها وجلس بجانبها قبل الجميع ، وظل كل واحد
يتحدث إليها محاولاً تهدئتها ، لكن " أولدوز " استمرت فى البكاء ،
وتظاهرت زوجة الأب بالحنان لتهدئ من روعها قائلة : - لا تبكى
يا عزيزتى " أولدوز " خذى دواءك وستتحسنين سريعاً .

وفى النهاية تعبت " أولدوز " من كثرة البكاء ، فغلبها النعاس ، ورأت
فى الحلم " أم الغراب " معلقة فى شجرة التوت وتقول : - " أولدوز "
! ... لقد ذهبت ، لا تنسى كلامى ... ولا تخافى . فاندفعت " أولدوز "
إلى الشجرة وهى تجرى ، وعندما اقتربت خرجت لها زوجة الأب من
وراء الشجرة تريد أن تركلها بقدمها ، ففزعت " أولدوز " من الحلم
وأجهشت بالبكاء ، ولم تجد حولها سوى الأب وزوجته هذه المرة فى
الغرفة فغلبها النعاس مرة أخرى ، ورأت نفس الحلم ، وظلت هكذا
تستيقظ تارة ، وتارة تنام وتحلم ... وعندما تماكنت نفسها وجدت أن
الليل قد حل ، وأن الطبيب يكشف عليها ، ثم يقول للأب : - جرحها

بسيط وسيشفى سريعا ، ولكن هذه الطفلة خائفة جداً ، ترتعد ، هناك شئ ما قد أوصلها إلى حالة من الخوف الشديد ، وسأعطيها حقنة مهدئة حتى تنام .

قالت " أولدوز " : أنا جائعة .

فأحضرت لها زوجة الأب حليبا فشربته ، وأعطاهما الطبيب حقنة وأخذ حقيبته وانصرف .

أخذت " أولدوز " تحملق فى السقف ولم تتكلم ، وأرادت أن تستمع للحديث الدائر بين الأب وزوجته ، ولكن سرعان ما غلبها النعاس ، ولم تستمع المزيد .

حُزن الغراب وتأمله وفقده لأمه وكيف أسرت " أم الغراب " :

فى صباح اليوم التالى تذكرت " أولدوز " الغراب الصغير فارتعشت يدها وانسكب الشاى على الغطاء فنظرت لها زوجة الأب نظرة حادة ، ولكنها لم تقل شيئا ، أما الأب فكان مشغولا بارتداء ملابسه ليذهب إلى العمل . حاولت " أولدوز " أن تنهض حتى تذهب إلى الغراب غير أن ذلك كان يبدو عملا جنونيا ولم تكن تعرف ماذا حل بالغراب الصغير ولا كيف وقعت " أم الغراب " فى يد زوجة الأب ، وكانت زوجة الأب قد نزعته فى الصباح الباكر ذلك المنديل الذى تربط به عينها وعلى حاجبها وجبهتها تبدو آثار منقار " أم الغراب " . وبعد خروج الأب قالت الزوجة : - أنا ذاهبة إلى أم " ياشار " ، وسأعود سريعا ، فلم أذهب للحمام منذ وقت طويل ، هذه المرة لأستطيع اصطحابك معى ، وسأرى إذا كانت أم " ياشار " تستطيع الذهاب معى إلى الحمام .

حقا كانت زوجة الأب تتكلم بحنان وعطف ، ولم يسبق أن تحدثت بهذه اللهجة من قبل مع " أولدوز " ولكن " أولدوز " لم تكن لديها الرغبة فى محادثتها لأنها تكرهها ، وخطرت لها فكرة فقالت لها : - أمى ، الآن تذهبين للحمام ، قولى لـ " ياشار " أن يأتى إلى هنا حتى لأمل من الوحدة .

قطبت زوجة الأب جبينها وقالت : - " ياشار " يذهب إلى مدرسته . لم ترد " أولدوز " عليها فخرجت زوجة الأب وأسهرت " أولدوز " ونهضت وذهبت إلى عش الغراب الصغير فوجدت المسكين قابعاً وسط المخلفات وهو يبكى وما أن رأى " أولدوز " حتى قال : - أخيراً حضرتِ ...!!

قالت " أولدوز " : - أعذرني لأنى تركتك وحيداً . قال الغراب : - الآن إحضرى لى شيئاً آكله فأنا جوعان جداً وعطشان ، ثم نتحدث بعد ذلك .

ذهبت " أولدوز " وأحضرت له طعاماً وجاءت ، فأكل الغراب لقيمات ثم قال : - لقد اعتقدت أنك ذهبتِ أيضاً كما ذهبت أمى . قالت " أولدوز " : - وأين ذهبت أمك ؟

قال الغراب : - لم تذهب إلى مكان قط ، ظلت زوجة أبيك تضربها حتى ماتت ، ثم ألقت بها فى صندوق القمامة .

سأمسكت " أولدوز " نفسها عن البكاء وقالت : - أى نهاية هذى !! الآن نهشت الكلاب لحمها وأكلته .

قال الغراب : - لا ، فلحمنا مر المذاق والكلاب لا تجرؤ على أن تمسه

بأنياها ، فمن يموت منا يظل ملقى حتى يتعفن ويتبعثر ، وستظل أمى فى صندوق القمامة أوفى مكان آخر آخذة فى التعفن .

لم تستطع " أولدوز " السيطرة على نفسها فبكت وبكى الغراب أيضاً ، وأثناء البكاء قالت " أولدوز " : - الآن ستحضر زوجة أبى وترانا ، سأذهب الآن ، وعندما تذهب زوجة أبى إلى الحمام سأتى إليك مرة أخرى .

وأغلقت " أولدوز " عش الغراب وأسرعت تنام متدثرة بالحاف ، وحضرت زوجة الأب وأخذت ملابسها فى بقجة وذهبت ، فهدأت بذلك نفس " أولدوز " وذهبت إلى غرابها وأخرجته من العش ، وتركت الباب مفتوحاً حتى تدخل الشمس ساطعة مشرقة .

رفرف الغراب بجناحيه وأخذ يمسح منقاره بالأرض يمينا ويسارا ثم قال : - حقاً يا عزيزتى " أولدوز " ، الحرية شئ جميل .

تنهدت " أولدوز " وقالت : - أتعرف لماذا جاءت أمك فى الصباح ؟ قال الغراب : أعرف .

قالت " أولدوز " : - أأستطيع أن تخبرنى ؟

قال الغراب : - جاءت لتحملنى وتعلمنى الطيران ، فقد سطعت الشمس وجاءت أمى مبكراً وقالت : اليوم يوم مناسب للطيران ، وسأخذ إخوتك وأخواتك لأعلمهم الطيران ، وأنت أيضاً لابد أن تأتى ، ثم أعيدك بعد ذلك ، فقلت لها : وماذا عن " أولدوز " ؟ ألم تخبريها ؟ فقالت أمى سأخبرها . ثم وضعتنى فى العش ، وذهبت لتخبرك ، وبعد مدة لم تخرجى أنت . وبينما كنت بالعش سمعت صوت أمى تصرخ بألم ، وخفق قلبى ، وصراخ أمى يصل إلىّ وهى تقول : - أليس لنا حق

الحياة فى هذه المدينة ؟! ... لماذا لا ينبغي لنا أن نصادق من نريد
علانية ؟ نظرت من ثقب بباب العش فوجدت زوجة الأب وقد
أمسكت بأمى ووضعتها تحت الغريال ، ومن الواضح أنها لم تفهم أى
كلمة من كلام أمى .

فرغ صبر " أولدوز " فسأله بسرعة : - وماذا حدث بعد ذلك ؟
قال الغراب : - ثم قيدت أمى بعد ذلك بحبل وعلقتها فى شجرة
التوت ، فقفزت أمى فجأة ونقرتها فى جبهتها وحاجبها ، وضربت
بجناحيها وجرحت وجهها بمنقارها فتأجج غضبها وأخذت تضرب
أمى بعصا غليظة .

قالت " أولدوز " : - ألم تقل أمك شيئاً آخر ؟
قال الغراب : - قالت أمى : يا زوجة الأب الجاهلة أتعقدين أن
الغريان تسعد بالسرقة ؟ لو كان لدى طعام أستطيع أن أشبع به
نفسى وأولادى فلن أسرق ، لأنى لو سرقت حينذاك فمعنى ذلك أنى
مريضة ! إنكم تشبعون أنفسكم وتعتقدون أن الجميع على شبع ...!
صمت الغراب ، ومنعت " أولدوز " نفسها من البكاء وسأله : - وماذا
حدث بعد ذلك ؟

قال الغراب : - بعد ذلك خرجت أنتِ بقميص نومك والباقى
تعرفينه أنتِ .

خيم الصمت عليهما للحظة ، ثم قالت " أولدوز " : - على العموم لقد
رحلت أمك ، الآن ماذا ستفعل ؟

قال الغراب : - لابد أن أتعلم الطيران .
قالت " أولدوز " : - حقا ، فأنا دائمة التفكير فى نفسى فحسب .

قال الغراب: - يا ليت أبى وأخوتى وأخواتى وجدتى يعرفون أين أنا.
قالت " أولدوز ": - نعم ، لكانوا عاونونا .

قال الغراب : - أتتذكرين أن أمى قالت : إن لم أتعلم الطيران بعد
عدة أيام سأموت ؟

قالت " أولدوز ": - أتذكر ذلك .

قال الغراب : - أتعرفين حساب الأيام بدقة ؟

عدت " أولدوز " على أصابعها وقالت : - ليس لدينا أكثر من ستة
أيام .

قال الغراب : أتعرفين ماذا يجب علينا أن نفعل ؟

قالت " أولدوز ": - ما رأيك أعطيك لياشار ليحملك إلى الخلاء
ويعلمك الطيران ؟

قال الغراب : - من هو " ياشار " ؟

قالت " أولدوز ": جارى الذى يسكن جهة اليسار .

قال الغراب : إذا كان ولدا طيبا فلن أعترض !

قالت " أولدوز ": إنه فعلا ولد طيب وأمين على الأسرار ، ولكن كيف
أخبره ؟

قال الغراب : - الآن اصعدى للسطح ، وقولى له أن يحضر ليأخذنى .

قالت " أولدوز ": ليس من الممكن الآن ، إنه فى المدرسة .

قال الغراب : مدرسة ؟!! لقد بدأت العطلة الصيفية منذ أيام .

قالت " أولدوز ": - أنت على حق ، فقد خدعتنى زوجة أبى ،

فالمدارس الآن فى عطلة ، سأصعد إلى السطح ، وانتظر أنت هنا .

كانت " أولدوز " عند الدرجة الثانية من السلم عندما سمعت صوت

أقدام تأتي من الخارج ، فأسرعت إلى الغراب ووضعتة في العش وأغلقت الباب عليه ، وذهبت إلى غرفتها ونامت تحت اللحاف ، وثبتت عينها على الفناء .

أصبح البيت مكاناً خالياً موحشاً :

تناهى إلى سمع " أولدوز " نباح كلب وصر الباب ، ثم دخل الأب ويعهده العم ، أخوه الأصغر واندفع وراءهما كلب أسود مربوط بحبل يمسك به العم .

قال الأب : - الآن لا يستطيع أى غراب أن يأتي إلى هنا .

قال العم : - عندما يأتي الشتاء سأتى لأخذه .

قال الأب : - ليس هناك مشكلة ، فعندما يحل الشتاء لن نكون بحاجة إليه .

قال العم : - أين " أولدوز " ؟ هل ذهبت بصحبة زوجة أبيها ؟

قال الأب : - لا ، إنها مريضة ونائمة .

وربطا الكلب بشجرة القوت وعادا إلى الغرفة . وكانت " أولدوز " تحب عمها كثيراً لأنه كان يأتي من قرية أمها .

ظل العم يسأل عن أحوال " أولدوز " ، ولكنه لم يقل شيئاً عن أمها لأن الأب كان يضيق صدره عندما يتحدث أحد عن زوجته الأولى .

قال العم للأب : - ألن تعود إلى عملك ؟

قال الأب : لا ، لقد أخذت اليوم أجازة ، ثم إن الوقت قد مضى .

وعاد للحديث عن الكلاب والغريان مرة أخرى وقال الأب وهو يسب الغريان قائلاً : - لصوص أقذار وجبناء ، يأتون ليسرقوا ، وإذا رأوا شخصاً ينحنى ليلتقط حجراً أو شيئاً من الأرض فروا هارين بسرعة. وصلت زوجة الأب بعد أن انقضت ساعة على آذان الظهر، فنبح الكلب ، وأخرج العم رأسه من النافذة ، وصرخ فيه فسكت إلى جوارها وطأطأ رأسه.

دخلت زوجة الأب وأطرقت بوجهها أمام العم ، وكذلك كان العم يفعل حتى أنه لم يكن ينظر قط إلى وجه زوجة أخيه الأكبر ، وكانت " أولدوز " تجلس صامتة تحملق في وجه عمها وفجأة قالت له : - عمى ، هل تستطيع أن تأخذ كلبك معك ؟

تعجب الأب من كلامها ، وانتقل العم إلى جوار " أولدوز " وسألها : - لماذا آخذته معي ؟

تلعثمت " أولدوز " وحارت جواباً ، وفي النهاية قالت : - أنا ... أنا خائفة .

قال الأب : - دعك من هذا يا بنت لا تتظاهري .

قال العم : - لا تخافى يا عزيزتى ، فالكلب أليف وسأقول له ألا يؤذيك. قال الأب : لا تعباً بها ، لقد أصبحت لا تفهم كلام آدميين ، بل أصبحت أسوأ من الكلب نفسه ، فهي تعض الجميع ، ودائماً تدافع عن الغريان اللصوص بدون سبب ، ولا أدري أى خير رأته من هذه الطيور القذرة .

لم تقل " أولدوز " شيئاً آخر وسحبت اللحاف على رأسها ونامت . وعندما استيقظت وجدت عمها قد ذهب ، والكلب ينبح في الفناء

ويخيف الغريبان ويبعدها منذ ذلك اليوم أصبح البيت خاليا ، ولم يستطع أى غراب الاقتراب منه ، حتى " أولدوز " كانت تذهب للفناء وهى خائفة ومرتعدة ، وذات مرة كانت تحمل قطعة لحم ضأن للغراب فهجم الكلب الأسود عليها ، وخطفها من يدها ، فصرخت " أولدوز " وجرت إلى الداخل .

أيام كلها قلق وحيرة وجوع وخوف :

نهضت " أولدوز " من فراشها ، والتأم جرح جبهة زوجة الأب سريعا ، أما جرح رأس " أولدوز " فقد استغرق وقتا طويلا حتى شفى !!! ولقد تغير سلوك زوجة الأب فأصبحت أسوأ من ذى قبل . وكانت آثار أسنان " أولدوز " ما زالت واضحة فى لحم فخذهما .

وأصبح وضع الغراب سيئا ، فهو دائما جوعان ، وبالرغم من أن " أولدوز " كانت تبذل قصارى جهدها ، إلا أنها لم تستطع توصيل الطعام والماء له فى ميعاده . وكأنه كان للكلب الأسود أربع عيون يراقب بها المكان وينبج على كل صوت يسمعه ولا يعرفه . وكان " يشار " هو الأمل الوحيد لـ " أولدوز " والغراب ، فإن هوساعدهما لصارت الأمور على ما يرام ، ولكنهما لا يعرفان كيف يخبرانه !! ومن شدة خوف " أولدوز " من الكلب لم تكن تستطع الصعود إلى السطح ، فالكلب الأسود لم يكن يعطيها فرصة ، فكان يثير ضجة ، وكان من الممكن أن يعضاها فهو دائما يتجول فى الفناء ويتشمم .

وكانت أم " يشار " أحيانا تأتي لزيارتهم ، ولكن لم يكن يصح أن تقول لها شيئا ، فمن أين تعلم أنها ليست صديقة حميمة لزوجة

الأب ، ثم إن زوجة الأب لا تتركها تجلس بمفردها مع شخص ما .
وتعاقبت الأيام - ومضت خمسة أيام كلها قلق وحيرة و... وكانت
" أولدوز " تعلم أنه لابد للغراب أن يتعلم الطيران اليوم ، وإذا لم يتعلم
فسوق يموت . أما كيف يتعلم الطيران ؟ فإنها لا تدري !!
وفى النهاية حانت الفرصة ، واستطاعت أن ترى " ياشار " ، ففى
نفس اليوم أرادت زوجة أبيها أن تذهب إلى عرس ، فقالت لها
" أولدوز " : - يا أمى أخاف من الكلب ، ولا أستطيع أن أبقى فى
البيت بمفردى .

عبرت زوجة أبيها ، وأخذتها من يدها وتركتها عند أم " ياشار " .
وفرحت " أولدوز " من أعماق قلبها ، ولكنها لم تجد " ياشار " فى
البيت ، فسألت أمه : - أين " ياشار " ؟
قالت الأم : - لقد ذهب إلى المدرسة يا عزيزتى ، فقد فتحت المدارس
أبوابها بالأمس .
فجلست " أولدوز " تنتظر " ياشار " .

خطة لتحرير الغراب :

حان وقت الظهيرة ، وجاء " ياشار " راكضا ، وعندما رأى
" أولدوز " إحمروجه وسلم عليها ، فردت " أولدوز " عليه السلام -
وكان لـ " ياشار " أخت رضيعة ، كانت أمها ترضعها كى تنام - بعد
ذلك توجه " ياشار " و " أولدوز " إلى الفناء .
وقالت " أولدوز " بهدوء وحزن : - " ياشار " أتعلم ماذا حدث ؟
قال " ياشار " : - لا !

قالت " أولدوز " : - سيموت غرابى !!
قال " ياشار " : - أي غراب ؟
قالت " أولدوز " : - غرابى ، غرابى ... يا أخى
قال " ياشار " : - أكان لديك غراب ؟
قالت " أولدوز " : - نعم لدى ، والآن ماذا نفعل ؟
سألها " ياشار " بلهفة : من أين حصلت عليه ؟
قالت " أولدوز " : - سأخبرك فيما بعد ، الآن قل لى ماذا نفعل ؟
قال " ياشار " : - هل سيموت من الجوع ؟
قالت " أولدوز " : - لا
قال " ياشار " : - إذن لماذا سيموت ؟!
قالت " أولدوز " : - لا يستطيع الطيران ، وإذا لم يستطع الغراب
الطيران فإنه حتما سيموت .
قال " ياشار " : - أعطه لى ، وسأعلمه .
قالت " أولدوز " : - لقد أخفيتته تحت السلم .
قال " ياشار " : - هل تعرف زوجة أبيك ؟
قالت " أولدوز " : - إذا علمت قتلته .
قال " ياشار " : - لابد من حيلة !!
قالت " أولدوز " : - أولا: لابد أن نتخلص من الكلب ، ألا تسمع صوته ؟
قال " ياشار " : - أسمعه ، ولن يتركنا نحمل الغراب خارجا ، أمهلينى
يوما أو اثنين لأفكر وأرسم خطة وأدبر أمره .
قالت " أولدوز " : - ليس لدينا فرصة ، لابد أن نأخذ الغراب اليوم ،
وإن لم نستطع سيموت ، هكذا أخبرتنى " أم الغراب " .

كان " ياشار " يشعر بانفعال ، ويأن هناك أشياء كثيرة مجهولة ، فسأل متسرعاً : - من " أم الغراب " هي الأخرى ؟
قالت " أولدوز " : - هي أم الغراب الصغير ، وسأحدثك عنها فيما بعد ، ولكن الآن لابد أن نفعل شيئاً حتى لا يموت الغراب .
قال " ياشار " : لن أذهب إلى المدرسة بعد الظهر ، ونذهب سرا ونحضر الغراب .

تناولت أسرة " ياشار " طعام الغداء جبنًا وخبزًا وخضرا ، وبعد الغداء ذهب أبو " ياشار " لعمله ، وذهبت أمه بأخته الرضيعة لتنام .
قال " ياشار " : - لن أنام أنا و " أولدوز " ، فلابد من عمل الواجب .
كان " ياشار " يلقي بهذه الأكاذيب بين الآن والآخر ليترك بمفرده .

القتل تخليصاً للغراب من سجنه :

بعد قليل خرج " ياشار " و " أولدوز " وصعدا إلى السطح عن طريق السلم ، وأخذا ينظران هنا وهناك ، فلاحظا أن الكلب الأسود طليق يريض أمام باب الغراب .
قال ياشار : سأنزل وأحضر الغراب .
قالت أولدوز : ألا ترى ؟ ، الكلب رابض أمام الباب ؟
قال ياشار : حقا ؟ يا للغراب المسكين ، ترى إلى أى حال قد وصل ؟
قالت أولدوز : لا أعتقد أنه شديد الخوف الآن ، فغرابي شجاع ..
قال ياشار : ماذا سنفعل الآن ؟
قالت أولدوز : نفكر ، وندير خطة .
قال ياشار : سأفكر الآن وأدير خطة .

وكان هناك برميل خل خاص بـ زوجة الأب في ركن بالسطح ، وقد
ثبت بأحجار وضعت من حوله حتى لا يقع ، وعندما وقعت عينا "
ياشار" على الأحجار ، برقت في رأسه فكرة فقال:
- هيا نقتل الكلب. ردت اولدوز بدهشة :
- نقتل ؟ !

قال ياشار : نعم بالطبع نقتل ، حتى نتخلص من شره إلى الأبد .
فقالت اولدوز : أنا خائفة .
قال ياشار : سأقتله أنا .
قالت اولدوز : أليس ذلك حراما ؟
قال ياشار : حرام ؟ لا أعلم إن كان حراما أم لا ، لكن ليست هناك
طريقة أخرى ، نحن أيضا لم نسيء لأحد حتى يكون حراما ..
قالت اولدوز : الكلب ملك لعمي .
قال ياشار : ليكن ، لماذا أحضر عمك كلبه وريطه هنا ؟ بالطبع
ليخيفك ، وليسجن الغراب ، أليس كذلك ؟
لم تستطع اولدوز الرد ، فذهب ياشار بهدوء ، ورفع حجرا كبيرا وسأل
اولدوز :

- هل يوجد أحد في المنزل ؟
قالت اولدوز : ذهبت أُمي إلى عرس ، ولا أعلم أين أبي ، إنني أشفق
على الكلب ..
قال ياشار : هل تعتقدين أنني سعيد بقتل الكلب ؟ ولكن ليست لدينا
طريقة أخرى ..

نزل يشار درجة واحدة من السلم حتى يقترب من رأس الكلب تماما، ثم رفع الحجر إلى أعلى ، وتركه يسقط فجأة على رأس الكلب ، فزام الكلب بصوت مختنق، ثم بدأ يفلفص بيديه وقدميه ..فجأة، سمعا صوت والد اولدوز فانسحبا مسرعين ، وخرج الأب ، ورأى الكلب وهو يحتضر، فهمس يشار في أذن اولدوز قائلا : هيا نهرب ، لأنه سيرى الحجر فيصعد إلى السطح .

قالت اولدوز : أتترك الغراب ؟

قال يشار : بعد ذلك سأتي إليه .

نزل كل منهما بهدوء ، وجلسا في الغرفة ، وبعثرا كتب يشار أمامهما، حتى إذا حضر أى شخص يعتقد أنهما يستذكران دروسهما . لكنهما كانا يرتعدان بشدة ، وقد شحب وجهاهما . وتعالى صوت أقدام الأب على السطح ، ثم خفت وانقطع . وصعد يشار بمفرده إلى السطح ، وكان والد اولدوز قد إرتدى ثيابه ، ووقف بجوار جثة الكلب ، ثم تركه وخرج إلى الدرب .

وتذكر يشار ذلك اليوم الذي ألقى فيه حجرا على زجاج منزل اولدوز فكسره ، فأحضر الأب الشرطة ، وأحدث ضجة .. نزل يشار مسرعا عندما تذكر كل هذا ، وأخرج الغراب ، وقال له : أنا يشار، وقد قتلت الكلب لأخلصك ..

قال الغراب وهو يلهث : شكرا ، ولكن فات الوقت ..

قال يشار : لماذا ؟

قال الغراب : لقد قالت أُمي أن الموعد حتى ظهر اليوم ، بالإضافة إلى أنني جوعان وليست لدي القدرة على الطيران .

قال ياشاربحزن وهو على وشك البكاء : ألن تأتي معي الآن لأعلمك الطيران ؟

قال الغراب : قلت فات الوقت ، قل لأولدوز أن تنتزع عدة ريشات من جناحي وتحتفظ بها ، فسوف يأتي الغريان ويسألون عني ..
أنهى الغراب كلامه ، ثم أغلق منقاره ، ويرد جسمه ، ومات . فبكى ياشار ، ثم خطرت له فكرة شيطانية ، ولعت عيناه وابتسم ، وأسرع وحمل جثة الغراب ووضعها على السلم ، وألقى حجرا في وسط المطبخ ، ووضع جثة الكلب تحت شجرة التوت ، ثم أحضر دلو ماء ، وغسل الدم المتناثر على النافذة وأسفل الدرج ، ثم ترك الدلو مقلوبا وسط الغرفة ، وحمل الغراب وخرج ، وتذكر السطح ، إذ يجب عدم ترك أى أثر هناك ، فصعد وأزال كل أثر .

كانت اولدوز تبكي وهى حزينة جدا ، ولكن ما حدث قد حدث ، وليس فى إستطاعتها عمل أى شىء . وظل ياشاريواسيها ، ثم قال لها : إذا أردت ألا تحدث أشياء أسوأ من ذلك ، لا بد أن تسكتى حتى لا يصل الخبر إلى أحد ، وسيحل البلاء والمصائب بهم بحيث يشغلون بها ، لقد تعلمت اليوم شيئا جديدا من المعلم ، وسوف أخوف زوجة الأب والأب بحيث يخافا من ظلهما !!

ثم قص على اولدوز كل ما قاله الغراب وفعله ، عند ذلك إستعادت اولدوز شيئا من تماسكها ، ونزعت عدة ريشات من ريش الغراب الصغير ، ووضعتها فى جيبها ، وحمل ياشارجثة الغراب ، وأخفاها ، حتى يدفنها بعد ذلك .

أطفال عقلاء يتلاعبون بالآباء والأمهات :

جلس الطفلان ينتظران ، وفجأة تعالت أصوات ، وكان أبو اولدوز يصيح ويصرخ ، وكانت هناك أصوات أخرى تشاركه الصياح . إستيقظت أم ياشار، واندفعت تجرى إلى الفناء ، ثم تنبهت وعادت فوضعت العباءة على رأسها ، وصعدت إلى السطح فوجدت والد اولدوز يصرخ كالمجنون ، ويدق على رأسه ، ويقول : -واحسرتاه .. واحسرتاه .. أنا مسكين.. لقد عرفوا الطريق إلى بيتي .. العفاريث .. لن أستطيع أن أمكث هنا ثانية ، لقد عرفوا الطريق إلى بيتي ... العفاريث !!

وتطلق الشرطي وعدة رجال آخرون حوله يريدون تهدئته ، لكن والد اولدوز أشار إلى جثة الكلب ، وصرخ قائلاً :

- أنظروا ، من الذى أحضره وألقى به هنا ؟ من الذى رفع الحجر من هنا ؟ من غسل الدماء ؟ العفاريث .. جاءوا أولاً وقتلوا الكلب .. ثم .. واحسرتاه .. واحسرتاه !!

وقفت اولدوز وياشار أسفل الدرج يسترقان السمع بعد أن منعتهم أم ياشار من الصعود إلى السطح ، وأخذ كل منهما يغمز للآخر ، ويضحكان من جهل الأب وبقية الأشخاص ، وكانا سعيدين لأن كل هؤلاء الناس صدقوا ما فعلاه سخرية بالآخرين.

سحب الجميع الأب إلى الغرفة ، لكنهم فجأة صرخوا جميعاً صرخة خوف ، ثم تضرعوا قائلين : أدركنا يا الله .. العفاريث !!

جری الأب مرة أخرى إلى الفناء ، وأخذ يصرخ كالمجانين وهو يركض هنا وهناك ، وكان منظر الدلو المقلوب قد أدخل الرعب في قلوب الجميع .

قال شيخ: عرفوا الطريق إلى البيت .. العفاريات ، فتشوا البيت ، وليذهب أحدكم ، وليحضر صارف الجن ، وليذهب آخر وليحضر كاتب الدعاء . وصرخ الأب :

- ساعدوني ، لقد خرب بيتي .

ذهب أحدهم لإحضار السيد قلي صارف الجن ، وذهب آخر لإحضار " ميرزا ولي " كاتب الدعاء . وأسرعت عجوز إلى منزلها ، وأحضرت إطارا قديما كتب في داخله بخط متشابك " بسم الله " لتصرف بها الجن ، وأخذ رجلان الإطار قائلين " بسم الله " ، وشرعا يبحثان في كل أركان المنزل ، وفجأة نظرا فوجدا حجرا كبيرا ملطخا بالدم وسط المطبخ ، فحملاه بخوف وذهبا به إلى الفناء . وعندما رآه الأب ، عاد إلى الصراخ قائلا :

- واحسرتاه .. واحسرتاه .. لماذا الحجر هناك ؟ من وضعه هناك ؟

العفاريات ؟ لقد وقعوا في ... يريدون أذائي .. أي ذنب اقترفت ؟

استمعت اولدوز وياشار إلى كل ما دار من أحاديث من حيث وقفا تحت السور وأخذا يضحكان ، ثم دخلا الغرفة بسرعة حتى لا يراهم من على السطح . وقال ياشار :

- الآن سوف تحضر زوجة أيك فانظري أي مصيبة ستحل بها ، سينقلب العرس الذي كانت فيه سما بالنسبة لها .

وضحكا بصوت عال من كل قلبيهما ، وأسرع ياشار ، فوضع يده على

فم اولدوز حتى لا يسمع أحد صوتها .

وأخبر أحدهم زوجة الأب ، فأسرعت إلى المنزل ، وعندما رأت منظر زوجها ، أغشي عليها وسقطت وسط الفناء ، فحملتها النساء إلى منزل الجيران الأيمن . وقالت العجوز :

- لابد أن تحضروا صارف الجن وكاتب الدعاء أولا ليصرفوا الجن ، حتى تستطيع المرأة الحامل العودة إلى البيت .

وبعد نصف ساعة ، وصل صارف الجن وكاتب الدعاء . ووضع صارف الجن طستا مقلوبا أمامه ، وقرأ عليه كلاما عجيبا غريبا ، ثم طلب مرآة فخرجت أصوات عجيبه وغريبة من الرجل ومن تحت الطست ، وفي النهاية قال :

- يا من أنتم أفضل منا ، أستحلفكم بملككم ، إبتعدوا عن بيت هذا الرجل المسلم ، ولا تؤذوه !!

ثم أخذ يحملق في المرأة ويتصنت ، ثم قال لوالد اولدوز :

- اليوم لم يستفتحوا ، أعطهم خمسين توماننا ليذهبوا إلى حالهم .

ساومه والد اولدوز ، وفي النهاية دفع ثلاثين توماننا ، فأخذها صارف الجن ، وحمل الطست وخرج وهو يكرر : - يامن أنتم أفضل منا ، إبتعدوا عن منزل هذا الرجل

المسلم ولا تؤذوه ... بحق سلطان الجن عليكم ..

ويعد قليل نهض ضاحكا وقال للأب :

-من حسن حظك أنهم ابتعدوا وانصرفوا سريعا ، ولن يعودوا ثانية بشرط أن ترضيني .

عند ذلك تنهد الأب ، وأعطى لصارف الجن ثلاثين توماناً أخرى وصرفه . ثم جاء دور كاتب الدعاء ، فكتب أشياء بخط معوج بمداد أسود وبرتقالي ، ثم أخفى الورقة في زاوية من زوايا البيت ، وأخذ عشرين توماناً وذهب .

وأحضروا زوجة الأب . ولم يعلم أحد متى إنصرف الشرطي . حل الليل ، وأخذت أم ياشار أولدوز إلى منزلها ، ومن شدة خوف الأب وزوجته ، لم يفكرا في أولدوز طوال ذلك الوقت .

ثلج ويرد وعطلة وانتظار :

جاء الخريف ومعه الثلج والبرد ، وبعده حل الشتاء ، وازداد الثلج والبرد إلى حد كبير ، وجاء العم يبحث عن كلبه ، فلم بما حدث ، فتشاجر مع الأب بسبب ما حدث لكلبه ، ثم عاد غاضباً خالي الوفاض .

ظلت زوجة الأب خائفة ، وملأت باب المطبخ والحائط بالأدعية المطبوعة والمكتوبة باليد ، ومن شدة خوفها فلم تكن تخرج بمفردها ليلاً ، فكانت تأخذ " أولدوز " لترافقها في الطريق ، أما " أولدوز " فلم يعرف الخوف طريقاً إلى قلبها ، فكانت تخرج بمفردها وهي سعيدة في قرارة نفسها على ما أصاب زوجة أبيها . وكانت " أولدوز " قد أخفت ريش الغراب في صندوق المذياع . ولم تكن ترى " ياشار " وكان " ياشار " قد دفن جثة الغراب في مكان خفي ، وانتظم في ذهابه إلى المدرسة ، واستذكر دروسه .

وأحياناً كان يضيع منه قلمه الرصاص فتشاجر معه أمه الغاضبة

التي كانت تقول له :- أنت لا تفكر كيف أن أباك يتعب في إحضار النقود لتشتري بها الأقلام.

وكانت معالم التقدم في الحمل تزداد وضوحاً على زوجة الأب ، وقد قالت لها جارتها : - باقي لك أسبوع أو إثنان وتلدن . فكانت ترد عليهم : - من المحتمل أن يكون قبل ذلك .

فقالت جاراتها : - إن شاء الله سيعيش هذه المرة . فردت زوجة الأب : - إن شاء الله سأنذر نذراً ، ومن المؤكد أنه سيعيش .

كان أبو " يشار " عاطلاً في أغلب الأحيان يذهب للعمل مع الفعلة ، وكان ثلج الشتاء يتساقط بشدة ، فإذا إستيقظت مبكراً ونظرت إلى الخارج وجدت الثلج قد غطى النوافذ حتى نصفها ، حتى إن العصافير كانت تتجمد من شدة البرودة ، فتساقط مثل أوراق الشجر في الخريف .

وذات صباح رأى الأب غرابين على حافة السطح فأحضر هراوة وصعد إليهما وضربهما ، فأسقطهما ، ووجدتهما متجمدين من شدة البرودة ، وحزنت " أولدوز " حزناً شديداً . وبعد عدة أيام عرف " يشار " الخبر من أمه ، فقال لنفسه : - لعلهما كانا يسألان عن الغراب الصغير ، مسكينان !

وكانت أم " يشار " تأتي كل صباح لتساعد زوجة أبي " أولدوز " وتغسل لها الأواني ، وتنظف لها المنزل ، ثم تعود إلى منزلها ظهراً ، فكانت خادمة باليوم ، وكانت " أولدوز " تحبها فهي امرأة طيبة . وأحياناً كانت زوجة الأب تذهب وتتركها ، فتنتهز " أولدوز " الفرصة

وتتحدث معها ، وتسألها عن أحوال " ياشار " وتحملها السلام له ، وأيضاً كانت الجارات الأخريات يترددن على البيت ، ولكن " أولدوز " كانت تحب أم " ياشار " أكثر من الجميع ، ورغم ذلك لم تحدثها عن أسرارها ، بل كانت تنتظر الغريان بمفردها ، وهى على يقين أنهم سيأتون يوماً .

ظل الأب منتظماً فى الذهاب إلى عمله والعودة إلى المنزل ، وذات ليلة قال لزوجته : - أنا فى أشد الشوق إلى الطفل ، فإذا عاش هذه المرة فسأرسل " أولدوز " الى مكان آخر حتى تستريحى ، أما إذا توفى فلن أستطيع إبعاد " أولدوز " عنى .

وكانت زوجة الأب متفائلة هذه المرة بأن الطفل سيأتى إلى الدنيا حياً ، لأنها نذرت نذراً كبيراً ، أما " أولدوز " فكانت تغار من هذا الطفل الذى لم يولد بعد وتتمنى من كل قلبها أن يولد ميتاً !!

النذور لا تمنع قدرا

ذكرى من أم الغراب :

أخيراً وضعت زوجة الأب وليدها ، وكان طفلاً حياً ، فوفوا بالنذر ، وكتبوا أدعية وأحجية كثيرة ، ونحرو الذبائح إتياءاً للحسد ، وأشعلوا الشموع ، وأحضروا المنشد لينشد لهم روضة " على الأصغر " ، وأضافوا نذورا كثيرة من أجل ألا يموت الوليد ، ولكن فى نهاية الأسبوع الأول أوشك الطفل على الهلاك ، وعندما حضر الطبيب قال :

- إن الطفل لم يكتمل فى بطن أمه ، ولذا من الصعب أن يعيش الطفل وأنه لا يستطيع عمل شئ من أجله . ومات الطفل فى اليوم التالى .

مرضت زوجة الأب من الهم والغم ، وكانت تردد ليلاً ونهاراً : - لقد خنق العفاريث طفلى ، انهم حتى الآن لم ينصرفوا من عندنا ، فلتعم عين الحسود التى حسدته فقتلته !!

وكانت أم " ياشار " لا تفارق زوجة الأب طوال النهار ، وتظل جالسة بجوارها ، وأحياناً كان " ياشار " يأتى ليتناول الغداء عند أمه فيتحدث قليلاً مع " أولدوز " ، ولكنه لم يكن يعرف أى شئ عن الغريان ، وأحياناً كان يلوح غراباً يطير بمفرده فى السماء ، وأحياناً أخرى كان يسمع نقيق غراب ، إلا أنه سرعان ما كان يصمت . أما أشجار الحور الأبيض فقد نفضت كل أوراقها ویدت عارية ، فتذكرت " أولدوز " أم الغراب ، وكيف كانت تجلس على الأغصان الرقيقة وتنطق وتهتز ، وكيف كانت تطير وتذهب !!

ويمضى الشتاء ببرده القارس :

كان الشتاء يمضى قارساً بصعوبة شديدة البرودة ، فيتكدس الثلج سريعاً فى وسط الفناء بارتفاع الأسوار . ويندر وجود الفحم والكيروسين ، وترتفع الأسعار إلى ثلاثة أضعاف . وكان أبو " ياشار " دائماً عاطلاً ، وأمّه تنتقل من بيت إلى آخر لى تعمل وتغسل الملابس ، وأحياناً كانت تحمل أخباراً لاتصدق ، فمثلاً كانت تقول أن هناك عائلة فقيرة تجمدت بالأمس من شدة البرد . وذات يوم جاءت باكية

وقالت لزوجة الأب : - ابنتى تجمدت من شدة البرد أسفل الكرسي " المدفأة الإيرانية " وماتت.

وحزن " ياشار " على أخته حزناً شديداً ، وكاد إحساسه بموتها أن يذهب بعقله ، فكان يبكى أمام " أولدوز " ويقول : - لم يبق إلا القليل وأتجمد أنا أيضاً من شدة البرد لأن كرسينا بارد فى أغلب الأحيان لعدم وجود الفحم .

فتمسح " أولدوز " دموعه وقالت : - لا تبك وإلا بكيت أنا أيضاً وذات مرة سكت " ياشار " ثم قال : - لقد قال أبى لأمى هذا الصباح : فى هذه المخروبة ما من أحد يقول : لماذا يبقى أناس بدون فحم !! قالت " أولدوز " : - هل أبوك يعمل ؟ قال " ياشار " : - لا ، إنه دائماً جالس بالبيت يفكر ، وأحياناً يذهب لكسح الثلوج .

قالت " أولدوز " : - لماذا لا يذهب ويبحث عن عمل ؟ قال " ياشار " : - دائماً يقول إنه لا يوجد عمل . قالت " أولدوز " : - لماذا لا يوجد عمل ؟. فلم يجب " ياشار " .

رائحة الريح :

قلت الثلوج ، وأعلن الريح عن مجيئه ، فجرت المياه ، وتنفست الخضرة ، وفتحت الزهور ، وذهب الشتاء بقسوته ، بعد أن أزهق الكثير من الأرواح ، وعاش بقية الناس بصعوبة بالغة . حزمت أم " ياشار " كرسيها البارد الخالى ، وفتحت النافذة ، وذهب أبو " ياشار " مع عشرة أو عشرين شخصاً إلى طهران ليعمل فى

قمائن الطوب . وبقى " ياشار " وأمه فى البيت بمفردهما مثل السنوات الماضية .

وأخيرا تحسنت صحة زوجة الأب التى لم تكن تحب أن ترى " أولدوز " ، فكانت " أولدوز " تقضى أغلب وقتها فى بيت " ياشار " . ولم تحاول زوجة الأب أن تمنعها وكان أبو " أولدوز " يتظاهر بالعطف عليها ، لكنها كانت تستاء منه أيضا ، وكان الأب يقول لها : - هذا العام سوف أرسلك إلى المدرسة .

من يعرف لغة الغريان :

حل شهر " خرداد " مايو ويونيه " ، وانشغل " ياشار " بامتحانات نهاية العام . وقال لـ " أولدوز " فى ذلك اليوم : - بالأمس رأيت غرابين يحومان حول المدرسة .

فقفزت " أولدوز " من مكانها وقالت : - حقا ، وماذا بعد ذلك ؟ قال " ياشار " : - بعد ذلك ذهبت إلى المدرسة سريعا كى أودى اختبار مادة الحساب ، وعندما خرجت لم أجدهما .

جلست " أولدوز " فى مكانها بهدوء ، وقال لها " ياشار " : - لانتحزنى ، إذا كان الغرابان من أصدقائنا فإنهما سيعودان .

قالت " أولدوز " : - أتحدثت معهما ؟

قال " ياشار " : - لم أجد فرصة ، ثم إننى لا أعرف لغة الغريان .

قالت " أولدوز " : - بل تعرف .

قال " ياشار " : - من أين تعرفين .؟

قال " أولدوز " : - لإنك عطوف ، وقلبك صاف ، كما أنك لست

أنانياً ، ولست كزوجة أبي .

قال " ياشار " : - أين تعلمتِ هذا ؟

قالت " أولدوز " : - كل الأطفال الطيبين يعرفون لغة الغريان ، هذا ما قالته أم الغراب ، ولم أختلقه من نفسى .

سُر " ياشار " من هذا الخبر ، ومن شدة سعادته أمسك بيد " أولدوز " وضغط عليها وقال : - لا أعرف لماذا لم أستطع الحديث مع الغراب فى هذا اليوم ، ولا أتذكر كيف حدث ذلك ؟ !

عودة الغريان :

مضى يومان أو ثلاثة ، وأصبح الصيف أكثر اقتراباً ، فازدادت حرارة الجو ، لذلك كان الكبار يحبون النوم ظهراً خاصة بعد تناول الغداء ويجبرون الأطفال أيضاً على النوم .

وذات يوم كان " ياشار " عائداً إلى منزله بعد أن أنهى اليوم الأخير من الإمتحانات وأثناء سيره فى طريق العودة إلى المنزل سمع " ياشار " صوتاً يصيح باسمه من خلف شجرة التوت الموجودة أمام المسجد القريب من المدرسة . وكان الوقت ظهراً ، تلفت " ياشار " حوله فلم يجد أحداً ، فقد كان الشارع خالياً . وعندما هم باستئناف السير سمع مرة أخرى ذات الصوت يصيح من خلفه : " ياشار " .

فعاد " ياشار " الى الخلف يبحث عمن يناديه ، فوقع نظره على غرابين يحطان فوق شجرة التوت ويبتسمان . إهتز قلب " ياشار " وأخذ يدق بسرعة وقال : - أيها الغرابان ، كيف تعرفتما على ؟ قال أحدهما بصوت رقيق : - يا سيد " ياشار " ، ألسنت صديق " أولدوز " ؟

قال " ياشار " : - بلى ، لماذا تسأل ؟

قال الغراب الآخر بصوت أجش : - حقيقة إن أمانا لم ترك ، ولكن " أولدوز " كانت قد وصفتك لها ، ولذلك أخذنا وقتا طويلا فى البحث عنك فى المدرسة لكى نجدك ، ولأننا فى البداية لم نكن نرغب فى رؤية " أولدوز " لأن جدتنا كانت قد أوصتنا بذلك ، فكيف حالها ؟

قال " ياشار " : - إنها تخشى أن تكونا قد نسيتموها يا سيدى الغراب .

قال الغراب ذو الصوت الأجش : - فلتسمح لنا أن نقدم لك أنفسنا ، أنا أخو الغراب الذى كان لديكما ومات ، وهذه أختى الأنسة غرابة . قالت الأنسة غرابة : - كان لدينا أخ آخر تجمد من شدة البرد ومات ، وكذلك مات أبونا حزنا على أمانا .

قال " ياشار " : - البقية فى حياتكما .

قال الغرابان : - نشكرك .

فكر " ياشار " وقال : - ليس من المناسب أن نتحدث هنا فتعاليا معى إلى المنزل فلا يوجد هناك أحد .

قبل الغرابان الدعوة ، ثم حلقا فوق رأسه وهوى سير فى طريقه ولا يستطيع أحد أن يصف حال " ياشار " ، فكم كان فخورا بنفسه ، كان ينظر للسماء ، وأحيانا ينظر إلى الغرابين ، ويبتسم ، ثم يواصل السير مرة أخرى ، وفى النهاية وصلوا إلى البيت . وأحضر " ياشار " المفتاح من الجيران لأن أمه لم تكن قد حضرت إلى البيت ظهرا . دخل " ياشار " وهبط الغرابان وجلسا على الدرج ، فقال لهما " ياشار " : - ألا ترغبان فى رؤية " أولدوز " ؟

فى نفس اللحظة تصاعد صوت بكاء " أولدوز " من الناحية المقابلة للحائط ، فصمت ثلاثتهم ، وبعد لحظة قالت الأنسة غرابة : - لا يمكن أن نرى " أولدوز " فلا تتعجل .

وقال السيد غراب : - نعم ، فلنذهب إلى مدينة الغريان ونخبرهم ثم نعود بعد ذلك لنراها ، سنعود فى نفس اليوم ، هلا بلغت " أولدوز " سلامنا !!

عندما أصبح " ياشار " بمفرده ، صعد إلى السطح متوقعا حدوث شئ ما ، ولم تخرج " أولدوز " إلى الفناء ، فنزل من أعلى السطح ، وتناول الغداء المكون من الخبز والجبن الذى تركته له أمه ، ثم صعد مرة أخرى . وكان الجو شديد الحرارة فخلع قميصه وتقدم على ظهره حتى يستطيع التأمل فى السماء ، ووجد لها صافية زرقاء بها عدة طيور وكأنها تنزلق لا تطير .

إتفاق الفرار

الفرار من أجل العودة :

كانت المائدة معدة لطعام الغداء ، وقد أجلس الأب " أولدوز " وعيناها دامعتان - إلى جانبه ، ومع ذلك استمرت تبكى بحرقة ، فقالت لها زوجة الأب : - تشهى علكة ، فهيات مقدماتها ، كفاك لقد أحدثت جلبة .

قال الأب : - ابنتى العزيزة ، كنت طفلة مطيعة ، ماذا تريدين ؟
لم تقل " أولدوز " شيئاً ، وأخذت تبكى بحرقة ، فقالت زوجة الأب : -

تقول أنها ستموت كمدا من الوحدة ولا بد أن تتركها تذهب وتلعب مع " يشار " .

وأسرعت " أولدوز " بالقول : - نعم ، أريد رفيقا للعب وأنا أتضايق من الوحدة .

ويعد أن دار حديث قصير بينهم قرر الأب أن تذهب " أولدوز " إلى " يشار " فى بعض الأحيان على أن تعود بسرعة ، ففرحت " أولدوز " بذلك فرحا شديدا ، وذهب الأب وزوجته للنوم بعد تناول الغداء ، ولكن " أولدوز " صعدت إلى السطح وركزت كل تفكيرها فى لقاء الغريبان والجلوس على السطح . وفجأة وضعت عينيها على " يشار " وكان نائما باستمئاع ، وكانت الشمس ساطعة شديدة الحرارة ، ذهبت " أولدوز " وجلست بالقرب من رأس " يشار " وأخذت تمسح بيدها على شعره ، ففتح " يشار " عينيه وضحك ، وضحكت " أولدوز " أيضا ، فاعتدل " يشار " جالسا وارتنى قميصه وقال : - أتعرفين يا " أولدوز " أى حلم رأيت ؟

قالت " أولدوز " : - لا .

فقال " يشار " : - رأيت فى الحلم أن كلا منا يمسك بيد الآخر وقد جلسنا فوق السحاب ، ونحن ذاهبان لعرس الأنسة غرابه ، وياقئ الغريبان تطير وراءنا .

أحمر وجه " أولدوز " ثم سألت : من هي الأنسة غرابه ؟

قال " يشار " : - ألم أخبرك !!

قالت " أولدوز " : - لا

قال " يشار " : - رأيت الغريبان وتحدثت معهم .

قالت " أولدوز " : - متى ؟

قال " ياشار " : - أثناء عودتي من المدرسة قابلت أخت الغراب وأخته
واتفقنا على أنهما سيأتيان .

قالت " أولدوز " : - هل الأنسة غرابه هي أخت الغراب الصغير نفسه ؟
قال " ياشار " : نعم

قالت " أولدوز " : ما أخبار الغراب الأب ؟

قال " ياشار " : - يقولون أنه مات حزنا على زوجته .

أثناء الحديث ظهر الغرابان من وراء الأشجار ، واستمرا في التحديق
حتى وصلا إلى السطح ، ثم حطا على الأرض ، وسلما على " أولدوز "
و " ياشار " فحملت " أولدوز " أحدهما وقبلته ووضعتة في حجرها
وتعرفت عليه وسألته عن أحواله ، قال السيد غراب : - " أولدوز " إن
جميع الغربان يقولون أنه لابد أن تأتي إلينا .

قالت " أولدوز " : - معنى ذلك أن أهرب من البيت ؟

قال الغراب : - نعم لابد أن تهربي وتأتي عندنا ، فإن جلوسك هنا
معناه موتك حزنا ، فنحن نعلم أن زوجة أبيك تؤذيك أذى شديدا .

قالت " أولدوز " : - كيف أستطيع أن أهرب ؟ إن أبى وزوجته لن
يسمحا بذلك ، حتى عمى لم يأت إلى منزلنا منذ أن قتل كلبه ؟

قالت الأنسة غرابه : - إذا أردت الحضور فالغريان سيرشدونك إلى
الهروب .

وحتى تلك اللحظة لم يكن " ياشار " قد اشترك في الحديث ، ولكنه
قاطعهما ، وقال : - معنى ذلك أن تذهب " أولدوز " ولا تعود ؟

قالت الأنسة غرابه : - هذا حسب رغبتها هي ، فيم تفكر يا " ياشار " ؟

قال " ياشار " : - إننى أوافقك الرأى على إنها إذا بقيت هنا ستنتهى ولن تستطيع عمل شئ ، أما إذا ذهبت الى مدينة الغريان ... فلا أدري كيف سيكون حالها .

قال الغراب : - سنأتى غدا لمواصلة الحديث ، وأيضا تكون " أولدوز " قد فكرت إلى الغد

ذهب الغرابان ، وسألت " أولدوز " : - هل تعتقد أنه يجب على أن أذهب ؟

قال " ياشار " : - نعم ، إذهبي ، ولكن عودى مرة أخرى ، أتعديني بأن تعودى ؟

قالت " أولدوز " : - أعدك يا " ياشار " ؟

الجدة وحديث عن الهرب وأسلوكة :

ظهر اليوم حضر الغرابان ويصحبتهما غراب عجوز قدمته الأنسة غرابه بقولها : - هذه هي الجدة .

تحركت الجدة حتى صارت إلى جوار " ياشار " و " أولدوز " ، ثم جلست فى مواجهتهما ، وقالت : - جميع الغريان سعداء لعثورنا عليكما ، فقد أثنت عليكما ابنتى كثيرا .

قالت " أولدوز " : - هل كانت أم الغراب ابنتك ؟

قالت الجدة : - نعم ، كانت ممتازة !!

تنهدت " أولدوز " وهى تقول : - لقد قُلت من أجلى .

قالت الجدة : - عدد الغريان ليس واحدا أو اثنين ، ولن ينقرضوا بالموت أو القتل ، فعندما يموت واحد منهم يأتى للدنيا إثنان .

قال " ياشار " : - " أولدوز " ترغب فى الذهاب إليكم .
قالت الجدة : - حسنا جداً ، إذن لابد أن نبدأ العمل .
قالت " أولدوز " : - هل يمكننى العودة فى أى وقت أريد ؟
قالت الجدة : - بالطبع لابد أن تعودى ، فنحن الغريان لا نحب
الشخص الذى يترك بيته وحياته وأصدقائه ويهرب لكى يعيش فى
راحة بدون معرفة أى شئ عن الآخرين .
قالت " أولدوز " : - كيف سأتى إليكم ؟
قالت الجدة : - أولاً وقبل كل شئ لابد من وجود شبكة متينة ، لذلك
لابد أن تنسجىها .
قالت " أولدوز " : - شبكة !! فى أى شئ ستفيدنا ؟
قالت الجدة : - الفائدة الأولى لها أن يعرف الغريان أنك لست
كسولة وأنتك تعملين وتتحملين المشاق من أجل سعادتك ، والفائدة
الثانية أنك ستجلسين عليها وتحملك الغريان وتطيربك إلى مدينتنا .
وفى خلال الحديث تدخل " ياشار " قائلاً : - أنصتى لى أيتها الجدة ،
من أين نحضر الخيط والصوف ؟
قالت الجدة : - نحن الغريان على استعداد دائم لمساعدة الأشخاص
الطيبين ، سنحضر نحن الصوف ، أما أنتما فاعزلاه وانسجى الشبكة .
وعلى السطح كان يوجد عدة أحجار كبيرة جمعتها زوجة الأب بعيدا
عن جرة الخل ، فقالت الجدة : - سنجمع الصوف ونضعه وسط هذه
الأحجار .
تحدثوا قليلا عن موضوعات متعددة ثم ذهب الغريان .

قالت " أولدوز " : - " ياشار " ، أنا لا أعرف كيف أنسج الخيط والشبكة . قال " ياشار " : - أنا أعرف ، فقد تعلمت من أبي .

الغريبان يحاولون

الأطفال يجتهدون

العمل يتقدم :

كانت مدرسة " ياشار " فى عطلة ، وكانت اللغة الفارسية عنده قد تحسنت ، وأصبح يستطيع أن يقرأ خطابات أبيه ، ثم يشرح معناها لأمه ، وأيضا كان يستطيع قراءة الكتب . وكانت أم " ياشار " لا تزال تذهب لغسل الملابس ، وأبوه يعمل فى قمائن الطوب بطهران . وكانت الغريبان تتردد كثيرا على بيتهم ، وكثيرا ما كانت تلحظهم زوجة الأب حين تنظر للسماء ، فيسيطر الخوف عليها من كثرتهم . أما " أولدوز " فكانت تحتفظ بوجهها خاليا من أى تعبير . وكثيرا ما كانت زوجة الأب تتضايق من هذا فتقول أمامها : - لا ينبغى أن يكون للمرء علاقة مع الغريبان . ولكن مظهر " أولدوز " الهادئ البريء لم يكن يدل على ذلك .

تقدم العمل فى غزل الخيط فى بيت " ياشار " ، وتوفرت له الخبرة ، وأخذ يغزل بالمغزل مثل الكبار ، بينما أخذت " أولدوز " تفتل الخيوط بيدها ، وأيضا كانت تعد الخيوط الغليظة . وكان فى الفناء عش صغير ظل خاليا . فأخفيا فيه الحبال .

وفى بعض الأحيان كانت الجدة تأتى لتسأل عما وصل إليه العمل .

فكان " ياشار " يعرض عليها الخيوط المغزولة فتضحك وتقول : -
حسنا ، أنتما طفلان ممتازان لا تجعلا أحدا يعرف ، وأخفيا عملكما ،
وافتحا عيونكما وآذانكما .

قال " ياشار " و " أولدوز " : - لا تخافى أيتها الجدة ، حقا إننا صغار
السن ولكن عقولنا كبيرة ، ونستطيع أن ندرك أنه لا يجب على
الإنسان أن يظهر كل عمل من أعماله ولكن عليه أن يظهر بعض
الأعمال ويخفى بعضها .

أخذت الجدة تمسح منقارها المعوج بالتراب وقالت : - أنا سعيدة
بكما ، لأنه هناك فرقا كبيرا بينكما وبين آبائكما وأمهاتكما . عفارم !
عفارم ! أنتما الآن طفلان ولم تنضجا بعد ، ويجب أن تتعلما أشياء
كثيرة وسيكون تفكيركما أفضل من ذلك .

وأحيانا كانت الأنسة غريبة تأتي مع أخيها ، ويجلسان فى
مواجهتهما ويتحدثان معهما عن مدينتهما ، عن أشجار الحور
الأبيض ، عن السحاب والرياح والجبال ، وأخذا يثنيان على الوادى
والصحراء والبركة ، وقد تعرف " ياشار " و " أولدوز " على خمسين أو
ستين غرابا آخرين . وقالت الأنسة غريبة : إن مدينة الغريان يعيش
فيها أكثر من مليون غراب ، ولقد بعث هذا الحديث السرور فى
وجدان الطفلين ، فكم هو جميل أن يعيش مليون غراب فى مكان
واحد دون أن تكون هناك مشاجرات بينهم .

رفيق سفر " أولدوز " :

ذات يوم كان " ياشار " و " أولدوز " يغزلان ، فرفعت " أولدوز "

رأسها فرأت "ياشار" ينظر إليها وهو ساكن لا يتحرك ، فقالت : -
لماذا تحملق فيّ هكذا يا "ياشار" ؟ ماذا هناك ؟

قال "ياشار" : كنت أفكر.

قالت "أولدوز" : - فيم تفكر؟

قال "ياشار" : آه ، يعنى على هذا النحو.

قالت "أولدوز" : - لابد أن تخبرنى .

قال "ياشار" : - حسنا ، سأقول لك ، إنى أفكر فى أنك عندما
ترحلين ستقتلنى الوحدة .

قالت "أولدوز" : - كنت أفكر أنا أيضا فى ذلك بالأمس ، ليتنا
نسافر معا ، فالسفر بمفردى لن يكون مسليا .

قال "ياشار" : - هل ترغبين فى أن أرافك ؟

قالت "أولدوز" : - أريد ذلك من كل قلبى ، ولابد أن نقول ذلك
للجدة .

قال "ياشار" : - سأخبرها بنفسى .

فى اليوم التالى جاءت الجدة فقال لها "ياشار" : - أيتها الجدة ، هل
أستطيع مرافقة "أولدوز" فى المجيء إليك ؟

قالت الجدة : - تستطيع بالطبع ، ولكن ألن تتألم لفراق أمك ؟ إنها
سيدة طيبة ولا ينبغى أن تتركها وتهرب !

قال "ياشار" : - لقد فكرت فى ذلك ، وسأخبرها قبل سفرى بيوم .

قالت الجدة : - إذا وافقتك أمك فليس هناك مشكلة ، سنحملك
أنت الآخر .

زاد هذا الكلام من حماس "ياشار" و"أولدوز" وأقبلا على العمل بجد
وسرعة .

سارقو السمك ، سارقو الصوف :

لا أثر للأدعية :

نجح " ياشار " فى الامتحان ، وفى اليوم التالى الذى أحضر فيه شهادته إلى البيت ، كتب رسالة إلى أبيه ، وكان يقضى معظم الوقت مع " أولدوز " ، وكان هذا يوافق زوجة الأب التى تريد إبعاد " أولدوز " عنها ، لذلك لم تكن تضايقهما كثيرا ، وعلى كل كانت دائماً قلقة من الغريان ، فكثير من الغريان تأتى وتذهب ، وهذا ماجعلها قلقة دائماً ، وخائفة من أن تحل البلايا على رأسها فى النهاية . والأب أيضاً لم يكن مرتاحاً لهذه الظاهرة خاصة بعد ما ذهب إلى حوض السمك فلم يجد فيه شيئاً ، وكانت الأنسة غرابة وأخوها قد أخذاً سمكتين لهما وواحدة للجدة والباقى للغريان الآخرين ، لذلك عندما كان الأب وزوجته يريان غراباً فى أى مكان ، كانا يسباناه بأقبح الألفاظ ويقدفانه بالحجارة .

وذات يوم اشترى الأب زيبياً ، وأعطاه لزوجته لكى تصنع منه خلا ، وحملت زوجة الأب الجرة إلى السطح ، وثبتتها بالحجارة ، وفجأة عثرت على مقدار كبير من الصوف بين الأحجار ، فأحضرت له لزوجها وقالت : - أنظر ! إن الجن كان يهزأ بنا ، حتى الآن لم يرفعوا أيديهم عنا ، من الذى جمع هذه الأشياء ووضعها وسط الأحجار ؟ قال الأب : - لابد أن أمنعهم .

قالت زوجة الأب : - غدا أذهب لكاتب الدعاء لأخذ منه دعاء قويا يخيف الجن ويجعلهم يفرون .

وفى اليوم التالى قابلت " أولدوز " " ياشار " وقصت عليه ما حدث فضحك وقال : - لابد أن نسرقه وإلا تعطل عملنا لعدة أيام ، وسرقت " أولدوز " الصوف وأحضرتة ، فوضعا في كوخ الكلب الخالي ، ونظر ياشار إلى الصوف فوجد أنه كاف ، فأخبرا الغريبان بألا يحضروا صوفا آخر. ذهبت زوجة الأب إلى كاتب الدعاء وأحضرت دعاء ذا تأثير قوى ، ولكنها عندما رأت أن الصوف قد اختفى زاد اضطرابها أكثر من ذي قبل .

" ياشار " يحصل على موافقة أمه

قصة الكلب الذى يفهم معنى الكلام :

بدأ الطفلان منذ ذلك اليوم فى نسج الشبكة ، ففى البداية قاما بإصلاح الحبال الغليظة ، ثم بعد ذلك عقدا بعضها ببعض . كان لدى أم " ياشار " حبل غسيل من السلك ، وكان " ياشار " يريد أن يأخذه من أمه ويضعه على الحبال حتى تصبح الشبكة أكثر متانة وقوة .

وذات ليلة ، قال " ياشار " لأمه وهما يتناولان طعام العشاء : - أمى ! إذا سافرت لعدة أيام هل تحزنين ؟ اعتقدت أم " ياشار " أنه يمزح .

فعاود " ياشار " سؤاله : - أمى ! هل تسمحين لى بالسفر لعدة أيام ؟ وأعدك أن أعود بسرعة .

قالت أمه : - قل لى أولا من أين ستحضر نقودا للسفر ؟

قال " ياشار " : - لست فى حاجة إلى النقود .

قالت أمه : - حسنا ، مع من ستذهب ؟

قال " ياشار " : - لا أستطيع أن أقول لك الآن ، ولكن ستعرفين وقت السفر .

قالت الأم : - حسنا ، إلى أين ستسافر ؟

قال " ياشار " : - سأخبرك عن هذا أيضا وقت السفر .

قالت أمه : - وأنا أيضا سأسمح لك وقت السفر .

أعتقدت الأم أن " ياشار " يمزح معها ويريد أن يتحدث عن مثل هذه الأشياء الكبيرة جدا التى أصبحت توافق سنه ، لأنه منذ عدة سنوات عندما كان صغيرا فى الصف الأول الابتدائى كان يتحدث بمثل هذه الأحاديث العظيمة بكثرة ، فكان يجلس على وسادة ويقول : - أريد أن أذهب إلى السماء وأقطف عدة نجوم صغيرة وأحضرها وأعمل منها أزارا لسترتى .

ولم يكن " ياشار " وقتها يعلم أن كل واحدة من هذه النجوم هي أكبر منه بمئات الملايين من المرات ، وأن بعضها أكثر حرارة آلاف المرات من نار كرسى التدفئة .

كذلك عندما عاد فى يوم من الأيام إلى المنزل وقت الغداء ، وقد سحب وراءه كلبا شريدا ، سأله أبوه وأمّه : - يا ولد ، لماذا أحضرت هذا الحيوان القذر إلى البيت ؟

فأجاب " ياشار " متعاليا : - لا تقولي هذا ، إنه يعرف الكلام ، لقد تعبت كثيرا حتى علمته الكلام ، كما إنه مطيع ، فإذا طلبت منه شيئا يفعل فوراً .

ضحك الأب وقال : - إذا كنت تقول الصدق ، فخذ هذه النقود
واطلب منه أن يذهب ويشتري رغيفين من الخبز ويحضرهما .

فأجاب " ياشار " : - لا بد أن يأكل أولا ، وبعد ذلك ... !

فوضعت الأم قطعة من الخبز اليابس أمام الكلب فأكلها وأخذ يهز
ذيله ، فهز " ياشار " رأسه وقال : - إفهم ما تقول يا رفيقى .

قال الأب : - حسنا ، ماذا يقول يا " ياشار " ؟

قال " ياشار " : - يقول ، عزيزى " ياشار " : هناك شئ ملتصق بين
أسناني ، أرجوك أن تفتح فمى وتخرجه !

دهش الأب والأم و " ياشار " يفتح فم الكلب بهدوء ويدخل يده بداخله
حتى ينظف ما بين أسنان الكلب ، وفجأة عوى الكلب وحرك أرجله
بشدة ، وصرخ " ياشار " بألم ، فضرب الأب الكلب وألقى به خارجا
لأن يد " ياشار " جرحت فى عدة أماكن ، وظل " ياشار " يتأوه لفترة .

قال " ياشار " لأمه فى ذلك اليوم : - وقت الذهاب حتما ستأذنين لى
أليس كذلك ؟

قالت الأم : - نعم

قال " ياشار " : - أمى ! أتعطيننى حبل الغسيل السلك ؟

قالت الأم : - فى أى شئ تريده ؟ أى خدعة لديك يا ابنى العزيز ؟

قال " ياشار " : - ليس لدى خدعة ولا يحزنون ، وإنما أحتاجه لسفرى .

ظلت الأم فى حيرة ، فهى لا تعلم قصد إبنها ، وفى النهاية وافقت
على أن تعطيه الحبل ، وعندما حل وقت النوم قال " ياشار " : - أمى ؟

فأجابت الأم : نعم ! ... ماذا تريد ؟

قال " ياشار " : - أتعاهديننى ألا تذكرى هذا الحديث لأحد ؟

قالت الأم : - اهدأ بالا ، لن أخبر أحداً ، ألا تعرف أنه لو كان أبوك هنا لضحك على حديثك هذا ؟
سكت " ياشار " ، وخذل إلى النوم فى الفناء بينما كانت مشاهدة النجوم شيئاً مسلياً جداً .

يوم التحرك :

ظل العمل يتقدم بسرعة ، وقد ساعدهم على ذلك عدم حضور أم " ياشار " فى أغلب الأيام ظهراً للبيت ، وكانت الغريان أيضاً قد قللت من زهابها وإيابها إلى المنزل لأن زوجة الأب كانت تراقبهم باهتمام ، لذلك قالت الجدة : من الأفضل أن نقلل من زهابنا إلى المنزل ، وإلا لوفهمت زوجة الأب لفست الأمور .
تم نسج الشبكة فى أواخر شهر يوليو ، وحضرت الجدة ورأتها فأننت على العمل وقالت : - لقد تحملتما مشقة كبيرة ، والآن حان الوقت لتجنيا الفائدة .

قال " ياشار " و " أولدوز " : - متى نتحرك ؟
قالت الجدة : - إذا رغبتما ، فموعدنا غدا ظهراً .
قالت " أولدوز " و " ياشار " : - كلما أسرعنا كان أفضل .
قالت الجدة : - انتظرا ظهر الغد ، فإذا سمعتما غرايين ينعان ثلاث مرات فاحملا الشبكة واصعدا فوق السطح .

كاد قلب الأطفال يتوقف من شدة الفرح ، وأرادا النهوض والرقص ولكن دارت بينهما أحاديث قليلة عن أشياء متفرقة ، وطارت الجدة

وحطت أعلى شجرة الحور الأبيض التى كانت تبعد عن بيتهم بعدة بيوت ، وأخذت تنعق وتنعق ، وتهتز، ثم سكنت وطارت .

هؤلاء الذين لا يعرفوا الخبر ، يقولون :
لقد جُنَّت " أولدوز " ! :

حل الليل ، وأخذت " أولدوز " تضحك أثناء العشاء ، فقالت زوجة الأب : - لقد جُنَّت البنت ، وأخذ الأب يسأل : عم تضحكين يا ابنتى ؟ لى لى شىئا مضحكا !!
قالت " أولدوز " : - أضحك من السعادة ، فاعتاضت زوجة الأب وسأل الأب : - ما سبب هذه السعادة ؟
قالت " أولدوز " : - لا يوجد سبب ولكنى سعيدة وخلص !!
قالت زوجة الأب : - دعك منها ، لقد جنت

أم طيبة ورحيمة :

حان وقت النوم وقال " يشار " لأمه : - هل تستطيعين أن تتواجدى فى البيت غدا عند الظهر ؟
قالت الأم : - هل تحتاج إلى ؟
قال " يشار " : - نعم ، سأخبرك غدا فى الظهر عند سفرى .
قالت أمه : - حسنا سأعود فى الظهر إلى المنزل .
لم تكن الأم تعرف شىئا عما يفعله ابنها ، كما أنها حقيقة كانت قد نسيت موضوع السفر ، لكنها بعد حديث " يشار " تذكرته ، وكانت

مؤمنة بأن " ياشار " ولد ممتاز ولن يفعل شيئاً سيئاً ، ولذا كانت تحبه جدا . وعندما كانت تذهب لغسل الملابس كان دائماً التفكير فيه ، وكانت تفضل أن تجوع لكي تشتري له الملابس والأقلام والأوراق ، إنها أم رحيمة وطيبة لذا فإن " ياشار " لم يكن يخذعها في أمر مهما صغر ، ولم يكن يؤذى شعورها قط .

التحرك ،

" أولدوز " في السجن :

سطح النهار ، ولم يعد باقيا على التحرك إلا ساعات قليلة ، وكان الوقت يمر بطيئاً ، كان " ياشار " وحيدا بالمنزل ، لذلك لم يهدأ ، ولم يستقر مطلقا ، وذهب إلى الفناء وأخذ يتجول هنا وهناك ، وقد إنحصر فكره في " أولدوز " وأمه ، والشبكة أكثر من مرة وفردها في وسط الفناء ، وجلس فوقها ، ثم جمعها ووضعها في مكانها . حضرت أمه وقت الظهيرة ، وقد أحضرت معها عنباً وخبزاً وجبناً ، وجلسا وتناولوا الغداء معا وكان " ياشار " حائراً وقلقا على " أولدوز " ، وكانت الأم تنتظر أن يبدأ ابنها بالكلام ، ولكنه ظل هكذا لا ينطق بكلمة وكان " ياشار " يفكر ... إذا لم تستطع " أولدوز " المجيء فماذا سيحدث ؟ ... قطعاً ستفسد خطتنا ، لو أن زوجة الأب وقعت في يدي فإنني أعرف ماذا سأفعل بها . سأشد شعرها ، الدنسة !! لماذا لم تترك " أولدوز " تأتي إلي ؟ وإذا نعقت الغريان ماذا سأفعل ؟ إلى الآن لم تأت " أولدوز " ، إن قلبي سيقفز من صدري

تعلل " ياشار " بإحضار الماء ، وذهب إلى الفناء ، وسمع صوت الأب وزوجته يأتي من خلف الحائط ، وكانت زوجة الأب تصب الماء والأب يغسل يديه ، فقد حضر لتوه من العمل ، وقالت زوجة الأب : - ألا تعرف ماذا فعلت ابنتك بي ، ... لقد اضطررت فى النهاية إلى حبسها فى المطبخ ...

وفى نفس الوقت كان هناك غرابان يحطان على شجرة الحور الأبيض وعندما رآهما " ياشار " أخذ قلبه يدق ويفكر ، ماذا سيفعل مع " أولدوز " ؟ هل يرسل إليها أمه ؟ ... المصيبة أن تكون زوجة الأب حبستها حقاً !!

طار الغرابان واقتريا من رأس " ياشار " وابتسما له ، وجلسا على شجرة التوت وفجأة شرع الإثنان فى النعيق .

كان صوت الغرابين يشبه نفير الحرب : وكان يصاحب ذلك الصوت خوف وحركة واهتزاز . وأحس " ياشار " بالاضطراب لحظة ، ثم استرد قلبه ، وتوجه ببرود إلى العش حاملاً الشبكة ، وصعد إلى السطح بهدوء ، وبينما كان الأب وزوجته بالداخل. جاء الغرابان ووقفاً بجانب " ياشار " ، وسألاه عن أحواله ، وفرد " ياشار " الشبكة ، ومضت نصف دقيقة ولم تأت " أولدوز " ، وتقدم من الطرف الأيسر . قال أحد الغرابين : - إنهم آتون ... لماذا لم تأت " أولدوز " ؟

قال " ياشار " : - لا أعرف ... ربما تكون زوجة أبيها قد حبستها ؟ وازداد الشيء الأسود اقتراباً ووصل صوت الغريان المخنوق للأسماع ، ولم تأت " أولدوز " أيضاً . ووصلت الغريان ، وملاً نعيق الآلاف منهم السماء والأرض وصار لون الأبواب والحوائط أسود من الغريان ، ولم

يعد ثم مكان خال فوق شجرة التوت.
وكان الناس جميعاً قد خرجوا من بيوتهم وقد سيطر الخوف عليهم
جميعاً.

وقفت أم "ياشار" فى وسط الفناء ، وكانت تضع وعاء فوق رأسها
وأخذت تصيح : أين أنت يا "ياشار" ؟ الآن ستفقأ الغريان
عينيك !..

ولما سمع "ياشار" صوت أمه توجه إلى حافة السطح وقال : -
لاتخافى يا أمى إنهم أصدقائى . إن كنت تحبيننى فأذهبى وأحضرى
" أولدوز " إلى هنا ، أرجوك يا أمى !! اذهبى ... فلا بد أن نسافرن نحن
الإثنان معا

نظرت إليه أمه وهى حائرة ، ولم تقل شيئاً !!! ... وأخذ "ياشار"
يتوسل إليها : اذهبى يا أمى !! ... أرجوك ... الغريان أصدقائنا ...
لاتخافى منهم !!

ولم يدر "ياشار" ماذا يفعل ... وأوشك على البكاء وجاءت الجدة
أمامه وقالت له : - أذهب وأجلس فوق الشبكة ، وسأذهب أنا مع
غريان آخرين للبحث عن " أولدوز " لنراين هى .

وأخرج نعيق الغريان الناس إلى الأفنية . وكان كل واحد منهم يضع
شيئاً على رأسه ، وكانوا ينظرون إلى السماء بذعر شديد ، وبعض
الناس كانوا من شدة خوفهم .

ينظرون من خلف النوافذ ، والعجائز يصرخن ويقلن : البلاء نازل
علينا ... إذهبوا ... وادعوا ... وصلّوا ... وانذروا النذور .

وفجأة خرج الأب إلى الفناء ويده عصا ووراءه خرجت زوجته وكان كل منهما قلب على رأسه قدرا ، فقالت الجدة: - أيها الغريان التفوا حول هذه المرأة وزوجها ولا تتركوهما يتحركان .

انقضت الغريان على رأسيهما مما جعل الأوعية تصدر صوتا مخيفا أصاب الأب وزوجته بالذعر.

دخلت الجدة المنزل مع بعض الغريان الآخرين ، وكان صوت صياح " أولدوز " يأتي من المطبخ ، فقد كان باب المطبخ مغلقا ، وحاولت " أولدوز " فتح الباب بأن تضربه بسكين حتى تحدث به ثقباً ، وفعلاً أحدثت بالباب ثقباً صغيراً . وأثناء محاولتها وصلت أم " ياشار " ، فأفسحت لها الغريان الطريق ، وأخذت أم " ياشار " تضرب القفل بحجر حتى كسرتة وأخرجت " أولدوز " وأخذت تحتضنها وتقبلها . قالت لها " أولدوز " - أيتها الأم ، لا تقلقى علينا سنعود سريعا ، ولا تخبرى زوجة أبى أنك أخرجتنى حتى لا تؤذيك .

أجهشت أم " ياشار " بالبكاء ، وأسرعت " أولدوز " وأحضرت بقعة ملابسها من عش الدجاج وصعدت إلى السطح . وكانت الغريان تحيط بها . وعندما وصلت بجوار " ياشار " ألقت بنفسها فى حضنه ، وكان " ياشار " فاتحا يديه ليستقبلها واحتضنها بشدة وأخذ يبكى من شدة الفرح .

شكرت الجدة أم " ياشار " ، وصعدت إلى السطح وقالت : - أيها الغريان تحركوا .

فجأة بدأت الغريان تتحرك ، وأمسكت الشبكة بمناقيرها ومخالبها وارتفعت بها . وكان " ياشار " يربط حبالا بأطراف الشبكة حتى

يستطيع الغريان حملها بواسطتها . صاح " ياشار " من أعلى قائلاً :-
أمى، نحن ذاهبون ، أبلغى سلامى لأبى ، سنعود سريعاً ، ولا تحزنى !!
ترك الغريان الأب وزوجته ، ومضوا فى طريقهم ، فوقف الأب وزوجته
فى وسط الفناء يصرخان ويلقيان بالأحجار والأخشاب ، وقد تمزقت
ملابسهما وجرح جسماهما فى أماكن مختلفة .

وأخيراً ابتعدت الغريان عن المدينة .

أحاط آلاف الغريان بالطفلين ، ولم يكن هناك مكان خال قط سوى
فوق رأسيهما ، وأخذت " أولدوز " تنظر إلى السحاب ، وتقول لنفسها
كم هو جميل !! وكانت الغريان تزغرد بفرح وهى تطير

كانوا ذاهبين إلى مدينة الغريان

كانوا ذاهبين إلى مكان أفضل من بيت الأب

كانوا ذاهبين إلى حيث لا توجد زوجة الأب

ألقوا بالبزارات بعيداً

ذكرى الرفاق الشهداء المأسوف عليهم :

جاءت الجدة ، والأنسة غرابة والسيد غراب ، وجلسوا أمام
الطفلين ، وتكلموا معهما بعض الكلمات ، ثم تركوهما وذهبوا إلى
العمل مثل الآخرين ، فتحت " أولدوز " بقجة ملابسها وأخرجت
قميصاً وقالت لـ " ياشار " : - هذا قميص أبى ، لقد سرقته من أجلك،
وستلبسه فيما بعد .

فشكرها " ياشار " .

وكان بالبقجة مقدار من الخبز والزبد أيضاً ، وأخرجت " أولدوز " من جيبها عدة ريشات من ريش الغراب وأعطتها للجدّة وقالت : - أيتها الجدّة ، هذه ريشات (السيد غراب) كنا قد احتفظنا بها للذكرى ، والآن نعطيها لك . ولن أنسى أنا و " ياشار " (السيد غراب وأمه) مطلقاً فقد قُتلا من أجلنا

أخذت الجدّة الريشات وطارَت ، وأثناء طيرانها فوق رأس الطفلين وفوق الغريان صاحت بصوت مرتفع جداً وقالت : - اسمحوا لى أن أتحدث إليكم .

خيم الصمت على الغريان ... وأخرجت الجدّة بزازة من تحت جناحها وقالت : - أيها الأصدقاء الأعزاء غريانى الأحباء ! الآن أعطتنى " أولدوز " عدة ريشات من ريش السيد غراب ، فلنحتفظ بها لأنها ذكرى من أم وابن مخلصين وعطوفين ، وهذه الريشات تعلمنا كيف نكون شجعان ومخلصين . هلت " أولدوز " و " ياشار " .

ونعقت الغريان بصوت مرتفع .

واستمرت الجدّة فى حديثها وقالت : - لابد أن نلقى بهذه البزازة بعيداً لان زوجة الأب هي التى اشترقتها لتضعها فى فم " أولدوز " تمتصها حتى لا تدع لها فرصة للكلام حتى لا تعبر عما بداخلها من ألم للآخرين .

عرفت " أولدوز " بزارتها فقد كانت هي نفس البزازة التى أعطتها لأم الغراب .

ألقت الجدّة بالبزازة لأسفل ، فهلت الغريان وقالت الجدّة : - لقد

قتلت زوجة الأب أم الغراب والسيد غراب وهو لا يزال صغيرا ، ولكن
" أولدوز " و " ياشار " لم ينسيا أصدقاءهما !! فليحيا الأطفال الذين لم
ينسوا أصدقاءهم الشهداء .

نعقت الغربان بصوت مرتفع ، وأخذت " أولدوز " و " ياشار "
يصفقان ويهللان .

على قمة تلك الجبال

مدينة الغربان

الغربان ساكنو الجبال

كانت الجبال المرتفعة تبدو من بعيد ، نزلت الجدة وقالت : -
قمم هذه الجبال هي مدينة الغربان ، لا تتعجبوا من أننا نتخذ من
قمة الجبل منزلا ، فالغربان متنوعة .

٣- الأقرع اللدعب بالحمام

فى قديم الزمان كان هناك ولد أقرع يعيش مع أمه العجوز، يحيط بيتهما فناء صغير به شجرة توت ، وكانت هناك ماعز سوداء - يمتلكها الأقرع - كانت تأكل وتجتر تحت الشجرة ، وتحرك ذقنها وتنش فى الأرض بظلفيها وتنغو.

كانت غرفتهما فى اتجاه القبلة وبها نافذة صغيرة ، وفى وسطها فرن، وفى نهايتها مصطبة ، وبالسقف طاقة مواجهة للسماء لإخراج الدخان وإسخال النور والهواء وما إليها . وكان الأقرع وأمه قد وضعوا ورق قش على النافذة بدلا من الزجاج وكانت الجدران من الطين المعجون بالقش تحيطها أرفف وطاقات .

كان " الأقرع " يذهب كل صباح إلى الصحراء ، ليقتلع الشوك والعلف ويجمعهما ، ثم يحضرهما إلى البيت فيعطى الماعز قدرا منهما ، ويخزن الباقي فوق السطح ليبيعه فى الشتاء أو يقدمه مرة أخرى إلى عنزته . أما بعد الظهر فكان يقوم بإطلاق الحمام، فقد كان براجا ممتازا ، وكان لديه عشر أو خمس عشرة حمامة ، وكان يطلق صفيرا جميلا .

كانت العجوز تجلس خلف مغزلها ، تغزل خيوط الصوف من الصباح حتى المساء ، وهكذا كانت الأم وابنها يدبران معاشهما .

كان قصر الملك مواجه لبيتهما وكان قصر جميلا جدا ، حتى أن المرء يبهر من رؤيته ، وكانت ابنة الملك قد عشقت " الأقرع " ، فعندما كان " الأقرع " يصعد فوق سطح بيته ليطلق الحمام ، كانت الأميرة تأتى إلى الشرفة مع وصيفاتها وإمائها لتشاهد البراج " الأقرع " ، وتستمتع الى صفيره ، وكانت أحيانا تحدث " الأقرع " بعينها أو بالإشارة بينما

"الأقرع" لا يعيرها اهتماما ، ويأتى بحركات وتصرفات تشير إلى عدم الاكتراث، والحقيقة أن "الأقرع" كان يعشق ابنة الملك - خفية - لدرجة لا يصدقها عقل ، ولا يرغب فى أن تعرف الفتاة ذلك ، لأنه يعرف تماما أن الملك لن يزوج ابنته مطلقا لشخص أقرع ، لا يملك من الدنيا سوى عنزة ، وعشر أو خمس عشرة حمامة ، وأمه العجوز ، وإذا زوجه الملك ابنته ، فإنها لن تستطيع أن تعيش فى كوخ من الطين معبأ بالدخان.

فعلت الأميرة كل ما تستطيع كى تجعل الأقرع يتحدث ، ولكنها لم تستطع ، وذات يوم علقت قلب خروف كثير الثقوب أمام النافذة ولكن "الأقرع" لم ينتبه أيضاً وتعمد إطلاق حماماته صوب تل الشوك ، وهو يصفر ، ويستمتع لصوت مغزل أمه . وفى النهاية ، سقطت الأميرة مريضة ، ولم تعد تأتى إلى الشرفة مرة أخرى ، ولم تعد تشاهد "الأقرع" من الشرفة كعادتها .

وجمع الملك الأطباء ليعالجوا الأميرة فلم يستطيع واحد منهم معالجتها ، وكل الرواة فى هذه المواقع يقولون أن الأميرة لم تفصح عن سر قلبها ربما خجلا ، أو حياء ، (ولكننى أقول) أن الأميرة باحت بسر قلبها لأبيها ، وعندما سمع الملك أن ابنته تعشق "الأقرع" البراج اشتعل غضبا ، وصرخ قائلاً : إذا تفوهت بإسم هذا القدر مرة أخرى سأطردك من البلدة ، أهنأك قحط فى الرجال حتى تعشقين هذه القذارة ؟ سوف أزوجك ابن الوزير وكفى .

لم تنبس الأميرة ببنت شفة ، وذهب الملك وجلس على العرش ، واستدعى الوزير أمامه وقال له : - أيها الوزير ، لابد - اليوم - أن

تقطع رؤوس حمامات " الأقرع " وتمنعه من الصعود إلى السطح مرة أخرى .

أرسل الوزير مجموعة من خدمه الأقوياء إلى بيت " الأقرع " ، وكان " الأقرع " يقدم الحبَّ للحمام دون أن يشعر بما يحدث حوله ، وأثناء ذلك تكاثر الجُذم على بيته ، وفي لمح البصر قطعوا رؤوس الحمام ، وضربوا " الأقرع " وحطموا عظامه تماماً ، وعادوا فحطموا رجل مغزل العجوز أيضاً ومزقوا ورق النافذة ، ثم عادوا من حيث أتوا .

مكث " الأقرع " أسبوعاً كاملاً لا يستطيع حراكاً ، ينام في كوخه الطيني متألماً ، وقد دهنت أمه جروحه بالمرهم وهي تلعن الملك وتسبهه . وبعد أسبوع جلس " الأقرع " تحت شجرة التوت ليتنسم بعض الهواء ، ويهدئ أعصابه محاولاً استعادة قواه . وبينما كان يفكر أين يدفن حماماته ، سمع صوتاً آتياً من فوق رأسه ، فاسترق السمع فإذا بحمامتين حطتا على شجرة التوت وهما تتحدثان .

قالت إحداهما : - أختي العزيزة : هل تعرفين هذا الصبي ؟

أجابت الأخرى : لا لا .. !

قالت : - هذا هو الولد الذي سقطت الأميرة مريضة في فراشها من فرط عشقها له ، وأمر الملك وزيره بقتل حمامته ، وضربوه ، وتركوه على هذا الحال ، وأخذ الصبي يفكر أين يدفن حمامته .

قالت الحمامة الثانية : - ولماذا يدفنها ؟

قالت الحمامة الأولى : إذن قولى أنت ماذا يفعل ؟

قالت الثانية : عندما نطير ستسقط أريج ورقات شجر من تحت أرجلنا ، فإذا أعطاها لعنزته لتأكلها ، وأخذ لبن العنزة ، ودهن رؤوس

حماماته ورقابهاستحيا الحمامات مرة أخرى ، وتأتى بأفعال لن تستطيع أى حمامة الإتيان بها ..

قالت الحمامة الأولى : ليت الصبى يسمع كلامنا !!

طارت الحمامتان فى الهواء وسقط من أرجلهما أربع ورقات شجر ، فالتقطتهما " الأقرع " من الهواء ، وأعطاهما لعنزته فامتلاً ضرعها باللبن ، وأحضر " الأقرع " وعاء وحلب العنزة ، ودهن رؤوس الحمام ورقابها بلبنها ، فأخذت الحمامات تحرك أجنحتها وأرجلها ، ودبت فيها الروح والتفت حول " الأقرع " .

خرجت العجوز على صوت رفرفة أجنحة الحمام ، فقص عليها " الأقرع " ما حدث ، فقالت : يا بنى العزيز ! كف يدك عن تطيير الحمام ، فهذه المرة إذا صعدت إلى السطح سيقتلك الملك .

فقال الأقرع : - أمى : حمامى هذا ليس مثل الحمام الآخر الذى اعتدت عليه ، انظرى !

ثم قال " الأقرع " لحمامه أثناء ذلك : - يا حماماتى الجميلات ، إفعلى شيئاً يسعدنى ، ويرضى أمى .

كونت الحمام دائرة ، وأخذت تهمس ، وفجأة ارتفعت فى الهواء وذهبت ، فبهت " الأقرع " وأمه ، ومضت فترة قصيرة وليس من خبر عن الحمام .

قالت العجوز : - أهذه هي حمامك الوفية ؟ !

لم تكمل العجوز كلامها حتى ظهرت الحمام فى السماء ، وكن قد أحضرن معهن طاقيّة من اللباد ، وأعطين الطاقيّة للأقرع . فقالت العجوز : عجباً يا لها من هدية عجيبة تلك التى أحضرنها لك . والآن

فلترهل هي مناسبة لمقاس رأسك أم لا ؟ وضع " الأقرع " طاقية اللباد على رأسه .

وقالت : يا أمى ، هل هي مقاسى أم لا ؟
قالت العجوز بتعجب : يا بنى ، أين أنت .
قال " الأقرع " : - يا أمى ، أنا في مكانى .
قالت العجوز : أعطنى الطاقية لأراها .

خلع " الأقرع " الطاقية وأعطاهها أمه ، فوضعتها العجوز على رأسها ،
وصاح " الأقرع " : يا أمى ، أين ذهبت ؟
لم تجب العجوز ، وأخذ " الأقرع " يتلفت حوله وهو مبهور حائر .
وفجأة سمع صوت مغزل أمه يرتفع فهرع إلى الغرفة فرأى المغزل
يدور وحده ويغزل الصوف ، وهنا أدرك ما هي خاصية طاقية اللباد
(طاقية الإخفاء) . فقال : - يا أمى كفى عن المزاح معى ، اعطنى
الطاقية لأذهب وأحضر قليلا من الطعام لأننى سأموت من شدة
الضعف والجوع .

قالت العجوز : أقسم بأنك لن تمد يدك للمال الحرام لأعطيك الطاقية .
قال " الأقرع " : - أقسم بأنى لن أمد يدى إلى الأشياء المحرمة على .
أعطت العجوز الطاقية للأقرع ، فوضعها على رأسه وخرج .
وكان الحاج " على " غازل القماش " يعيش فى مكان يبعد عن بيت
الأقرع بعدة حارات ، وكان يملك عدة مغازل ومئات العمال والخدم
والخادومات .

وكان " الأقرع " ذاهبا فى طريقه يحدث نفسه : - حسنا يا عزيزى
الأقرع " ، فلتحسب ولتنظر إلى مال الحاج " على " حلال هو عليك أم

لا؟ من أين أتى الحاج على المال؟ هل من مغازله؟ هل هو يعمل؟ إنه لا يعمل شيئاً، ولا يمد يده إلى أبيض أو أسود، إنه فقط يأخذ أرياح مغازله ويمتص نفسه، إذن متى يعمل ويدريحا؟ عزيزي "الأقرع" شغل مخك جيداً، أسألك سؤالاً وأجب إجابة صحيحة: قل: إذا لم يعمل العمال، ماذا يحدث للمغازل؟ بالطبع تتوقف، في ذلك الوقت هل تدر المغازل ريحا؟ بالطبع لا، النتيجة إذاً يا عزيزي "الأقرع" استنتج من هذا أن العمال يعملون، ولكن الحاج يأخذ كل الريح ويعطيهم القليل فقط، إذا ثروة الحاج على ليست ملكاً له وهي حلال على.

دخل "الأقرع" بيت الحاج على وهو مستريح البال، وكان بعض الخدم والشغالين في الفناء الخارجى فى رواح وغدو، وعبر "الأقرع" من وسطهم دون أن يراه أحد، وكان الحاج على جالساً في الفناء الداخلى مع عدد من نسائه بالقرب من حافة الحوض على سرير يتناول طعام العصر من شاي وعسل وقشدة وفتائر. فسأل لعاب "الأقرع" وتقدم ورفع لقمة كبيرة، بينما كان الحاج على ينظرو ويرى أن نصف العسل والقشدة قد انتهيا، فبادر بتلاوة الأدعية والبسملة والتسبيح على سبحته. ورفع "الأقرع" شاي الحاج على من أمامه وشربه، فصرخ الحاج على وزوجاته هذه المرة خوفاً وهلعاً وتركوا كل شئ وهرعوا إلى غرفتهم، فأكل "الأقرع" كل العسل والقشدة ثم شرب عدة أكواب من الشاي، وأخذ يتجول في الغرفة، وكان بها أشياء كثيرة ثمينة، وبيوت "الأقرع" من الشمعدان الذهبى والفضى والستائر المطرزة بالذهب، والسجاجيد الكبيرة والصغيرة الكثيرة،

وأنية الفضة والبلور، وأشياء أخرى قيمة ومتناثرة، فأخذ "الأقرع" كل ما استحسنه، ووضع في جيبه كل ما غلا ثمنه وخف حمله. وأخيرا وجد مفتاح خزانة الحاج، وقد نام الجميع، ففتح الخزانة وأخرج كل ما يستطيع حمله من النقود، كذلك سرق عدة بيوت أخرى من بيوت الأغنياء، وكان الليل قد انتصف فذهب في طريقه إلى البيت، وأبقى لنفسه قليلا من النقود، وأعطى الباقي لبيوت الفقراء.

كان "الأقرع" يطرق الأبواب، فيخرج صاحب البيت فيقول له: - خذ هذا الذهب القليل وألفين من التومانات، وأنفق على أطفالك، فهذا نصيبك ولا تقل لأحد شيئا.

وفجأة يعود صاحب البيت إلى وعيه ليرى أحدا خلف الباب ومن أين يأتي الصوت، يجد حفنة من الذهب وقدرا كبيرا من النقود ملقى أمامه بينما لا أحد حول البيت.

وصل "الأقرع" إلى بيته متأخرا، وكانت العجوز مازالت مستيقظة تنتظر ابنها حتى تلك الساعة خلف مغزلها، بينما النوم يداعب عينيها، وكانت الحمائم نائمات ومتناثرات بالكوخ هنا وهناك، وهي تدس رؤوسها أسفل أجنحتها. دلف "الأقرع" إلى الكوخ بهدوء دون أن يحدث صوتا، وجلس بجوار أمه، وفجأة خلع الطاقية من رأسه، وعندما رأت العجوز ابنها فرحت وقالت: - أين كنت إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل يا ولد؟

قال "الأقرع": - كنت في بيت الحاج على، النساج، آخذ مال الناس وحقوقهم منه.

أحضرت العجوز لـ " الأقرع " حساء البرغل ، قال " الأقرع " : - كنت قد أكلت كمية كبيرة من العسل والقشدة ، وحتى لو ظللت أسبوعاً بدون طعام فلن أشعر بالجوع .

تناولت العجوز العشاء بمفردها ، وشربت من لبن العنزة ، ثم نهضا وناما .

وضع " الأقرع " - قبيل النوم - ما لديهما من برغل أمام الحمام ، وفى الصباح الباكر لبس الطاقية وصعد إلى السطح ، وبدأ فى تطيير الحمام وإطلاق الصغير ، وكان يمسك فى يده عصا طويلة كان قد كسا رأسها بقطعة من القماش .

كانت الأميرة المريضة ترقد خلف الشباك وعيناها مثبتتان على السطح ، وفجأة رأت حمامات " الأقرع " تطير ، وسمعت صوت صفيره ، ولكنها لم تره ، فلم يظهر سوى العصا تطير الحمام ، وكانت العصا تتمايل فى الهواء هنا وهناك ، وكأنها تلهو مع الحمام .

أخبر الخدم الوزير ، وأخبر الوزير بدوره الملك ، بأن " الأقرع " بدأ فى عمله من جديد ، وأنه من الممكن أن تسوء حالة الأميرة ، فأرسله ليأخذ الحمام ويقتله .

وأصاب القلق الأميرة على " الأقرع " ، فأرسلت وصيفتها كاتمة أسرارها إلى العجوز لتحضر لها الأخبار وتقول للعجوز أن الأميرة تعشق " الأقرع " عشقاً مبرحاً فلتدبر حلاً .

ذهب الحاج على والأغنياء المعتدى عليهم إلى قصر الملك متظاهرين ، وهم يرددون " فرغ صبرنا ، وذهبت حياتنا أدراج الرياح ، أى حاكم أنت ؟ أرسل جيشك فى إثر اللصوص وأعد إلينا النقود .

ولنقف إلى هذا الحد ونعود لنكمل قصة "الأقرع"

لبس "الأقرع" الطاقية وصعد إلى السطح ليطير الحمام ، وكانت العجوز ترتدى العباءة وتغزل الصوف أسفل السطح ، وكانت العنزة رابضة في الفناء تبحث عن ورقة التوت التي تعبت بها الرياح فتلقى بها على الأرض .

فجأة رفعت العجوز رأسها فرأت العنزة تحملق في وجهها فأخذت تحقق في عيون العنزة هي الأخرى وكأن العنزة تقول : إن "الأقرع" والحمام في خطر، انهضى وأحضرى لى ورقة توت لآكلها وأقول لك ماذا يجب أن تفعل.

لم تصبر العجوز فنهضت وأخذت تضرب الأوراق بعصا فأسقطتها على الأرض ، وأخذت العنزة تأكل وتأكل حتى انتفخت بطنها وحملقت في وجه العجوز وكأنها تقول لها : أشكرك ، الآن تعالى إلى الداخل سأصعد أنا بنفسى إلى السطح لأساعد "الأقرع" وحمائمه .
لم تقل العجوز شيئاً ودلفت إلى الداخل ، وصعدت العنزة على السلم المؤدى إلى السطح ووصلت بجانب كومة الشوك وبدأت فى الأكل مرة أخرى . لم يمض وقت طويل حتى أتى إلى الفناء مجموعة من خدم الوزير ، وكانت العصا التي تطير الحمام - وهى تلوح فى الجو- تضرب كل من يصعد للسطح وتلقى به إلى أسفل، وفى النهاية عاد جميع الخدم إلى الوزير.

كانت الأميرة التى تحسنت حالتها قليلا ترى كل شئ من خلف النافذة، وكان كل ما يحدث يستحوذ على إعجابها .

كان الملك والحاج على صاحب المغازل والأغنياء الآخرون جالسين

يتحدثون وهم فى حيرة من ذلك اللص المقتدر الذى استطاع فى ليلة واحدة أن يسرق كل هذه البيوت، ويأخذ معه كل هذه النقود ، وأثناء الحديث دخل الوزير وقال : - أيها الملك لقد حدث شئ غريب ، فالأقرع غير موجود فى أى مكان ، وعصاه التى يطير بها الحمام أعلى السطح ولا تترك أحدا يقترب من الحمام .

قال الملك : - أمسكوا " الأقرع " وأحضروه أمامى .

قال الوزير : - أيها الملك ، أخبركم أن " الأقرع " لا يوجد فى أى مكان ، وأمه بمفردها فى الكوخ ولا تعرف عنه شيئاً .

قال الحاج على صاحب المغازل : أيها الملك كل ما حدث من فعل " لأقرع " لقد فهمت من كل الدلائل أنه هو الذى سرق بيتنا وليس الوقت وقت قضية العسل والقشدة والشاي ، وقال آخر من الأغنياء : عقد زوجتى اختفى من رقبتها أمام عيني، وكأنه تبخر فى الهواء !!

وقال آخر : - رأيت أيضاً مرآتنا ذات الإطار الذهبى تطير من فوق الرف فى الهواء، ولما أفقت من ذهولى لم أجد المرآة ، فالحاج على يقول الصدق وكل هذه الأعمال من فعل " الأقرع " . وغضب الملك من كلامهم وأمر بإعداد الجيش ، لمحاصرة بيت " الأقرع " وبإحضاره حياً أو ميتاً .

حدث فى هذا الوقت أن الأميرة كانت هي ووصيفتها وكاتمة أسرارها تتحدثان ، وكانت الوصيفة عائدة لقوها من عند العجوز وكانت تقول للأميرة : - يا سيدتى ، قالت أم " الأقرع " أنه حى وحالته جيدة جداً ، وإنها سترسله الليلة إليك ، ليتحدث معك .

قالت الأميرة بتعجب : - يأتى الأقرع أمامى !! كيف يستطيع أن يعبر

من وسط كل هؤلاء الحراس والجيش ويأتى هنا ؟ ليته يستطيع
المجىء !

قالت الجارية : - سيدتى إن القرع لديهم ألف حيلة وحيلة
فلتنتظري ليلا ولا بد أنه آت .

أثناء ذلك نظرتا من النافذة فرأيتا جيشا يحاصر بيت " الأقرع "
محاصرة الخاتم للفص ، فقالت الأميرة : - لو كان لديه ألف روح لن
يستطع أن ينجو سالماً بروحه، آه يا أقرعى المسكين .

كانت الحمائم قد حطت فوق السطح وهى تلتقط الحب ، وكانت
هناك عصا مستقيمة منتصبه تطير الحمائم ، وكانت العنزة تأكل
الشوك باستمرار دون توقف ، بينما تدفع كرات صلبة تشج الرأس .

كان الجيش قد وقف على أهبة الاستعداد ، وكان القائد يقول بصوت
مرتفع جداً : يا أقرع ، لو تملك ألف روح فلن تستطع أن تنجو سالماً
بروح واحدة ، هل تتوهم أنك فى أمان ! استسلم سريعاً ، وإذا لم
تستسلم ستكون أكبر قطعة من جسدك هي أذنك

كانت العجوز فى الكوخ ترتعد من شدة الخوف ، وسكت صوت
مغزلها مرة أخرى ، وكانت تنظر من طاقة السقف ولكنها لم تر شيئاً .
فى ذلك الوقت كان " الأقرع " يقول لحمائمه : - يا حمائمي الجميلة،
ألا ترون ماذا تفعل العنزة ، إنها تصنع لُكنَّ منجنيقاً ، إفعلى شيئاً
واسعدن قلبى وارضين أُمى .

صنعت الحمامات دائرة ، وأخذت تتهامس ، ثم حطت فى الجو
وغابت .

قال قائد الجيش مرة أخرى : يا أقرع ، هذه آخر مرة أحذرك فيها ،

إننى أمرك ، فلتترك السحر والشعوذة والأعمال الشيطانية جانباً ،
فإنك لن تقدر على ، وفى النهاية سأقتلك ، وحين ذاك لا ينفع الندم ،
فأينما كنت تعال واستسلم .

صاح " الأقرع " : - يا جناب قائد الجيش ، أنا آسف جداً لأنى
أضعت وقت سيادتك ، فقد كنت أربط حزام سروالى ، الآن سوف
أمثل أمامك ، أشعلُ سيجارة وستجدنى أمامك .

سُرقائد الجيش لأنه سوف يقبض على " الأقرع " بسهولة ، وأشعل
سيجارة وقال : - كم أنت محنك ، من أى قبر يأتى صوتك ؟

قال " الأقرع " : - من قبر أبيك وأمك !!

اغتاظ قائد الجيش وصاح قائلاً : كف عن قلة الأدب ، ماذا تظننى
حتى تمزح معى ؟

أثناء ذلك ظهرت فى الجهات الأربع من السماء مئات الحمامات ،
وكانت حمامات " الأقرع " فى وسط تلك الحمام ، وكانت العنزة
تأكل الشوك أسرع وأسرع ، وتنهمر الكرات منها .

رفع " الأقرع " كرة وصاح قائلاً : يا سيادة قائد الجيش ، أنظر لترى
أين أنا !!

وطارت الكرة صوب قائد الجيش الذى كان رافعاً رأسه ، ناظراً
للواء ، يضع السيجارة بزاوية شفتيه ، فأصابت الكرة ما بين
حاجبيه ، فعلا صياحه ، فأصاب الجيش الذعر وتحرك مكانه ، لكن
الحمام لم يعطه فرصة فقد أمطره بوابل من الكرات ، وكان الحمام
يلتقط الكرات بمنقاره ، ويطير الى أعلى ، ثم يسقطه فوق رؤوس أفراد
الجيش ، وكانت الكرة عندما تقع على رأس فرد تخرقها ، وانسحب

الجيش ليلا ، وحمل " الأقرع " العنزة والحمائم ونزل إلى أسفل وعاد
بأقى الحمام من حيث أتى .

كانت العجوز قد أعدت عشاء حقيقيا بالنقود التى كان " الأقرع " قد
أعطاه إياها ، فلم يكن عشاء مزيفا مثل كل ليلة ، قطعة خبز يابسة
مع قليل من حساء البرغل ، أو نفس قطعة الخبز بدون طعام وعلى
وجهها ماء .

وكان " الأقرع " قد اشترى قمحا للحمام ، وأكلت العنزة أيضاً برسوما
وشعيرا .

بعد العشاء قالت العجوز للأقرع : الآن ضع الطاقية على رأسك
وانهض ، واذهب إلى الأميرة ، لقد وعدتها بأن أرسلك إليها .

قال " الأقرع " : - أمى ، أين نحن وأين الأميرة .

قالت العجوز : - الآن إذهب ، ولتر ماذا لديها .

وضع " الأقرع " الطاقية على رأسه وذهب ، ومر من بين الحراس
والعساكر ، ودخل غرفة الأميرة ، بينما كانت تتناول العشاء مع
وصيفتها وكاتمة أسرارها ، وتقول لها : - لوىعرف " الأقرع " كم أنا
أحبه لما توانى دقيقة واحدة ، ولكننى خائفة أن يقع فى يد الحراس
ويقتلونه ، قلبى يغلى .

قالت الوصيفة : - نعم يا سيدتى ، أنا أيضاً خائفة ، فلقد أمر الملك
الليلة أن يضاعفوا عدد الحراس ، وعين ابن الوزير رئيسا للحرس
أيضاً .

جاء " الأقرع " وجلس بجوار الأميرة وشرع فى الأكل ، وكان العشاء
أرزا بالدجاج مع أنواع أخرى من مربي وعجة وحساء وأشياء من هذا

القبيل ،رأت الأميرة ووصيفتها أن جانباً من الوعاء بدأ ينتهى بسرعة شديدة ، وفخذ الدجاجة قد قطع وأوشك على الانتهاء .

قالت الوصيفة : يا سيدتى ، ماذا كنت تطلبين ! تخيلى ، أنا واثقة بأن " الأقرع " فى الغرفة ، هذا العمل عمله ،، ألم أقل لك أن القرع لديهم ألف حيلة وحيلة ، فرحت الأميرة وقالت : - عزيزى " الأقرع " ، إذا كنت فى الغرفة فأظهر نفسك ، إن قلبى مشتاق إليك .

لم يصدر " الأقرع " صوتاً ، قالت الوصيفة : - يا سيدتى ، ربما لا يظهر بسبب وجوبى ، سأذهب أنا لأراقب الحراس .

عندما خرجت الجارية خلع " الأقرع " الطاقية ، وفجأة رآته الأميرة جالسا بجوارها ، فسرت وقالت : أيها " الأقرع " ، ألا تعرف كم أعشقتك ؟!

تعال خذنى ، وخلصنى ، فالملك يريد أن يزوجنى بابن الوزير .
قال " الأقرع " : - ولكن يا سيدتى أنت من سلالة الملوك ، فكيف تستطيعين أن تعيشى فى كوخ معبأ بالدخان ؟

قالت الأميرة : لو عشت معك ، أستطيع أن أتحمل كل شئ .
قال " الأقرع " : أنا وأمى ندبر حياتنا بمشقة بالغة ، فكيف تشعرين بالشبع ، وأنت من سلالة الملوك ولا تتقنين أى عمل ؟
قالت الأميرة : سأتعلم أى عمل .

قال " الأقرع " : - أى عمل ؟
قالت الأميرة : أى عمل تحدده .

قال " الأقرع " : - حسنا ، الآن سأقول لأمى أن تعلمك نسج الصوف ، فاصبرى لعدة أيام ، وسأتى لأخبرك متى فمضى من هنا .

أخذ الأقرع والأميرة يتحدثان ...

والآن أحدثكم عن ابن الوزير رئيس الحرس الملكى وعاشق الأميرة عندما جاء " الأقرع " إلى الأميرة كان قد رأى ابن الوزير جالسا على كرسي ويغط فى نوم عميق ، فدفعته رغبتة إلى أن يأخذ سيفه وسهمه ، وكان قد أحضرهما معه. وعندما استيقظ ابن الوزير لم يجد أسلحته ، فعرف أن " الأقرع " قد جاء ، فما حدث قد حدث ، فأسرع وأرسل كل الحرس إلى غرفة الأميرة ، رأى الحارس الوصيفة بالباب فاندفع وحاول فتح الباب بالقوة ، فرأى " الأقرع " والأميرة يتحدثان ، فأغلق الباب بقوة وصاح : - " الأقرع " هنا تعالوا بسرعة. " الأقرع " هنا أسرعوا .

أسرع ابن الوزير والآخرين ، واستيقظ الملك على الضوضاء ، وجلس على العرش وأمرهم بأن يحضروا " الأقرع " أمامه حيا أو ميتا . وكان رئيس الحرس - ابن الوزير - وبعض الحراس الآخرون داخل غرفة الأميرة حيث كانت تتمدد فى فراشها ، تقرأ قصة وليس هناك من خبر عن " الأقرع " ، فسألها ابن الوزير الذى كان يعشقها : - ألم ترى أين ذهب " الأقرع " ؟ الحارس يقول أنه كان هنا منذ دقيقة قالت الأميرة بلهجة حادة : لقد صار أبى فاقد الحمية تماما ، كيف يسمح لكم أن تدخلوا غرفة ابنته المريضة ليلا ، وأنت أيضا هل لديك الجرأة أن تتحدث معى فى مثل هذا الحديث ؟ أخرجوا سريعا . قال ابن الوزير باحترام وأدب : - سيدتى الأميرة ، هذا أمر الملك نفسه أن نبحث فى كل ثقب ، فأنا مأمور وليس ذنبى . أثناء ذلك فتشوا كل مكان بالغرفة فلم يجدوا شيئا سوى سيف ابن

الوزير وسهمه اللذين كان " الأقرع " قد أحضرهما معه وأخفاهما تحت السرير.

قال ابن الوزير: سيدتى الأميرة ، هذه الأشياء ملكى ، سلبها " الأقرع " منى فإن لم يكن هو ، فمن الذى فعل هذا ؟ سوف أخبر الملك بهذا .
أثناء ذلك كان " الأقرع " يقف بجوار الأميرة يسمع ، وكان يقول لها :-
لا تخافى يا فتاة ، لا تظهرى شيئاً على وجهك ، وسأتى إليك سريعاً.
بعد ذلك عبر من وسط الحراس ووصل إلى الباب ، وكان هناك ثلاثة أشخاص أو أربعة يقفون على عتبة الباب مما أدى إلى استحالة المرور ، فأراد أن يحدث جلبة لكى يهرب ، ولكن فجأة ارتطمت قدمه بشيء فسقطت طاقيته ، توصل " الأقرع " كثيراً لكى يعطوه طاقيته وكان يقول :- عيب على أن أذهب إلى الملك برأسى عارية !!
ولكن ابن الوزير لم يأذن له بأخذها .

كان الملك يجلس على عرشه منتظراً وهو فى قمة غضبه ، وعندما وصل " الأقرع " أمام عرشه صاح قائلاً : يا ابن الحرام ، أى خطأ اقترفته فى محله ؟ اقتحمت بيوت الناس ، محوت جيشى ، ولكن بأى جرأة دخلت غرفة ابنتى ؟ سأمر وزيرى فى الحال أن يصب رصاصاً مغلياً فى حلقك.

قال " الأقرع " :- يا مولاي ، أى شئ تأمر به فأنا راض ، ولكن فى البداية مُرهم بأن يفكوا يدي ، وأن يعطونى طاقيتى ، فإنه ليس من الأدب أن أمثل أمام الملك ، ويداي ليست على صدرى ، وأقف أمامه ورأسى عارية. أمر الملك بأن يفكوا يديه ، وأن يعطوه طاقيته ، وأراد ابن الوزير ألا يعطيه الطاقية ، ولكن لم يكن لديه الجرأة لأنه يقول

كلاماً بعد كلام الملك ، فأعطاه الطاقية ، وفك يديه ، ووضع الأقرع الطاقية على رأسه فاختفى ، فقفز الملك من مكانه وصاح : - أين ذهبت يا ولد ؟ اختفيت ؟ أتلعب الاستخفاء ؟

قال ابن الوزير بخوف شديد : - فداؤك نفسى ، لم يذهب إلى مكان ، لقد اختفى تحت الطاقية ، فمر بأن يغلّقوا الأبواب ، الآن سيهرب . أراد " الأقرع " أن يتحرك ويهرب ، ولكنه رأى أنه وقع فى المصيدة ، وحاصر الحراس غرفة الملك ، ولم يتركوا مجالا حتى إن الفأر لا يستطيع أن يجد ثقباً يهرب فيه !! .

عندما رأى الملك أن " الأقرع " هرب طلب الجلاد ، وأمره قائلاً : - أيها الجلاد : اقطع رقبة ابن الوزير ابن الحرام هذا . فأخذ ابن الوزير يلتمس ويتوسل ، ولكن الملك قال له : يا ابن الحرام ، كنت تعرف أن طاقيته هى طاقية الإخفاء ، فلماذا لم تقل لى ؟ يا جلاد : لا ترحمه ، إضرب عنقه .

وهكذا قتل ابن الوزير فى منتصف الليل .

والآن نعد إلى الأميرة

فعندما رأت " الأقرع " قد وقع فى المصيدة ، وقد قتل ابن الوزير ، قالت لوصيفتها : - أتعرفين أنه إذا جاء الوزير سيجررجلنا أيضاً فى القضية ؟ أنجلس مكتوفى الأيدي ؟ ثم ماذا ؟ انهضى لنذهب إلى أم " الأقرع " ، فمن الممكن أن تفعل شيئاً ، مسكين " الأقرع " ، ستخرج روحه .

كان الحراس مشغولين ، ولم يلتفتوا لذهابهما ، وكانت العجوز تجلس

بمفردها فى الكوخ تغزل الصوف ، والعنزة نائمة هى والحمائم .
قصت الأميرة على العجوز كيف سقط " الأقرع " فى المصيدة ، وأنها
الآن لابد أن تفعل شيئاً .

فكرت العجوز وذهبت وأيقظت العنزة والحمائم أيضاً وقالت لهن :
يا عنزة يا ذات اللحية ، أيتها الماهرة ، يا حمائم " الأقرع "
الجميلات ، لقد وقع ابنى فى المصيدة فى قصر الملك ، إفعلى شيئاً
لتسعدن قلب أقرعى ولترضىينى ، وهذه هى أيضاً الأميرة وسوف
تصبح زوجة أبنى أزلن الغم عنها . طلبت العنزة طعاماً ، فأحضرت
لها العجوز الشوك وورقه التوت . وذهبت الحمامات وأحضرت
أصدقاءهن ، وبدأت العنزة فى الأكل وصارت تمطر كرات ، وأشعلت
العجوز التنور (الفرن) ووضعت صاجاً فوقه وأخذت تشوى القمح
للحمام .

كان الحمام يأكل القمح ويأخذ الكرات ويطير فى الهواء عالياً ، ثم
يلقى به على رأس الجيش والحراس وفى ظلمة الليل لم يستطع أحد
منهم أن يفعل شيئاً .

عرف الوزير بأمر الجيش والحراس فذهب للملك وقال له : - أيها
الملك ، إذا تركت الأمر هكذا لمدة ساعة أو ساعتين ، فالحمام سيهدم
الأبواب والجدران فوق رؤوسنا ، فمن الأفضل أن تطلق سراح الأقرع
ثم بعد ذلك نفكر ونعيد حساباتنا .

استحسن الملك كلام الوزير ، وأمرهم بأن يفتحوا الأبواب ، وصاح
بصوت مرتفع جداً قائلاً : - يا أقرع ، تعال واذهب فى داهية ، أغرب
عن وجهى ، وسأحاسبك فيما بعد .

مضت عدة دقائق فى صمت ثم صاح " الأقرع " من الفناء قائلاً : -
فداؤك نفسى ، الآن أغتزم الفرصة ، وأقول لجلالتكم ، أنه لا يوجد فى
أى مكان من يسلك هذا السلوك مع من جاءهم خاطباً .

قال الملك : - يا أحمق ، أين أنت من خطبة الأميرة ؟

قال " الأقرع " : - أيها الملك ، أعطنى ابنتك ، وسأقول للحمام أن
يكف ، فأنا وابنتك يعشق كلانا الآخر .

قال الملك : - لا تلزمنى بنتاً قليلة الأدب مثلها وسأطردها حالا .

وأرسل الملك مجموعة من الخدم فى إثر ابنته ليقبضوا عليها
ويطردوها من القصر . وذهب الخدم ثم عادوا ، وقالوا : - أيها الملك ،
لقد هربت ابنتك .

لم يقل " الأقرع " شيئاً آخر ، وأشار للحمام بأن يكف ، ثم ذهب إلى
كوخه ، وكانت أمه والأميرة والوصيفة يشربن حليباً ساخناً . ورتب "
الأقرع " بيته وحياته بالنقود القليلة والمصاغ الذى كانت قد أحضرته
معها الأميرة بجانب النقود التى ادخرها هو وأمه والأميرة . ولكن "
الأقرع " مازال يعمل حطاباً ، ويطلق حماماته ، وكان يربط عنزته
أسفل شجرة التوت ، بينما أمه وزوجته تغزلان الصوف وينفقن على
معيشتهن من بيعه .

وكانوا قد أعتقوا الجارية ، وذهبت هي أيضاً وتزوجت ، وأصبحت
صاحبة بيت وحياة مستقلة هي الأخرى .

وكان الحاج على صاحب المغازل وآخرون مازالوا يأتون للملك
ويشكون له من " الأقرع " خاصة أنه كان أحياناً يسرق أموالهم ولم
يكن ذلك لنفسه فى أى وقت قط .

كان الملك والوزير يجلسان كل يوم ليدبرا خطة أوحيلة للقبض على " الأقرع " وحمائمه ، وعين الملك ابن الوزير الصغير رئيسا للحراس حتى يقفل فم الوزير ، ولا يقول شئ بخصوص قتله ابنه الآخر .
يقول جميع القصاصين أن قصتنا قد انتهت ، ولكننى على يقين من أن قصتنا لم تنته بعد ، وحتما ذات يوم سوف نكمل هذه القصة

٤-الصبي بائع البنجر المسلوق

كنت - قبل عدة سنوات - معلما في قرية وكانت مدرستنا عبارة عن غرفة واحدة ، بنافذة واحدة ، وباب يؤدي إلى الخارج ، ولم تكن المدرسة تبعد عن القرية كثيراً . وكان لدى إثنان وثلاثون تلميذا ، عدد الصف الأول خمسة عشر تلميذا ، والصف الثاني ثمانية ، والصف الثالث ستة ، أما الصف الرابع فتلاثة تلاميذ .

كانوا قد أرسلوني إلى هناك في أواخر الخريف ، فقد ظل الأطفال بلامعلم لمدة شهرين أو ثلاثة ، ومن ثم سرّوا كثيراً برؤيتي ، وهللوا فرحين ، إذ كان الفصل مغلقا والدراسة معطلة لمدة أربعة أو خمسة أيام ، وأخيرا تمكنت من جمع التلاميذ من الخلاء ، ومن مصنع نسج السجاد ، ومن هنا وهناك . كان كل الأطفال -تقريبا- يبقون بلا عمل ، لذا كانوا يذهبون إلى مصنع الحاج "قلّى" لنسج السجاد ، وكان دخل أمهرهم خمسة عشرريالا في اليوم .

كان الحاج "قلّى" قد جاء من المدينة ، وكان توفيره في هذا الأمر ، فعمال المدينة يتقاضون النقود مقدماً ، ولا يتقاضون أقل من أربعين ريالاً ، أما أعلى أجر في القرية فكان يتراوح بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين ريالاً .

لم يمض على وجودي بالقرية أكثر من عشرة أيام حتى تساقط البرد وامتألت الأرض بالثلج ، فأغلقتنا ثقوب النافذة والباب بالورق حتى لا يدخل البرد .

ذات يوم كنت أقوم بدرس إملاء للصفين الثالث والرابع ، بينما كان الصفان الأول والثاني في الخارج . كانت الشمس ساطعة والبرد قد صار رقيقا واهيا ، وكنت أرى الأطفال من النافذة وهم يبعدون كلبا

شريدا ويضربون رأسه ووجهه بكتل الثلج ، فهم في الصيف يقذفون الكلاب بالحجارة والطوب ، وفي الشتاء بكرات الثلج .

بعد قليل ارتفع من خلف الباب صوت رقيق يقول : - أحضرت البنجر يا أطفال ، أحضرت بنجر ساخنا وحلو المذاق .

سألت مراقب الفصل : - كاظم ، من هذا ؟

قال كاظم : - ليس سواه ، إنه " تارى وردى " يا سيدي ، وهو يبيع البنجر في الشتاء ، أتريد دعوته للداخل ؟!

فتحت الباب فدخل " تارى وردى " بسلة البنجر ، كان يعقد شالاً قطنياً قديماً على رأسه ووجهه ، بينما فردة حذائه بلاستيكية والأخرى من الأحذية الرجالية العادية ، وكانت سترته تصل إلى ركبته ، ويدها مختلفيتين تحت كميهما وأنفه كان قد إحمر من شدة البرد ، ووجهه يدل على أن عمره يتراوح ما بين العاشرة والثانية عشرة .

ألقى " تارى وردى " السلام ، ووضع سلة البنجر على الأرض ، وقال : - أسمح يا سيدي أن أدفئ يدي ؟

سحبه الأطفال إلى جوار المدفأة وأعطيته كرسيًا ، فلم يجلس وقال :- لا يا سيدي ، أستطيع أن أجلس على الأرض هكذا .

وكان الأطفال الآخرون قد جاءوا على صوت " تارى وردى " وازبحم بهم الفصل فأجلست الجميع في أماكنهم .

تدفأ " تارى وردى " قليلاً ثم قال : - أترغب في البنجر يا سيدي ؟

ودون أن ينتظر جوابي أمسك ببرام وأزاح عنه منديلاً قذراً ملوناً فتصاعد منه بخارٌ لذيذ وكان فوق البنجر سكين ، قبضتها مصنوعة

من قرن الحيوان . إختار " تارى وردى " واحدة وأعطاهما لي وقال : -
من الأفضل أن تنزع قشرتها بنفسك ، سيدي من الممكن يداي ...
فنحن قرويون على أي حال ، لم نرا المدينة ، ولا نعرف ما يمكن
إتباعه .

كان يتحدث مثل شيخ محنك ، وضغطت البنجر بين يدي ، وقشرت
جلده الدهني فخرج منه لون أحمر قان جميل ، وقضمت قطعة منه
فكان حلو المذاق جدا .

قال " نوروز " من آخر الصف : - لا يوجد مذاق بنجر حلو مثل بنجر
" تارى وردى "

قال كاظم : - أخته هي التي تطهيه ، وهو يبيعه ، فأمه مريضة
ياسيدي .

تفرست في وجه " تارى وردى " ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة حلوة
كابتسامة الرجال ، وكان قد خلع الشال القطنى عن رقبته ، فبدأ
شعر رأسه وقد غطى أذنيه .

قال : - يا سيدي لكل إنسان عمل وكسب ، وهذا عملنا نحن .

فقلت : - مم تشكو أمك يا " تارى وردى " ؟

قال : - قدماها لا تتحركان ، والعمدة يقول أنه شلل !! عموما
لا أعرف يا سيدي .

قلت : - وأبوك ؟

فقاطعنى قائلاً : - مات .

قال أحد الأطفال : - كانوا يسمونه " عسكرا المهرب " يا سيدي .

قال " تارى وردى " : - كان يتقن ركوب الخيل ، ونهايته كانت ذات

يوم بأعلى الجبال ، فقد أصيب برصاصة وقتل ، ضربه عساكر الأمن وهو فوق جواده .

تجاذبنا أطراف الحديث ، بعدها باع للأطفال بنجر بحوالى قرانين أو ثلاثة . وذهب ولم يأخذ منى نقودا ، وقال : - هذه المرة أنت ضيفى ، وستدفع المرة القادمة ، أنظريا سيدى ، نحن لا نفهم فى أمور التكلف وما إليها .

وأخذ " تارى وردى " يسير على الثلج صوب القرية ، وكلنا نسمع صوته، وكان يقول : - عندى بنجر - أحضرت بنجر ساخنا وحلو المذاق أيها الناس .

وكان كلبان يحومان حوله ويهزان ذيليهما .
حكى الأولاد لى كثيرا عن " تارى وردى " وأن له أختا تدعى " سولماز " تكبره بسنتين أو ثلاث . وعندما كان أبوهما على قيد الحياة ، كانوا يحيون حياة كريمة ، ولكن بعد موته أصابهم العوز والحاجة . فذهبت الأخت أولا إلى الحاج " قلى " النساج، ثم لحق بها أخوها ، ويعد ذلك تشاجرا معه وترك العمل .

قال " رضا قلى " : - كان الحاج " قلى " عديم الشرف ، يؤذى أخته ، فكان ينظر إليها بشهوة يا سيدى .

قال " أبو الفضل " : - يا سيدى ، كان " تارى وردى " يرغب فى قتل الحاج " قلى " بمشط النسيج .

كان " تارى وردى " يأتى إلى الفصل كل يوم مرة أو مرتين ، وأحيانا كان يأتى إلى الفصل بعد أن يبيع كل البنجر ويجلس ويستمتع إلى الدرس .

وذات يوم قلت له : - " تارى وردى " .. سمعت أنك تشاجرت مع
الحاج "قلى" هل تستطيع أن تقول لى كيف ؟!
قال " تارى وردى " : - إنه موضوع قديم ، لا أريد أن أوجع رأسك
ياسيدى .

قلت : - أكون سعيدا جدا إذا استمعت إلى كلامك من البداية
للنهاية .

بدأ " تارى وردى " فى الكلام وقال : - فلتسمح لى يا سيدى ، كنت
وأختى نعمل منذ صغرنا لدى الحاج "قلى" وكانت أختى قد ذهبت
إليه قبلى ، وكنت أعمل تحت إشرافها ، وكانت تتقاضى هـى عشرين
ريالا ، بينما كنت أتقاضى أقل منها قليلاً .

وكان ذلك منذ سنتين أو ثلاث . وكانت أمى مريضة لا تعمل ولكنها لم
تكن مقعدة . وكان يعمل بالمصنع حوالى ثلاثين أو أربعين طفلاً . وهم
موجودون إلى الآن ، وكان هناك خمسة أو ستة مدربين . وكنت
أذهب أنا وأختى فى الصباح ، ونعود ظهراً ، ونذهب بعد الظهر
ونعود عصرأ ، وكانت أختى تضع حجابها فى المصنع لكنها لم تخفى
وجهها عن أحد وكان المدربون فى العمل فى منزلة أبينا ، والآخرين
كانوا مجرد أطفال ، وكان الحاج "قلى" صاحب العمل .

... سيدى بعد ذلك كان الحاج "قلى" عديم الشرف ، يأتى ويقف فوق
رؤوسنا ويطليل النظر إلى أختى ، وأحياناً يربت على رأسها ، أو على
رأسى بيده ، وكان يضحك بفتور ، ويمر علينا دوماً ، ولم أكن عندئذ
استشعر أذى منه لأنه صاحب العمل ، ويبدى لنا حبه ، ومضت فترة ،
وذات يوم خميس عندما كنا نتقاضى أجرنا الأسبوعى ، أعطى أختى

علاوة عشرة ريالات وقال لها : - أمك مريضة ، أنفقى هذا عليها .
وبعد ذلك ضحك فى وجه أختى ، ولم أشعر بارتياح مطلقا ، وكانت
أختى تبدو خائفة ، ولكنها لم تقل شيئا ، وذهبنا نحن الإثنان إلى
أمننا . وعندما سمعت أمى أن الحاج "قلى" قد أعطى لأختى أجرا
إضافيا استغرقت فى التفكير ، وقالت : - بعد ذلك لا تأخذى مثل
هذه النقود الإضافية .

ومنذ اليوم التالى رأيت مشرف العمل والصبيان الكبار يهمس كل
منهم فى أذن الآخر ، وكأنهم أرادوا ألا أسمع أنا وأختى .

... سيدى ! وفى يوم الخميس التالى ، ذهبنا آخر الجميع لنتقاضى
أجرينا ، كان الحاج "قلى" بنفسه قد قال لنا تعاليا إلى فى وقت
الفراغ ، فالحاج يا سيدى كان قد ضاعف أجرينا وقال : - غدا سوف
أتى لمنزلكما ، فلى حديث مع أمكما .

بعد ذلك ضحك فى وجه أختى ، ولم أشعر أنا بارتياح مطلقا ، وتغير
لون وجه أختى وغضت بصرها .

إسمح لي يا سيدى ، فقد طلبت منى أن أقص كل شئ ، ذهبت إلى
الحاج وألقيت له ما أضافه من نقود وقلت له : - سيدى الحاج ، إننا
لا نحتاج لمال إضافى فأمى تغضب من ذلك .

عاود الحاج الضحك وقال : - لا تكن حماراً يا عزيزى ، فهذا ليس لك
أو لأمك حتى تتضايقا أو تسعدا ، وفى ذلك الوقت أخذ النقود
الإضافية وأراد أن يضعها فى يد أختى ، فتراجعت أختى وأسرعت
إلى الخارج ، وغلبنى البكاء من شدة الغيظ ، وكان مشط النسيج على
المكتب ، فرفعته ودفعته فى وجهه ، فشج مشط النسيج وجهه ، وأخذ

ينزف ، وصرخ وطلب النجدة ، فأسرعت إلى الخارج ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ، وصلت إلى البيت ، وكانت أختي قد سبقتنى ، وجلست وقبعت القرفصاء بجوار أمي وهي تبكي .

جاء العمدة ليلاً يا سيدي ، فقد شكاني الحاج "قلى" إليه ، وكان قد خاطبه أيضاً قائلاً : - أريد أن أصبح فرداً من العائلة ، وإذا لم يحدث فسأضع الولد في يد الأمن لينتقموا منه . قال العمدة : - لقد أرسلنى الحاج خاطباً ، أتقبلون أم لا ؟

فقلت : لا..يا سيدي، إن زوجة الحاج وأطفاله الآن في المدينة ، وبالإضافة إلى زوجاته الشرعيات الأربع ، فإن لديه عشرة أخريات من زوجات المتعة . لا مؤاخنة، إنه خنزير عفن وبن ، سمين وقصير ، نولحية قصيرة ، ذات شعر أشمط ، وله طاقم أسنان صناعية بعضها من الذهب ، ويمسك بيده مسبحة طويلة ، عافاك الله ، إنه خنزير بن ، شيخ وعاجز .

قالت أمي للعمدة : - لو كان لدى مائة بنت لن أعطى واحدة منهم لهذا الضبع العجوز ، يكفينا كل ما عانيناه ، وكان العمدة يعلم في قرارة نفسه أن هذا النمط من الناس لا يمكن أن يصبح منا نحن القرويين قلباً وقالباً .

قال العمدة -يا سيدي- : - نعم ! حقا ما تقولين ... لقد أراد الحاج "قلى" أن يتزوج زواج متعة ، ولكن إذا رفضت فسوف يطرد طفلك ، ويعد ذلك سيؤذيه عن طريق الشرطة ، وأشياء من هذا القبيل ، فلتعلمي هذا .

كانت أختي قد أقعت خلف أمي ، وهي تقول ، بينما ينهمر الدمع من

عينها :- لن أذهب مرة أخرى إلى المصنع ، سيقتلنى ، إننى أخاف منه .

وفى الصباح لم تذهب أختى إلى العمل ، وذهبت بمفردى ، وكان الحاج "قلى" واقفاً على عتبة الباب ، وكان يُسبح . وقد خفت ياسيدى فلم أقترب منه . وكان الحاج "قلى" يربط الجرح الذى فى وجهه بقطعة من القماش ، وقال لى :- تعال يا ولد وأدخل فلا شأن لى بك . اقتربت منه وأنا خائف جداً ، وأردت أن أعبر من الباب ، فأمسك برسغى وألقى بى فى فناء المصنع ، وانهال على ضربا بقبضته وقدمه . وفى النهاية خلصت نفسى من يده وجريت ورفعت مشط النسيج - الذى كنت قد ضربته به بالأمس - فى وجهه ، فكم إنهال على ضربا بحيث عجنت ، فصرخت فيه قائلاً : أيها الديوث النذل ، الآن سأريك - بمشط النسيج - حتى تعرف مع من تتعارك؟! إنهم يقولون عنى ابن عسكرا المهرب حقا .

والتقط " تارى وردى " أنفاسه وعاد الحديث قائلاً : - سيدى ! كنت أريد أن أقتله فى مكانه ، لكن العمال تجمعوا وحملونى إلى بيتى ، وكنت أبكى من شدة الغيظ ، وأضرب الأرض بقدمي ، وأسب وألعن ، وكان الدم يتساقط من جرح فى وجهى وفى النهاية هدأت . كان لدينا عنزة كنت قد اشتريتها أنا وأختى بمائة ريال ، فبعناها ، وعشنا شهرا أو شهرين بالنقود التى كنا قد ادخرناها . وفى النهاية ذهبت أختى لدى امرأة خبازة ، وأنا أيضاً ، كلما ظهر لى عمل كنت أذهب فى أثره .

قلت يا : - " تارى وردى " لماذا لا تتزوج أختك ؟!

قال : - إن ابن الخبازة قد خطبها ، وأقوم أنا وأختى بإعداد الجهاز ليتزوجا .

كنت قد ذهبت هذا العام فى الصيف للتنزه فى القرية ، فرأيت " تارى وردى " فى الخلاء يرعى أربعين أو خمسين عنزة وخروفا ، فقلت له : - هل أعددت جهاز أختك أخيراً ؟

قال : - نعم ، وزفت ، وقد أتممت خطبتى أنا أيضاً ، والآن أجمع النقود لعرسى . فمنذ أن ذهبت أختى إلى بيت زوجها بقيت أُمى بمفردها ، وهى تريد أن تأخذ أحدا تحت جناحها وتتحدث معه ، وإلا صرت جاحداً ، لا تؤاخذنى يا سيدى !!!

٥- سيرة حبة ثلج

كنت قد وقفت ذات يوم ثلجي أنظر إلى الخارج ، كانت حبات الثلج تنزل متراصة ، وتحط على كل شئ ، حبل الغسيل وفوق الأشجار ، وعلى الجدران ، وفوق الإبريق على حافة الجدول ، فوق كل شئ .

كانت حبة كبيرة منها تتقدم ، صوب نافذتى ، فأخرجت يدي على حافتها ومددتها تحت حبة الثلج ، فاستقرت بهدوء على كفى ، كم كانت بيضاء ونظيفة!! شكلها جميل، منتظمة التقسيم ، وهمست لنفسى قائلاً : ليتها تتكلم ، لتحكى لى قصتها .

وفى ذلك الوقت ، تكلمت حبة الثلج وقالت : - إذا رغبت أن تعرف من أنا وما هي قصتى ، أنصت إلى جيداً . كنت قبل عدة أشهر قطرة ماء فى بحر "الخرز" ، اذهب هنا وهناك بصحبة مليارات المليارات من القطرات الأخرى ، وكنا نقضى يومنا على هذا النحو .

كنت أتجول ذات يوم صيفى على صفحة الماء ، وكانت الشمس محرقة ، فسخنت وتبخرت ، وتبخرت معى آلاف الآلاف من القطرات الأخرى أيضاً ، ومن خفة وزننا نبتت لنا أجنحة ، فارتفعنا الى أعلى دون أن نشعر ، والرياح خلفنا تسحبنا إلى كل اتجاه .

ارتفعنا لدرجة لم نعد نرى فيها آدميين ، وكانت كتل البخار تأتى من كل ناحية وتلتصق بنا ، وأحياناً كنا نذهب نحن أيضاً ونلتصق بكتل أكبر ، وتتداخل سوياً ، ونصبح أكثر تماسكاً وتوحداً ، فنسير سوياً ومرتفع ونبتعد ، وكان عدداً يزداد وتماسكنا أيضاً .

وأحياناً كنا نحجب نور الشمس وأحياناً ضوء القمر ، وفى هذه

الحالة نزيد الليل ظلاماً، بحيث أن بعض ذرات البخار كانت تقول :
كنا قد أصبحنا سحباً والرياح تهب داخلنا ، وتشكلنا أشكالاً عجيبة
وغريبة، فأنا شخصياً عندما كنت في البحر، كنت أحياناً أرى
السحاب على شكل جمل أو إنسان أو حمار وأشياء من هذا القبيل .
لا أعرف كم شهر ظللنا متجولين في السماء ، لقد ارتفعنا كثيراً، وكان
الهواء قد اشتدت برودته ، وكم كنا متداخلين سوياً لدرجة أننا لم نكن
نستطيع أن نمد أيدينا أو حتى أرجلنا !! فكنا نتحرك جماعة ككتلة
واحدة ولم أكن أعلم أين نذهب؟ ولم أر ما حولى ولم يكن هناك خبر
عن نور الشمس ، وكأننا قد حجبنا نورها ، وانتشرنا ، وأصبح طولنا
وعرضنا عدة مئات من الكيلو مترات ، وتمنينا أن نصير مطراً ونعود
إلى الأرض .

كاد قلبي يقفز من مكانه من شدة شوقى إلى الأرض ، ومضت فترة
فتحول نصفنا ماءً والنصف الآخر بخاراً . كنا نتحول إلى مطر ،
وفجأة تغير الجو وأصبح شديد البرودة ، وأرتعشت من شدة البرد ،
وارتعش الجميع معى ونظرت حولى وقلت لإحداهن : - ماذا حدث؟
فأجابت قائلة : - الأرض التى نحن عليها الآن فى فصل الشتاء .

بما لاشك فيه أن هناك أماكن أخرى من الممكن أن تكون حارة .
وهذا البرد المفاجئ يمنعنا من أن نتحول إلى قطرة ، أنظري، أنا
أتحول إلى ثلج وأنت أيضاً .

لم تستطع صديقتى مواصلة كلامها وتحولت إلى ثلج ، وسقطت على
الأرض ، ووراءها تحولت أنا ، وآلاف آلاف الذرات الأخرى الواحدة
تلو الأخرى وتساقطنا جميعاً على الأرض .

عندما كنت في البحر كان وزني ثقيلاً ولكني الآن أصبحت خفيفة الوزن ، أطيّر مثل الريشة ، ولم أعد أشعر بالبرد لأنه أصبح جزءاً من جسمي ، وكنا نرقص ونحن في طريقنا إلى الأرض .

وعندما اقتربت من الأرض ، أدركت أنني هابطة في مدينة "تبريز" وكم بعدت عن بحر "الخرز" !!

كنت أرى - من أعلى - طفلاً يضرب كلباً بعصا ، فأخذ الكلب يعوى ، وأيقنت أنني لو سقطت رأسياً سأقع على رأس هذا الولد ، وتمنيت من الرياح أن تنقذني وتحملني إلى مكان آخر ، ولبت الرياح رجائي وحملتني وأحضرتني إلى هنا ، وعندما رأيتك تمد يدك تحتي سررت منك واقتربت .

في هذه اللحظة ، انقطع صوت حبة الثلج ، فنظرت إليها ورأيتها قد تحولت إلى ماء.

٦- العجوز ودجاجتها الذهبية

كان هناك عجوز لا تملك من حطام الدنيا سوى دجاجتها الذهبية ، وكانت قد تمت هذه الدجاجة ذات ليلة فى المنام . وكانت العجوز تصنع دهان الوجه وتحمله إلى الحمامات لتبيعه . بينما الدجاجة الذهبية تتجول فى كوخ العجوز وفنائها الصغير باحثة عن النمل والعناكب . ومن همتها لم تكن نملة تتجاسر على أن تطأ كوخ العجوز ، حتى النمل الفارسى الكبير الحجم ، لم يكن ليقوى على ذلك . ولم تكن الدجاجة الذهبية تفرق بين نمل طيب ونمل غير طيب ، فهي تلتقطه بمنقارها وتأكله ، كما كانت تتصدى أيضا للقطط الفضولية التى تبحث فى كل مكان عن قطعة لحم ، فكانت تأتى وتقلب كل شئ رأسا على عقب .

كانت شجرة الجوز متكاثفة الأغصان والأوراق تنتصب مخضرة فى فناء العجوز ، وفى أوان ظهور الجوز ، كان مزاج الدجاجة الذهبية يصل إلى قمته ، فكلما هبت الرياح سقط الجوز فتكسره وتأكله .

أما العنكبوت فكان يستفيد من وحدة العجوز ومن شيخوختها ، فينسج شباكها داخل الرف وخلف الزجاجات الخالية ، ويضع بيضه . وكانت العجوز ذات يوم تملأ هذه الزجاجات بالخل وعصير الحصرم وماء الريحان والنعناع وتبيعها وتعيش على ثمنها ، ولكنها الآن تصنع دهان الوجه فقط ، وتركت زجاجاتها الملونة فارغة .

كان العنكبوت يخشى الدجاجة الذهبية ، ويفكر دائما فى أن نهايته ستكون ذات يوم بمنقارها . ذلك لأن الدجاجة كانت قد رآته أكثر من مرة على حافة الرف ، فهددته بأنه سيكون فى النهاية فريسة

سهلة لها ، وكانت قد أكلت العديد من صغاره أيضاً . ومن جهة أخرى ، كانت الدجاجة قد أجهزت على النمل الأصفر الصغير الموجود بالمنزل . وكان يأتي دائماً على رائحة الفضلات التي كانت العجوز تلقى بها على الرف ، وكان يعبر من خلف الزجاجات الفارغة ويأخذ حذره من العنكبوت ذلك الصياد الماهر .

ذات ليلة جاء العنكبوت إلى العجوز في منامها وقال لها : - أيتها العجوز ، ألا تعلمي قط أن الدجاجة الذهبية وقحة تبدد مالك وثروتك؟؟؟

قالت العجوز : اخرس ، دجاجتي الذهبية رقيقة وعطوفة ، إنها لم تفعل ذلك مطلقاً .

قال العنكبوت : - أنت لا تعرفين ، فأنت مثل القطا تدفنين رأسك في الثلج وتتوهمين أموراً ساذجة .

غضبت العجوز وقالت : - قل الصدق حتى أعرف ما هو قصدك ؟ قال العنكبوت : - وما الفائدة ؟ إن دلال الدجاجة وغنجها ، قد أعمى عينيك وسوف لا تصدقين كلامي .

نفد صبر العجوز وقالت : - إذا كان لديك دليل قوى على أن الدجاجة الذهبية تبدد مالي فسوف أذبحها وأجعل الكل حتى النمل يرثي لحالها .

عندما رأى العنكبوت أنه قد أقنع العجوز قال : - إنصتي وسوف أقول لك ، أيتها العجوز ، أنت تكدحين وتصنعين دهان الوجه وتسألين الآخرين وتحملين الدهان إلى الحمامات وتبيعينه وتأتين بلقمة خبز لتسدين بها جوعك ... وهذه الدجاجة الوقحة الشرهة لا تعبأ بك

مطلقاً ، فيجب عليها -على الأقل - أن تترك لك شيئاً من هذا الجوز لتبيعه وترتاحى يوماً أو يومين وتأكلى غداء أو عشاء دسماً . الآن صدقت أن الدجاجة الذهبية تبدد مالك؟

قامت العجوز من نومها مفزوعة غاضبة محتدة ، وأخذت تدبر وترسم للدجاجة الذهبية ، ولم تذهب فى الصباح لبيع الدهان ، وجلست داخل كوخها ، وثبتت عينيها على الفناء وعلى الدجاجة الذهبية التى كانت قد استيقظت مبكراً وأخذت تشاهد سطوع الشمس .

جاءت الدجاجة الذهبية أسفل شجرة الجوز وقالت لها : - يا رفيقتى الشجرة إلقِ إلى بواحدة أو اثنتين لأفطربهما .

هزت شجرة الجوز أحد أغصانها فسقطت عدة جوزات على الأرض . فأسرعت الدجاجة الذهبية صوبها ، فصاحت العجوز ، أيتها الدجاجة الصفراوية لا تلميسها ، لم يعد من حقك بعد أن تكسرى جوزاتى وتأكلينها .

أخذت الدجاجة تنظر إلى العجوز بدهشة وكأنها رأت عجوزاً أخرى ، فلم تعد ترى تلك العينين الرحيمتين ، وذلك الوجه البشوش وذاك اللسان العذب ، فلم تقل شيئاً ، ووقفت صامتة ، اقتربت العجوز منها وركلتها ركلة أطاحت بها إلى الطرف الآخر ، وجمعت الجوزات ووضعتها فى جيبها .

وأخيراً تحدثت الدجاجة الذهبية وقالت : - أمى ، ماذا أصابك اليوم؟ وكأن الشيطان حل بك !

قالت لها العجوز : صه ! لقد زاد تبجحك ،، قلت لك ذات مرة أنه ليس لك الحق فى أن تأكلى جوزاتى ، فإنى أريد بيعها .

أطرقت الدجاجة الذهبية خجلاً ، وذهبت وجلست أسفل الشجرة .
ذهبت العجوز إلى الكوخ ، وبعد قليل نهضت الدجاجة مرة أخرى
وقالت للشجرة : - يا رفيقتى الشجرة، إلقى إلى بواحدة أو اثنتين لأرى
ما سيحدث هذه المرة ، فاليوم قد تحول إفطارنا إلى سم زعاف .

هزت الشجرة غصناً آخر من أغصانها الممتلئة ، فسقطت منه عدة
جوزات على الأرض ، فأسرعت الدجاجة إليها وكسرتها وأكلتها ،
فجاءت العجوز إليها وصاحت قائلة : - أيتها الدجاجة الصفراء ،
سأريك الآن معنى أن تأكلى جوزاتى !!

قالت العجوز هذا الكلام واستدارت، وأوقدت المنقد وأمسكت
بالدجاجة الذهبية وقربتها منه، وألصقت مؤخرتها بالنار فاحترقت
والتهبت ، أخذت شجرة الجوز تهتز بشدة وتلقى بالجوز على رأس
العجوز، وجرحتها . فتركت العجوز الدجاجة ، وعندما أرادت جمع
الجوز رأتها وقد تحول إلى حجر ، فنظرت إلى الشجرة ثم نظرت إلى
الدجاجة ثم إلى نفسها ودخلت الكوخ وجلست .

قبعَت الدجاجة الذهبية فى زاوية من زوايا الفناء ، وهى تضع رأسها
تحت جناحها ، وكانت تخرج رأسها أحياناً وتلقى نظرة على
مؤخرتها المحترقة ثم تمسح دموعها المتساقطة بطرف جناحها ،
وبعدها تعود لوضعها السابق ، ولم تعبأ العجوز بدجاجتها الذهبية .

وقرب الظهر هبت عاصفة فألقت بالجوز على الأرض ولم تتحرك
الدجاجة من مكانها ، وهبت الريح مرة أخرى وأسقطت جوزاً آخر
على الأرض . ظلت الدجاجة الذهبية فى حالها ولم تتحرك من
مكانها ، وحتى العصر لم يكن هناك مكان خال فى فناء العجوز من

كثرة الجوز. وظلت العجوز تحملق فى سجاجتها الذهبية فلم تر شيئاً سواها ، وفجأة سمعت صوتاً يقول : - أيتها العجوز الشجاعة - أجلسي هذه الدجاجة الصفراوية فى مكانها ، فلماذا أنت عاطلة الآن ؟ انهضى واحملى جوزاتك وبيعيها ، إن الشمس قد قربت على المغيب وللآن لم تحضرى طعامك .

إلتفتت العجوز فإذا بعنكبوت كبير كان يأتى من الرف السفلى ، وكانت هناك قرية حذاء بجوارها ، فحملتها وهوت بها بشدة على العنكبوت ، وما هي إلا لحظة حتى لم يبق من العنكبوت سوى رسمه على الحائط . وفى ذلك الوقت جففت العجوز دموعها بطرف عباؤها ونهضت وذهبت إلى سجاجتها الذهبية وقالت لها : - يا سجاجتى الذهبية يا لطيفة يا عطوفة ، لقد سقط الجوز كله تحت قدميك ، ألا ترغبى فى أن تكسريه وتأكليه ؟

قالت الدجاجة دون أن ترفع رأسها : - لقد أهملتني ، هل نسيت بهذه السرعة أنك أحرقت مؤخرتى ؟ ربتت العجوز على الدجاجة وقالت : - يا سجاجتى الذهبية يا لطيفة يا عطوفة ، لقد سقط الجوز كله تحت قدميك ، ألا ترغبى فى أن تكسريه وتأكليه ؟

رفعت الدجاجة الذهبية - هذه المرة - رأسها ونظرت إلى وجه العجوز فرأت تلك العينين الراضيتين الرحيمتين ، وذلك الوجه البشوش الضاحك ، وذلك الفم الذى يقطر عسلاً ، فعادت تقول : - لماذا لا أريد يا أمى العزيزة ، أتضعين مرهما على جرحى ؟

قالت العجوز: أضع ،، ولماذا لا أضع ؟! انهضى يا دجاجتى الذهبية
اللطيفة العطوفة ولنذهب الآن إلى الكوخ .
وفى تلك الليلة لم تحتو مائدة العجوز والدجاجة إلا على الجوز فقط،
وفى الصباح نهضت العجوز وأزالت خيوط العنكبوت الموجودة فى
كل زاوية وكل ركن وألقت بها بعيداً .

٧- قُطَّان فَوْقَ الْجِدَارِ

كانت ليلة من ليالى الصيف ، لم يكن هناك قمر ، ولا نجمة ،
ومن ثم كان الظلام دامساً والوقت منتصف الليل ، كانت الجنادب
تصر ولم يكن هناك صوت غير صريرها ، بينما كانت قطرة سوداء تأتي
من الطرف البعيد للجدار ، وكانت قد طأطأت رأسها وهي تمشي
بهدوء وتتشمم هنا وهناك.

ومن الطرف الآخر للجدار كانت قطرة بيضاء تتقدم ، ورأسها هي
الأخرى منحنية ، تسير بهدوء وهي تتشمم الأرض .

أخذت كل منهما تتقدم ، وفى وسط الجدار اصطدمت رأس كل
منهما بالأخرى فزامتاً ، تراجعت كل واحدة منهما للخلف مسافة
شبر ، ثم وقفتا بعد ذلك وتنمرت كل منهما للأخرى ، ولم تكن المسافة
بينهما تزيد عن شبرين ، وكان قلباهما يدقان بشدة وانتظرتا برهة ،
ولم تفعل شيئاً بل كانتا تموءان وتحملقان فحسب .

فجأة تقدمت القطرة السوداء زاحفة ، فتحركت القطرة البيضاء ،
وماءت مانعة إياها قائلة لها بحدة : لا تأتى ... مياو

لم تهتم القطرة السوداء وتقدمت زاحفة ثانية وأخذت كل منهما تزوم .
صار يفصل بينهما شبر واحد ، وأخذت القطرة السوداء فى التقدم إلى
الأمام ، فحذت القطرة البيضاء حذوها ، ومدت مخالبتها الحادة إلى
القطرة السوداء ومزقت أذننها ، ثم أخذت بعد ذلك تصرخ فيها قائلة :
ألم أقل لك أيتها الحمقاء ألا تتقدمى ؟!

صرخت القطرة السوداء بدورها : باف ف ... اووف!!

لكنها لم تستطع أن تجرح خصمها ، فازداد غضبها ، وتراجعت قليلاً
للخلف ثم نهضت وماءت قائلة : - مياو!! إفسحى الطريق لكى أمر ،

والا فكل ما يحقق بك منك .

وتعالت ضحكات القطّة البيضاء ، ولعقت شواربيها وقالت : - يا له من كلام مضحك، ذلك الذى تعرفين !! أفسح لك الطريق لتعبرى ؟ إذا كان إفساح الطريق عملاً جيداً فلماذا لم تفسحى أنت الطريق لأذهب إلى آخر الجدار .

قالت القطّة السوداء : - قلت لك افسحى الطريق لأمر، ثم تعالى بعد ذلك واذهبى إلى أى جحيم تريدين .

فضحكت القطّة البيضاء ضحكة عالية وقالت : - إن لم تسمعى كلامى هذه المرة سألتهمك دفعة واحدة .

غضبت القطّة السوداء غضباً شديداً ، وفجأة مادت قائلة : - تراجعى واذهبى إلى السطح ، افسحى لأعبر أيتها الفأر الميت !!

غلى الدم فى عروق القطّة البيضاء ، وتجهمت ومادت بصوت مرتعد من أعماق حلقها قائلة : - أقتلى فأراً أيتها الحمقاء !! اوووف ، خذى ب.. بيف ف ف ... !!

ومدت مخالبتها مرة أخرى تجاه القطّة السوداء ، وكانت القطّة السوداء متحفزة هذه المرة ، فضربت أنف القطّة البيضاء ومزقته فنزف، ولم يكن آنذاك من الممكن منع القطّة البيضاء ، وقوست ظهرها ، وانتصب شعرها ، وأحدثت من الأصوات ما جعل الجنادب تقطع صريرها ، وصارت كلها آذانا صاغية .

وكانت هناك برعمة حمراء تتفتح تدريجياً ولم تكمل تفتحها ، بينما كان نجم ضخّم فى السماء يبدو واضحاً جلياً .

ومادت القطّة البيضاء وهى فى شدة غضبها قائلة : - مياو...! ألم

تسمى ما قلت ؟ تراجعى ، أفسحى الطريق لأمر أيتها الفأر الأسود المتهافت .

وجاء الدور على القطعة السوداء لتضحك ، فضحكت وقالت : - أولاً الفأر فى الغالب أبيض اللون أكثر منه أسود ، إذن فألفأر هو أنت ، ثانياً : لا تحدثى جلبه وضوضاء فيستيقظ الناس ويجيئون لضربنا ضرباً مبرحاً ، أنا شخصياً لا أفزع من الجلبة والضوضاء ولن أراجع ، وسأبقى فى مكانى حتى يفرغ صبرك وتراجعى وتذهبين إلى حال سبيلك .

هدأت القطعة البيضاء قليلاً وقالت : أنا التى يفرغ صبرى ؟ لقد كنت أود أن تأتى إلى مسمط "حسن الأكارعى" عند الظهر فترين كيف انتظرت ثلاث ساعات لا تطرف لى عين وقابعة أمام جحر فأر ولم تنبس القطعة السوداء بحرف وكانت قد قبعبت هادئة تحملق ، وقبعبت القطعة البيضاء أيضاً ولم تقل شيئاً . وتناهى إلى الأسماع بكاء طفل ، ثم انقطع ، ثم عاد صرير الجنادب وخشخشة الزهور التى كانت منهمكة فى التفتح .

مكثت كل من القطعتين تحملقان فى بعضيهما لمدة دقيقتين ولم تستسلم إحداهما ،

ولكن من الواضح أن صبر كليهما كان قد فرغ ، وكانت كل واحدة منهما تريد أن تبدأ الأخرى بالكلام .

فجأة ماءت القطعة البيضاء قائلة : - وجدت حلاً

فقالت القطعة السوداء : أى حل ؟

قالت القطعة البيضاء : - إن لدى عملاهما ، هاما جداً ترجعين أنت

لآخر الجدار ثم أتى أنا وأمر ، وبعد ذلك تذهبين أنت .
ضحكت القطة السوداء وقالت : - عجباً لهذا الحل ! أنا نفسي لدى
عمل مهم وسريع وفورى ، فلن أستطيع التوقف ولولنصف ثانية .
قالت القطة البيضاء بدهشة : ثانية لا تتفاهمين !! قلت لك لدى عمل
هام ، وافقى ، وابتعدى عن طريقى .

قالت لها القطة السوداء بصوت أكثر حدة : مياو !! من تكونين حتى
تأمرينى ، إفهمنى ما تنطقين به !!

زامت القطة البيضاء ، وتحفزت وماءت بحدة : مياو ، أنا أفهم
كلامى جيداً ، إنك أصلاً عنيدة ، فلا بد أن أذهب إلى بيت "حسن
الأكارعى" فإننى أشم رائحة لحم الرأس والأكارع من هنا، أفهمت
الآن أى عمل ضرورى لدى؟

زامت القطة السوداء وماءت قائلة : - أعتقدين أننى أسمع عبثاً
على جدران الناس؟ فأنا أيضاً شممت رائحة "القرمه سبزی" وأنا
جائعة جداً . وإن وقفت فى طريقى ثانية فسأضربك حتى تسقطى
أسفل الجدار ويتحطم مخك .

لم تستطع القطة البيضاء أن تكبح جماح نفسها وماءت قائلة :
مياو !! إنتحى جانباً أيتها الحمقاء !! ... بيف بيف ! خنى ...

وبدعة واحدة مدت مخالبتها ومزقت شعر رأس القطة السوداء فتطاير
فى الهواء ، وأخذت كل منهما تزوم على الأخرى ، واشتبكتا وأخذت
كل منهما تكيل السباب والفحش على رأس الأخرى . إذ جاء
شخص من أسفل السور ، وسكب عليهما ماء بارداً ، فاضطربت
كلتاها وعادتتا مسرعتين وفرتا هاربتين .

وهربت كل منهما من الطريق الذى كانت قد أتت منه ، دون أن تنظر
خلفها .

٨- دوبرول المكنون

فى يوم من الأيام كان هناك بين قوم الغز بطل يدعى " دومرول ديوانه سر " ، كانوا يطلقون عليه "ديوانه" بمعنى المجنون لأنه فى طفولته كان قد قتل تسعة من الثيران الوحشية ، كما قام بأعمال بطولية أخرى كثيرة ، أما الآن فقد أقام جسرا على مجرى نهر جاف وأخذ يجبر القوافل والعابرين على أن يمروا من فوق جسره مقابل ثلاثين قطعة فضية لكل من يعبر ، وكان يضرب كل من كان يمتنع ويريد أن يعبر من طريق آخر ضربا مبرحا بالهناء والشفاء ، ويأخذ منه أربعين قطعة فضية ويعبر .

ألم تكون تسألون أنفسكم قط لماذا كان يفعل "دومرول" هكذا ؟ كان " دومرول " نفسه يقول : أريد أن يظهر بطل قوى يتمرد على ويقاتلنى فأطرحه أرضا ويذاع خبر بطولتى فى جميع أنحاء العالم وتتناولها الألسن، هكذا كان " دومرول " بطلا شجاعا .

ذات يوم جاءت إحدى الجماعات وضربت خيامها على حافة جسره ومن بينها شاب معروف بحسن خلقه وبطولته ، وذات يوم مرض فجأة وفاضت روحه ، وتعالى الصياح والصراخ والعويل حتى وصل إلى عنان السماء ، كان أحدهم يصرخ قائلاً وهو يشعد شعره : واحسرتاه يا بنى ، وكان آخر يقول : واحسرتاه يا أخى ، وهويحثو التراب على رأسه ، أخذ الجميع يبكون ويولولون ويذكرون اسم ذلك البطل .

عاد " دومرول " من الصيد - فجأة - فسمع صوت النواح والعويل ، فغضب وصاح قائلاً : أيها الخبيثاء ، لماذا تبكون ؟ ما هذا النواح والعويل بجوار جسرى ؟

تقدم كبار الجماعة وقالوا : - أيها البطل لا تغضب ، كان لدينا شاب شجاع مات اليوم فحسب ورحل عنا ، ولذلك ترانا نبكى .

سل " دومرول ديوانه سر " سيفه وصاح قائلاً : من قتله ! من تجراً
ليقتل بجوار جبرى ؟

قالوا له : أيها البطل ، لم يقتله أحد ، فقد أمر الله " عزرائيل " ذا
الأجنحة الحمراء ، وقبض روح ذلك الشاب .

صاح " دومرول ديوانه سر " بغضب : من عزرائيل هذا ؟ أنا لا أعرف
عزرائيل ولا غيره ، يارب استحلفك بأن ترسل عزرائيل هذا إلى
ولتجعلنى أراه حتى أصارعه وأسحقه وأبدي رجولتى ، وأسترد منه
روح هذا الشاب البطل ، فلا يقتل بعد ذلك شخصاً غدرأ ، ولا يأخذ
أرواح الأبطال الشجعان مرة أخرى .

- عاد " دومرول " إلى بيته بعد أن أتم حديثه هذا .

غضب الله من كلام " دومرول " وأمر عزرائيل قائلاً : - يا عزرائيل
أرأيت ما قاله هذا المجنون الخبيث ؟ إنه يكفر ولم يشكر قدرتى
ووجدانيتى حق شكرها ويريد التدخل فى أمري ، ويفخر بنفسه كل
هذا الفخر .

قال عزرائيل : - مرنى يارب أن أذهب وأقبض روحه حتى يثوب إلى
رشته ويعرف معنى الموت .

أمر الله عزرائيل قائلاً : يا عزرائيل إهبط الآن ، وأظهر نفسك أمام
هذا المجنون وأدخل الرعب فى نفسه ثم أقبض روحه وعد بها إلى .

قال عزرائيل : سأذهب الآن إلى " دومرول " وألقى نظرة عليه سيهتز
من رؤيتى مثل شجرة الصفصاف ، ويشحب لونه ويصبح مثل لون
الزعفران .

كان " دومرول ديوانه سر " جالسا في منزله مشغولا بالحديث مع أربعين من أبطاله المصطفين يتحدثون عن صيد الأسود والظمور وعن بطولاتهم بينما كان الحراس في الخارج يحرسون الأبواب - وفجأة ظهر عزرائيل أمام " دومرول " ولم يره أحد من الحراس ، ظهر في صورة شيخ قبيح دميم لدرجة أن أسد الأدغال نفسه يموت هلعاً من رؤيته، وكانت عيناه العمشاوان تنفذان إلى القلب.

وبمجرد أن رآه " دومرول " أظلمت الدنيا أمام عينيه، وفقد السيطرة على يديه فأخذتا ترتعدان وتمرر عيشه ، فصرخ وتعالى صيحاته - الآن أنظر لترى ماذا قال " دومرول " :

أيها الشيخ المخيف من أنت !! بحيث لم يرك حراسي ؟ لقد جعلت ما أمام عيني مظلماً ، وجعلت يدي ترتعدان ، يا ذا اللحية البيضاء ، قل ... حتى أرى من أنت الذي بعثت الرعدة في جسدي وألقيت بكأسى الذهبى على الأرض؟ أيها الشيخ الأعمش قل ماذا تفعل هنا وإلا سوف أنهض من مكاني وأمطر رأسك بالبلايا ، فتصبح قصة تتناولها الألسن .

كان " دومرول " في قمة غضبه وشرع يمضغ شاريه ، وهو يضغط بيده على مقبض سيفه ، والأبطال الآخرون جالسون في صمت وهم على يقين أن هذا الشيخ لن يفلت حياً من يد " دومرول " مطلقاً .

ولما انتهى " دومرول " من كلامه، قهقه عزرائيل وقال : أيها المجنون الخبيث! ألم تعجبك لحيتي البيضاء هذه ؟ فلتعلم أنني قبضت أرواح كثير من الأبطال ذوي الشعور السوداء، لم تعجبك أيضاً عيني

العمشاء أليس كذلك؟ فلتعلم أيضاً أنني قبضت أرواح كثير من البنات والعرائس الشابات ذوات العيون الساحرة ، وألبست كثيراً من الأمهات والأزواج ثياب الحداد .

لم يكن صوت يصدر عن أحد ، وكان فم " دومرول " قد أرغى وأزبد من كثرة الكلام ويريد بأسرع ما يمكن أن يُعرف الشيخ نفسه ، كي ينهض ويضربه بسيفه فيشطره نصفين ، وصاح قائلاً : - أيها الشيخ قل ما اسمك حتى أعرف من أنت وإلا قتلتك بدون معرفة اسمك أو كنيته ، لقد عيل صبرى .

قال عزرائيل الآن ستعرف من أكون ! أيها المجنون الخبيث ، أتتذكر أنك تفاخرت بنفسك وقلت لو أنني أرى عزرائيل ذا الجناح الأحمر لقتلته وخلصت أرواح الناس منه ؟

قال " دومرول " : أكرر ذلك أيضاً ، لو وقع عزرائيل فى يدي سوف أقتل أجنته وأدق رأسه .

قال عزرائيل : أيها المجنون العنيد ، الآن لقد جئت لأقبض روحك ، فهل ستعطينى روحك أو تدخل معى فى حرب ضروس ؟
عندما سمع " دومرول ديوانه سر " نهض وصاح ، آه : أنت عزرائيل ذو الجناح الأحمر ؟

قال عزرائيل : نعم ، أنا .

قال " دومرول " : - لكن أين أجنتك ، أيها الشقى .

قال عزرائيل : إن لى ألف شكل .

قال " دومرول " : - أتقبض أرواح كل هؤلاء الأبطال والعرائس أيها الجبان ؟

قال عزرائيل : صدقت ، الآن جاء دورك أيضاً
صاح " دومرول " قائلاً : - يا سيئ الطوية كنت ابحت عنك فى
السماء ، فوقعت بين براثنى فى الأرض ، الآن سأعلمك كيف تقبض
الأرواح؟

وبعد أن أنهى " دومرول " كلامه أمر الحراس قائلاً : - أيها الحراس
أغلقوا الأبواب ، وانتبهوا حتى لا يهرب هذا المعلوم المهمة .
وأثناء حديثه استل " دومرول " سيفه وأشهره وهجم على عزرائيل ،
فتحول عزرائيل إلى حمامة وطار من كوة ضيقة بالسقف واختفى ،
فضرب " دومرول " كفاً بكف وقهقه وقال للأبطال : - أرايتم كيف أن
عزرائيل خاف من ضربة سيفى وفر هارباً ، ومن شدة فزعه، ترك
الباب المفتوح واختفى فى الجحر مثل الفأر ، لكننى لن أكف يدي
عنه ، انهضوا يا أبطالى سوف نذهب فى أثره وأقسم أنى إذا لم أصده
بصقري فلن أتركه يهدأ ويرتاح أبداً .

وانطلق الأبطال الأربعة مع " دومرول " ممتطين جيادهم فى أثر
عزرائيل ، وكان " دومرول " واضعاً صقر صيده على ساعده منطلقاً
بجواده فى إثر عزرائيل ، وكلما رأى حمامة انقض عليها، ولكنه لم يكن
يجد عزرائيل!!

وفى العودة صار وحيداً وكان يسير فى طريق غير مطروق ربما يمسك
بعزرائيل فوصل إلى جوار حفرة - وفجأة - ظهر عزرائيل أمام عين
حصان " دومرول " وكان الحصان يخب فجفل فجأة ورفع " دومرول "
وألقى به فى الحفرة وانحنت رأس " دومرول " ، سوداء الشعر وبيقت
معوجة ، فنزل عزرائيل إليه ووضع قدمه على الفور على صدر

" دومرول " الأبيض وجلس على صدره وقال له : - يا " دومرول ديوانه سر " ما قولك الآن ؟ الآن ها أنا أقبض روحك، لماذا تعريد وتحدث عن بطولاتك ؟

أجاب " دومرول " وكان صوته قد تحشرج قائلاً ، يا عزرائيل لم أكن أعرف أنك غير متسامح هكذا ، وأنتك تزهب الروح مثل قطاع الطرق وتطعن بالخنجر فى الظهر هكذا ...

قال عزرائيل ، لا تهذى ! إذا كان عندك كلام معقول فقل لأنك تحتضر.

أصبح " دومرول " البطل الشجاع المقدام الشهم أسيرا لمخلوقا غير متسامح ، يتلون فى الف شكل ويزهب الروح كقطاع الطرق ويطعن فى الظهر ، أصبح " دومرول " ذلك البطل الحر الآن فى حالة يرثى لها وأخذ قلبه يدق بشدة ولم يكن يريد الموت ، بل يريد أن يعيش حياة مليئة بالفرح والسعادة له وللجميع بل يوفرها هو للجميع ، ذلك الرجل الذى كان يضحي بروحه ونفسه من أجل قومه وهو الذى جلب السعادة لموطنه .

أخيرا ، قال " دومرول " يا عزرائيل ، إمنحنى فرصة لمدة دقيقة واحدة واستمع وانظر ماذا أقول : - فى أرضنا الجميلة جبال ضخمة ذات قمم ثلجية وشاهقة الارتفاع لدرجة أن نبال بطل مثلى لا تصل إلى قممها ، وأسفل جبالنا هذه حدائق غناء مملوءة بالأشجار وخاصة أشجار الكروم التى تثمر العنب الأسمر فكم هو طيب ولذيذ ونظيف ونقوم نحن بعصره وتعبئته فى جراره ونتركه حتى يصبح شرابا ثم نشربه ونسكر ونفقد الوعي تماما ونشعر أننا أصبحنا أقوياء ، ونظل

نصرخ صرخات مدوية تجعل أسد الأدغال يرتعد من شدة الخوف
ويقشعر الشعر على جلده . لقد شريت من هذا الشراب وغبت عن
الوعى ولم أعرف ماذا قلت ، حتى غضب الله على ، فإننى لم أمل
البطولة ، ولم أشبع من الحياة ، ومن ثم فإننى أخشى الموت ، لا أريد
أن أموت ، إننى أرغب فى الحياة ، لأحقق بطولات وأقدم الإحسان ،
يا عزرائيل النجدة ، لا تقبض روحى ، اتركنى فى حالى واذهب
وأقبض أرواح الذين يبحثون عن سعادتهم على حساب شقاء
الآخرين ، ويحصلون على خبزهم على حساب الجوعى ، اذهب ...
قال عزرائيل :- لا تهذى يا وقح ، فإننى أشتم رائحة الكفر فى توسلك ،
فلا تقوسل بى فأنا مخلوق عاجز مثلك ، وليس بىدى شئ فأنا فقط
أنفذ أوامر الله .

قال " دومرول " :- هل يقبض الله أرواحنا ؟
قال عزرائيل : حقا . هذا الأمر ليس لى به علاقة .
قال " دومرول " :- إذن لماذا تزج بنفسك ؟ أغرب عن وجهى أنت
وسأدبر أمرى بنفسى .

نهض عزرائيل من فوق صدر " دومرول " ، ولكنه ظل يضغط بقدمه
على صدره الأبيض فضاق نفس " دومرول " وأخذ عزرائيل يشعر
بضربات قلبه تحت قدمه فأيقن أنه خائف .

بسط " دومرول " قدمه المكسورة ونظف جبهته من الدم وقال :-
يارب ، لا أعرف من أنت ؟ وماذا تكون ؟ وأين أنت ؟ فالجهلاء
يبحثون عنك كثيرا فى السماء وفى الأرض ولكنهم لا يعلمون قط أنك
فى قلب البشر ، إذا أردت أن تأخذ روحى فخذها أنت ، ولا تدع

عزرائيل هذا الذى لا يرعوى يقبضها .

قال عزرائيل : أيها المسكين ، أشتم رائحة الكفر أيضاً فى الإلتماس والدعاء ، ألا ترغب فى الخلاص ؟

اعجب الله بكلام " دومرول " وأمر عزرائيل قائلاً : يا عزرائيل ليس هذا شأنك قل لـ " دومرول " أن يبحث عن روح أخرى ليعطيها لى ، ولا تقبض روحه .

قال عزرائيل : يا رب ، هذا الإنسان وقع ، وتركه لنفسه أمر غير طيب .

أمره الله قائلاً : يا عزرائيل : لا تتدخل فى شأنى مرة أخرى رفع عزرائيل قدمه من على صدر " دومرول " وقال له : - إنهض ، وإن تستطيع أن تدلنى على روح أخرى بدلا من روحك ، فدلنى وسوف أتركك لحالك .

تحرك " دومرول " البطل ونهض ووقف على قدمه المكسورة ، وقال : رأييت يا عزرائيل كيف تخلصت منك ؟ تعال لنذهب إلى أبى المسن ، فهو يحبنى كثيرا ، ويفدينى بروحه .

تقدم " دومرول ديوانه سر " ومن خلفه عزرائيل وذهبا إلى الشيخ ، كان أبوه يدعى " دوحا قوجا " . وعندما رأى " دومرول " ورأسه ووجهه يدميان صاح قائلاً : - يا بنى ماذا حل بك ؟ أين جوادك ؟ من هذا الذى يُسمر عينيه على هكذا ؟ !!

إنحنى " دومرول " وقبل يد أبيه وقال : - يا أبى ، أنظر ماذا حل بى لقد كفرت فغضب الله على ، وأمر عزرائيل بأن يهبط من السماء ويقبض روحى . ووضع عزرائيل قدمه على صدرى الأبيض ، وجعلنى

أفرغ وأراد أن يقبض روحى ، الآن يا أبى أتعطى روحك لـ عزرائيل ، حتى يتركنى وشأنى ، أم ترغب فى لبس ثياب الحداد فى عزائى وتتحسر على ابنك؟ أيهما تريد يا أبى؟ قرر سريعاً فليس لدينا وقت .

صمت "دوخا قوجا" وغرق فى التفكير، وفى نفس الوقت عاد أبطال "دومرول" الأربعة وكانوا قد رأوا جواده الجامح الفزع وهو عائد بمفرده ولم يحضر "دومرول" معه ، فقلق الجميع بشأنه ولكنهم كانوا يرون البطل الآن كسيرا جريحا واقفاً أمام أبيه .

أخيراً تحدث أبوه وقال : - يا "دومرول" يا فلذة كبدى ، يا بنى ، يا بطلى ، يا من قتلت فى طفولتك تسعة من الثيران الوحشية ، يا من أنت عماد بيتى وحياتى ، ياوردة متفتحة بين بناتى وعرائسى الجميلات ، لا أستطيع أن أتركك تموت ، هذه الجبال السوداء الشاهقة الإرتفاع المتواجة ملكى ، إذا أرادها عزرائيل قل له أنها ملك له ، وعندى ينابيع مثلجة وخيول أصيلة شامخة رشيقة ، وقطعان من الإبل ، ولدى حظائر مليئة بالخراف والمعز ، إذا أراد عزرائيل كل هذا فجميعه له . وكل ما يلزمه من الذهب والفضة سأعطيه له أيضاً ، ولكن يا بنى الحياة حلوة والروح عزيزة ، ولا أستطيع أن أفرط فيها .

قال "دومرول" : يا أبت ، فليبق كل شئ ملكاً لك ، أريد روحك فقط ، أتعطيها لى أم لا؟

قال "دوخا قوجا" ، يا بنى ، لديك أم أفضل منى ، وأحن منى ، فلتذهب إليها .

كان عزرائيل قد هباً نفسه ليقبض روح " دومرول " ، فقال له " دومرول " كف يدك ، أيها القاسى ، ولنذهب إلى أمى .

وتوجهها إلى أم " دومرول " العجوز ، فقبل " دومرول " يدها وقال لها : -
يا أمى ، ألم تسألى لماذا كُسرت هكذا ؟ ولماذا جرححت هكذا ؟ وماذا حل بى ؟

قالت أمه وهى تنوح ، واحسرتاه يا ولدى ، ماذا أصابك ؟
قال " دومرول " يا أمى ، فرد عزرائيل جناحه الأحمر من السماء العلا وانقض على وجهى على صدرى ، وجعلنى أغرغر وأراد أن يقبض روحى . وأردت من أبى روحه لكى يتركنى وشأنى ، ولكن أبى رفض ، الآن أريد منك يا أمى أن تعطينى روحك ، أم أنك تريد أن تتشحى بالسواد فى عزائى وتولولين على وتقولين " وا حسرتاه يا بنى ، يا أمى ماذا تقولين ؟

وغرقت أمه فى التفكير برهة ، ثم رفعت رأسها وقالت : بنى ، يا بنى ، يا نور عينى ، يا من عشت فى أحشائى تسعة أشهر ، يا من رضعت من لبنى ، ليتك كنت أسيراً فى قلاع عالية وبروج مشيدة لاتنال ، كنت أهب لنجدتك ، وأبذل كل ما أملك من ذهب وفضة ، ولكن ماذا أفعل فإنك وقعت فى مأزق شديد ، وليس لدى حيلة لإنقاذك ، يا بنى الحياة حلوة والروح عزيزة ، ولا أستطيع أن أفرط فيها ولا حيلة لى .

وضنت أمه أيضاً بروحها . تضايق " دومرول " وتقدم عزرائيل ليقبض روحه ، فثار " دومرول " وصرخ فيه قائلاً : كف يدك أيها الغليظ !!
أعطينى لحظة أمان واحدة ، يا عديم المروءة .

قال عزرائيل وهويسخر منه : يا بطل الآن ماذا تريد آخرأ ؟ لقد رأيت بنفسك لأحد يريد أن يرحمك ويعطيك روحه ، على كل ، فأكرم لك أن تعطيني روحك بسرعة .

قال " دومرول " : - أتريد أن توقع الحسرة فى قلبى ؟

قال عزرائيل : الحسرة على من ؟

قال " دومرول " : لدى زوجة ، ولدى ولدان أمانة فى عنقى ، فلا بد أن أذهب وأودعهما أمانة بيد زوجتى ، بعد ذلك إفعل بى ما تريد .
تقدم " دومرول " وذهب إلى زوجته ، كانت زوجة " دومرول " قد أجلسست طفلها على ركبتيها لترضعهما وهى تداعبهما وتدللهمما وكذلك كان الطفلان يداعبان ثدىي أمهما وهما يرضعان ، لاهئين وكانت عيناها تضحكان .

دخل " دومرول " ورأى زوجته ، وطفليه وأمتلأ قلبه بالفرح والحسرة معاً ، وعندما رآته زوجته وضعت الطفلين على الأرض وتعلقت برقبة " دومرول " وصاحت قائلة:- يا " دومرول " يا ملجأى وملاذئى يا بطلى ، ماذا بك ؟ لم يعرف قلبك الضيق والغم من قبل ، ولم تهزم من قبل ، الآن لماذا أنت حزين وقلق ، أنظر إلى أطفالك .

نظر " دومرول " لطفليه وهما يتدحرجان على جلد الغزال المفروش على الأرض وكل منهما يداعب الآخر ، وتتعالى صيحاتهما من شدة الفرح وعيناها تبرقان من شدة السعادة .

وظل " دومرول " يحملق فى طفليه برهة ، ثم قال لزوجته: يا زوجتى الجميلة ، يا أم أولادى ، تعلمين أن عزرائيل اليوم قد فرد أجنحته الحمراء فى السماء الغلا وهبط على وجثم هذا القاسى على صدرى ،

وأراد أن يقبض روحى الحلوة ، ذهبت الى أمى العجوز ، رفضت أن تعطينى روحها ، كذلك رفض أبى المسن أيضاً وقال لى : - الحياة حلوة ، والروح عزيزة ، لا نستطيع أن نفرط فيها . الآن ، يا امرأتى ، يا أم أولادى ، قد جئت لأودع أولادى أمانة فى عنقك ، ولتكن جبالى الشاهقة السوداء منتجعا فى الصيف لك ، وينابيع الباردة هنيئة لك ، لدى خيول أصيلة كثيرة فلتركبها! ولتكن بيوتى الفاخرة المذهبة مظلة لك ، ولتحمل قطعان إبلى أحمالك ، وقطعان الأغنام التى لاحصر لها ، هي لك أيضاً ، يا زوجتى يا أم أولادى ، إذا أعجبت بأى رجل من بعدى وتعلق قلبك به فلتتزوجيه ولكن لا تكسرى قلب ولدى فسأدعهما أمانة فى عنقك وسوف أذهب .

تقدم عزرائيل ، ووقف " دومرول " بلا حراك وفجأة قفزت زوجته من مكانها ووقفت حاجزا بين عزرائيل وزوجها ، وصرخت قائلة : - يا عزرائيل ، انتظر ، الآن أنا موجودة هنا ولن أترك زوجى وملجأى وملادى ويطلق يموت ولا يرى شباب ولديه ويطولاتهم .

فى تلك الآونة اتجهت صوب زوجها وقالت : - يا " دومرول " ، يا زوجى ، يا أبا أولادى البطل ، ما هذا الكلام الذى قلته ؟ يا من منذ فتحت عينى عرفته ، يا من أعطيته قلبى ، ويا من صرت زوجة له بكل حب ، وقنعت به ، وصرت سعيدة معك ، ماذا أفعل من بعدك بالجبال الخضراء؟ فلتكن قبرا لى إذا وطأتها بقدمى ، ماذا أفعل بالينابيع الباردة بعدك؟ فلتكن دما إذا شربت منها جرعة واحدة . ماذا أفعل بعدك بذهبك وفضتك ، إنما تصلح فحسب لشراء كفى ، ثم ماذا أفعل بعدك بالخيول الأصيلة؟ فلتكن حاملة لنعشى إذا

وضعت قدمي في ركايبها . ماذا أفعل بالزوج بعدك؟ فلتلدغني حية
إذا تزوجت، يا زوجي ، ويا أبا أولادي ، أي قيمة للروح التي بخلت
أمك وأبوك المسنان بها عليك ؟ فلتشهد السماء ، ولتشهد الأرض
وليشهد الله ، وليشهد أبطال القبيلة ورجالها ونساؤها أنني أعطيك
روحي بكامل رضاي .

قبلت المرأة زوجها وطفليها ووقفت أمام عزرائيل صامتة هادئة ،
فهم عزرائيل أن يقبض روح المرأة ، فتحرك " دومرول " هذه المرة
مسرعا من مكانه وصرخ قائلاً: يا عزرائيل أيها القاسي القلب ،
لماذا تتعجل لتلبسنا السواد؟ أنتظر، لا زال عندي ما أقول .
عندما رأى عزرائيل ، " دومرول " غاضبا هكذا لم يجرؤ على أن يمد يده
تجاه زوجته وتراجع للخلف ووقف ساكناً.

لم يتحمل " دومرول " البطل العظيم الشجاع رؤية موت زوجته . ففتح
فاه وصرخ بصوت مرتفع جداً : يا رب ، لا أعلم من أنت ؟ وماذا
تكون ؟ وأين أنت؟ فهناك كثير من الأغبياء يبحثون عنك في السماء
ويبحثون عنك أيضاً في الأرض ، ولكنهم لا يعلمون قط أنك موجود
في قلب البشر، يا الله يا ربي ، سوف أشيد بنايات على مشارف
الطرق ، وأشبع الجوعى ، وأكسى العرايا ، وأجلب السعادة للجميع ،
إنني أحب زوجتي ، إذا أردت روحاً فإما أن تقبض روحينا معاً وإما
تتركنا نحن الإثنين!!

سُر الله من كلام " دومرول " وأمر عزرائيل قائلاً له : - أترك هذين
الزوجين فإنهما سيعيشان مائة وأربعين عاماً أخرى ، ولتذهب
وتقبض روحي والدي " دومرول " ثم تعود .

إحتضن " دومرول " زوجته وطفليه وأخذ يقبلهم بشدة . وخيمت
السعادة على الجميع وأخذوا يغنون أغاني البطولة، وينشدون أناشيد
السعادة ويصيحون صيحات الفرح ورقص الرجال والنساء من فرط
السعادة . وتسابقوا بالخيل . وفي غمرة الفرح تقدم "دده قورقود"
شيخ قوم "الغز" ذو اللحية البيضاء ليشاركهما الفرحه .
وقام بنسج قصة عن أحوال " دومرول " وزوجته وألف أيضاً أغنية
بإسميهما حتى يقرأها الأبطال ، ويتعلموا منها العبرة والدرس .

٩- أسطورة الحب

(١)

فى يوم من الأيام ، كان هناك ملك وله ابنة عمرها ست أو سبع سنوات . وكانت هذه الأميرة تملك العديد من الجوارى والخادومات ، بينما كان خادم واحد يكبرها قليلاً يدعى "قوج على" . وكان "قوج على" هذا يقوم على خدمتها ، فإذا سقط منديلها وقت تناول الغداء يحضره لها ، وإذا ابتعدت الكرة أثناء اللعب يحضرها لها أيضاً . كانت الأميرة تعشق لعبة "القلة" من بين ملايين الألعاب ، بل كانت تلعبها بشغف شديد . وكانت لعبتها هذه مصنوعة من الذهب والفضة . وكان السبب فى ذلك أن الملك عندما رأى ابنته تلعب هذه اللعبة - لأول مرة - بولع شديد ، جمع صاغة المدينة وأمرهم بأن يصنعوا أدوات هذه اللعبة من الذهب والفضة فى غضون ساعة واحدة . وقد تكلفت هذه اللعبة أكثر من مائة ألف تومان ، كما أن أحد الصياغ لقى حتفه بسبب هذه اللعبة عندما اعتذر عن عدم الحضور لأنه كان يصنع قرطاً لابنته المولودة حديثاً .

وعندما كانت الأميرة تلعب "القلة" ، كان "قوج على" يقف بالقرب منها وينتظر . وكانت الأميرة تضع العصا القصيرة المصنوعة من الفضة على الأرض ثم تضرب عليها بالعصا الطويلة المصنوعة من الذهب فتطير العصا القصيرة فى الهواء . وكانت وظيفة "قوج على" أن يسعى وراء العصا ويحضرها ليضعها أمام الأميرة حتى تضربها مرة أخرى ضربة قوية . ويكرر "قوج على" نفس العمل ، وعندما يحل التعب بالأميرة من اللعب ، كان "قوج على" يذهب ويخبر جوارىها وخادمتها ليأتين ويحملنها على المحفة إلى قصرها . ثم يذهب "قوج

على " ليخبر المسؤول عن خزانة لعب الأميرة حتى يحضر ويأخذ لعبة "القلة" ويضعها في مكانها بجوار ملايين اللعب ، بعدها يتوجه إلى المسؤول عن خزانة ملابس الأميرة ليحضر لها الملابس الخاصة بتناول الطعام ويضع الملابس الخاصة بلعبة "القلة" في مكانها . ويذهب "قوج على" بعد ذلك إلى طباح الأميرة ويخبره بضرورة حمل الطعام لها بعد لعبة "القلة" . فالأميرة كانت تأكل طعاماً خاصاً بعد كل لعبة . كان "قوج على" يسعى وراء هذه الأعمال دائماً . وعندما كانت الأميرة تنام ، كان على "قوج على" أن ينام وراء بابها حتى تعلم الجوارى والخادومات والخدم أن السيدة نائمة فلا يسأل أحد منهم عن شيء ولا يتفوه أحدهم بكلمة .

كان "قوج على" ينفذ كل أوامر الأميرة بحسب وينجزها على أكمل وجه . لذلك لم تمد الأميرة يدها عليه مطلقاً . وكان "قوج على" يعشق الأميرة ، كان يحبها حبا طاهرا نقيا ، ولم يكن يرى أى عيب فى مشاعره ، لذلك فقد أفضى بسر قلبه للفتاة .

ففى أحد الأيام ، كانت الأميرة فى الحديقة تصيد الفراشات ، وكان "قوج على" يقف أسفل الشجرة يراقبها ، وأحيانا عندما كانت الفراشات تحط أعلى الشجرة ، كان "قوج على" يصعد إلى أعلى الشجرة ويهزها حتى تطير الفراشات . وفى إحدى المرات رأت الأميرة فراشة كبيرة ، فصاحت على "قوج على" وقالت له : - تعال وأمسك هذه الفراشة فأنا أخاف منها . أسرع "قوج على" وأمسك بالفراشة ووضعها فى الشبكة . وعندما رفع رأسه رأى الأميرة تقف فى مواجهته . فقال لها وصوته يفيض حناناً : - سيدتى الأميرة ، أنا

أحبك ، وأتمنى عندما تكبر أن تصيرى زوجة لى .

لم يكمل "قوج على " حديثه حتى صفعته الأميرة صفعه قوية على صدغه وصرخت فيه قائلة : - خادم وضيع ، بأى حق تعشقنى ؟ أنسيت أننى أميرة وأنت خادمى ؟ إننى لا أقبلك حتى كلباً لى ، يا ابن الكلب ، أغرب عن وجهى ، إذهب وقل للخادومات أن يحضرن ليحملننى وليخرجنك من هنا ولا أريد أن تقع عيونك القذرة على مرة أخرى .

ذهب "قوج على " وأخبر الخادومات، فجئن مسرعات بالمحفة ووجدن الأميرة غاضبة ، فانهلن على "قوج على " بالسؤال : - ماذا فعلت بالأميرة يا ولد ؟

قال "قوج على " : - لم أفعل شيئاً لقد غضبت من تلقاء نفسها ، ضربتنى وأغمى عليها ، وقسماً بكذا وكذا !! ولكن من كان يصدقه . وفى الحال ، أحضرت الخادومات ماء الورد والعصير وأعدن للأميرة رشدها ، ثم وضعنها على المحفة وحملنها مسرعات إلى القصر . وأمرتهن الأميرة بإبلاغ أبيها حتى يأمر الخدم بأن يمسكوا أذن هذا الخادم ناكراً الجميل القذر ويخرجوه من القصر كالكلب ، لأنها لا ترغب أن تقع عيونه القذرة عليها . وأصدر الملك أوامره فى نفس اللحظة ، فأخرجوا "قوج على " فى نفس اللحظة كالكلب ، وسقطت الأميرة طريحة الفراش لعدة أيام . وكان الأطباء يسهرون بجوارها يوماً . وفى النهاية قالت : - لقد تحسنت الآن ، وصرفت الأطباء .

(٢)

مرت السنون ، وأخذت الأميرة تصبح أكثر غروراً يوماً عن يوم
وسنة عن أخرى . ولم تكن قد عينت لها خادماً مكان الكلب "قوج
على " . وعندما بلغت السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، أصدرت أمراً
بأنه ليس من حق أى إنسان أن ينظر إليها وليس من حق أى إنسان
أن يلوث جسدها الطاهر بنظراته ، وإذا حدث وأخطأ أحد من
الخادومات أو الخدم ونظر إليها ، فإنه كان يُجلد جلداً شديداً ، وإذا
فتح أحد منهم فمه أو تفوه بكلمة فإنه يلقى حيا للذئاب الجائعة ،
وكانت الأميرة تمتع عينيها برؤية ذلك المشهد .

وكان الملك يحب ابنته حباً شديداً من أجل أفعالها هذه ، وكان دائماً
يقول لها : - يا بنيتى ، أنا سعيد بك لأنك تشبهيننى .

وهكذا أصبحت الأميرة وحيدة دائماً تتجول فى الحديقة ولا تتحدث
مع أحد . وكانت تقول : - لا يوجد أحد جدير بالحديث معى . وقد
أقيم للأميرة حوضان كبيران للسباحة فى وسط الحديقة ، كانا دائماً
مملوءين : أحدهما بالحليب الطازج والآخر بماء الورد وعطر الورد
الأحمر والياسمين وما إليها . وكانت فتاتان من الخادومات تأتيان
فى ساعة معينة إلى حافة حوض السباحة وهما تغضبان البصر ،
وتنتظران حتى تخرج الأميرة من حوض الحليب إلى حوض ماء
الورد ، ثم تخرج وتلف نفسها بالمنشفة . ولم يكن يحق للخادمتين أن
تلمسا جسد الأميرة ، وإذا لمس طرف إصبع إحداهن جلدها أو
شعرها ، فإنها تسلم إلى الجلاد فى نفس اليوم ليقطع إصبعها أو
يدها .

والى هذا الحد ، أخذت الأميرة تُبعد الآخرين عنها ، فضلت وحيدة . ولم تكن تعلم كيف تقضى الوقت ، وقنعت بصيد الفراشات وقطف الورود والاعتسال بماء الورد والحليب واللعب بالألعاب والأكل والشرب ومشاهدة الذئاب . لم يكن أمامها من مفر إلا أن تقضى معظم الوقت فى النوم . ودائماً ما كانت ترى "قوج على" فى الحلم ، حيث كان يأتى ويلعب معها . وفى الحلم كانت الأميرة تسعد بذلك فى البداية ، لكنها سرعان ما تتذكر أنها أميرة وأن هناك فرقاً كبيراً بينها وبين الآخرين . وعندئذ تعود إلى سابق وضعها وتبعد "قوج على" عنها . ولم يكن "قوج على" يعبأ بذلك . وعندما يهم بأن يمسك يدها ، كانت الأميرة تدفعه بقوة ، وتجاهد فى سحب يدها . وفى النهاية كانت الأميرة تستسلم ، ويصبح بوسع "قوج على" حينئذ أن يمسك يدها ، ثم يشرع فى اللعب والقفر واصطياد الفراشات . وفى أثناء اللعب ، كان "قوج على" يقول لها : - سيدتى الأميرة ، إننى أعشقتك وأتمنى عندما نكبر أن تصيرى زوجة لى .

وهنا تتذكر الأميرة مرة أخرى أنها ابنة الملك ، فتصفع "قوج على" وتصرخ فى وجهه ثم تسلمه إلى يد الجلاد . وفجأة تستيقظ من النوم على صراخها وصياحها .

كانت الأميرة ترى هذا الحلم دائماً ، ولم تكن تستطيع أن ترى فى الحلم رفيقاً آخر للعب . وكان "قوج على" يعاودها فى الحلم كثيراً وهو فى سن الطفولة ووضعها وهياتها ، وكان العديد من أبناء ملوك البلاد البعيدة قد جاءوا لخطبة الأميرة ، ولكنها كانت ترفضهم من قبل أن تراهم قائلة : - أنا لا أحب أحداً إلا نفسى .

(٣)

وذات يوم ، بينما كانت الأميرة تستحم فى حوض السباحة ، جاءت حمامة وحطت فوق شجرة الرمان الموجودة على حافة الحوض ، وقالت : - أيتها الفتاة الجميلة ، ما أجمل جسمك ، إنى أعشقك ، أرجوك أخرجى من الحليب حتى أراك جيداً .

قالت الأميرة : - أيها الطائر القذر ، إنى أمرك أن ترحل من هنا ، فأنا الأميرة ولا يحق لأى شخص أن ينظر الى . وليس لأى شخص الجدارة بأن يتحدث معى .

ضحكت الحمامة وقالت : - أيتها الفتاة الجميلة ، أعلم أنك منذ فترة طويلة لم تحدثى أحداً .

وفجأة نسيت الأميرة أنها ابنة ملك ، فأصبحت رقيقة ، وقالت : - أيتها الحمامة عذبة الحديث أرجوك لا تنظرى إلىّ فهذا شئ سئ . قالت الحمامة : - أيتها الفتاة الجميلة ، ليس بيدي ، لا أستطيع إلا أن أنظر إليك ، فأنا أحبك .

قالت الفتاة : - إذا كنتِ عاشقة حقاً فأخرجى من جلدك حتى أراك أنا أيضاً .

قالت الحمامة : - أيتها الفتاة الجميلة ، هل تقبلين حبي لك ؟ إننى أخاف ، فاعطنى ضماناً منك حتى يتقوى قلبى وأخرج من جلدى .

قالت الفتاة : أيتها الحمامة عذبة الحديث ، أى شئ تريدينه فسوف أعطيك إياه .

قالت الحمامة : أيتها الفتاة الجميلة ، أعطنى نومك

قالت الفتاة : - أيتها الحمامة عذبة الحديث ، فى أى شئ يفيدك نومى؟

قالت الحمامة : - أيتها الفتاة الجميلة ، بعد ذلك سترين فى أى شئ ينفعنى نومك .

قالت الفتاة : - أيتها الحمامة عذبة الحديث ، نومى ملك لك وفجأة ، قطع هذا الحوار صوت الخادومات القادمات يحملن المنشفة فى أيديهن وهن يطأطنن رؤوسهن ويغضضن من أبصارهن ، فقالت الحمامة : - أيتها الفتاة الجميلة ، صار نومك ملكاً لى ، إنى أرى خادوماتك قادمات ، لذا سأذهب الآن ، لكنى سأعود فيما بعد . وقبل أن أمضى سأطلق عليك اسم "قىزخانم" لأنه من العيب أن تكون هناك فتاة بلا إسم .

وتذكرت الأميرة فجأة أنها ابنة الملك ، فأخذت تصيح قائلة: - أيها الطائر القدر ، أى حق لك حتى تتحدث معى؟ أعد لى نومى وإلا أخرجت قلبك وأمعاءك من قفاك . ليس لك الحق فى أن تطلق على اسم من فمك القدر هذا . وما إن أتمت قولها حتى كانت الحمامة قد طارت من فوق شجرة الرمان ، وظلت الأميرة فى حالة عصبية ، واشتدت رغبتها فى تقديم ضحايا جدد للجلاد .

(٤)

مضت عدة أسابيع ولم تنم الأميرة بقيقة واحدة ، لم يأت النعاس لعينيها قط . فى البداية ظلت هكذا بلا نوم حتى ظن الجميع أنها أصيبت بالجنون . وظلت بغرفتها كالكلب المسعور تنشب

أظفارها بالباب والحائط وتسب الجميع . لم تسمح الأميرة لأحد بالدخول عليها حتى لأبيها ولا للأطباء ، وظلت أياماً وليالي وحيدة تماماً . وفي النهاية تعبت وسقطت مريضة . وفي هذه المرة ، لم يأت النوم لعينيها أيضاً . ولم تكن تتحدث أو تتحرك . وكان الأطباء يحضرون واحداً تلو الآخر ولكن لم يستطع أى منهم إبراء الفتاة . وكان الملك قد أصدر أمراً بأنه لا يحق لأى شخص أن يلمس جسد ابنته بيده ، لذلك لم يستطع الأطباء تحديد ما تعاني منه الفتاة . وذات يوم جاء طبيب شيخ ذو هيئة غريبة وقال لهم : - إنى أستطيع تحديد المرض دون أن تلمس يدي جسد المريضة ، كما أستطيع وصف الدواء ، وإن لم أستطيع فاضربوا عنقى .

وأمرهم الملك بأن يحملوه إلى الفتاة ، وظل الطبيب الشيخ جالساً بجوارها يراقبها لفترة طويلة ، ثم قال : - علاجها الوحيد "أسطورة الحب" . لا بد أن يجلس شخص ما عند رأسها ويقص عليها "أسطورة الحب" حتى تشفى وتستطيع النوم . وأمر الملك المنادين بأن ينطلقوا فى جميع أنحاء المدينة ويعلنوا أنه على كل من يعرف "أسطورة الحب" أن يأتى ليقصها على الأميرة وسوف يجزل الملك له العطاء .

وجاء كثيرون ممن يدعون معرفة "أسطورة الحب" طمعا فى المال . ولكن عندما كانوا يصلون إلى ما خلف ستارة حجرة الفتاة كانوا يضطرون إلى حبك الأكاذيب . لم يكن لحديثهم أى أثر على الفتاة ، ومن ثم فقد أسلمهم الملك جميعاً إلى الجلاء .

وهنا لم يعد يجرؤ أى شخص على التقدم ، ومضت عدة أيام وظهر الطبيب الشيخ الغريب مرة أخرى ، وقال للملك : - أى مدينة تلك

التي لا يوجد بها أحد يعرف "أسطورة الحب" ؟ عموماً هناك شاب يعيش فى جبل كذا ، يعرف "أسطورة الحب" . إذهب وأحضره ، ولكن أيها الملك أعلم أنك أن لم تذهب بنفسك لإحضار الراعى فإنه لن ينزل مطلقاً من الجبل .

وخرج الملك ممتطياً جواده ومعه نفر قليل من بينهم الطبيب ، ومضوا فى طريقهم حتى وصلوا أسفل الجبل . ونادوا على الراعى الشاب ، فرد عليهم من أعلى الجبل قائلاً : من أنتم ؟ وماذا تريدون منى ؟ قال الملك : - أنا الملك ، ألم تسمع بأن ابنتى مريضة ؟ أريدك أن تأتى معى من أجلها .

ونسى الملك ما قاله الحكيم ، فذكره الراعى قائلاً : - أتريد "أسطورة الحب" ؟

قال الملك : - نعم ، مثلما قلت ، هناك حكيم شيخ غريب قال أنك تعرفها .

قال الراعى الشاب : - نعم أعرفها .

قال الملك : - إذا شُفيت ابنتى ، فإن لك من الذهب والفضة والثروة ما تشاء .

وقال الراعى بينما كان يهبط من الجبل : - أيها الملك ، لو أنك أعطيتنى مال الدنيا لن أجيئ ، إن "أسطورة الحب" تحكى من أجل الحب فقط .

لم ينطق الملك ، ولكنه كان يتمنى من داخل أن يسلم هذا الراعى الوقح إلى أيدي الجلادين . وأرْدَف الملك الراعى خلفه ، وظل فى سيره حتى وصلوا إلى القصر ، وهناك أجلسوا الراعى خلف الستارة وقالوا

له : - أقصص الأسطورة من مكانك هذا لأنه لا يجب أن تقع عينك على وجه الأميرة . قال الراعى الشاب : - لن يكون لأسطورة الحب أى أثر إذا سمعها أحد غيرى أنا والأميرة ، يجب ألا يكون هنا أحد غيرنا ، فانصرفوا .

ولم يجد الملك مفرا من ذلك ، فأمرهم بأن يخلوا قصر الفتاة ، وبقى الفتاة والراعى فقط داخل القصر ، وما أن انصرفوا حتى أبعد الراعى الستارة ودخل الغرفة . وكانت الفتاة ممددة فى هدوء ولا تلقى بالاً لأى شخص ولا لأى شئ ، فجلس الراعى بجوار الباب وقال بصوت مرتفع : - أيتها الفتاة الجميلة ، يا "قىزخانم" ، أريد أن أقص عليك "أسطورة الحب" أسمعيني؟ .

وانتبهت الفتاة وبدا لها أنها تعرف ذلك الصوت جيداً ، فحملت فى وجه الراعى الشاب ، وقالت : - نعم ، اسمع ، قل .
وبدا الراعى فى رواية "أسطورة الحب"

- فى يوم من الأيام ، كان هناك ملك وله ابنة عمرها ست أو سبع سنوات . وكانت هذه الأميرة تملك من الجوارى والخادmates الكثير . وكان لها خادم واحد يكبرها قليلاً ويدعى "قوج على" كان يقوم على خدمتها ، فإذا سقط منديلها وقت تناول الغداء يحضره لها ، وإذا ابتعدت الكرة أثناء اللعب يحضرها لها أيضاً . وكانت الأميرة تعشق لعبة "القلة" وكانت لعبتها تلك مصنوعة من الذهب والفضة . وعندما كانت الأميرة تنام ، كان "قوج على" ينام خلف الباب حتى تعلم الجوارى والخادmates والخدم أن السيدة نائمة فلا يتكلمون ولا يسألون عن شئ . وكان "قوج على" يمثل لكل أوامر الأميرة بحب ، بل

ينجزها على أكمل وجه . ولذلك لم تمدد يدها عليه قط . كان "قوج على " يعشق الأميرة ويحبها حبا بسيطا نقيًا . ولم يكن يرى أى عيب فى مشاعره ، كما لم ير أى عيب فى أن ينتهى ذلك الحب بالزواج . وعندما كانا معا فى الحديقة وكانت الأميرة تصطاد الفراشات أو تلعب "القلة" ، كان "قوج على " يشعر بسعادة غامرة . ولم يكن يشبع من رؤيتها مطلقا ، وكان يتمنى من كل قلبه أن تسمح له الأميرة بأن يمسك يدها ويسيرا سويا ويصطادا الفراشات معا . ولكن الأميرة لم تكن تبدي إعجابها بأى شخص . وكانت تطلق على الخادومات والخدم لفظ "الكلاب" ، ولم تكن تأذن لهم بالدخول عليها ، وكان "قوج على " يحيا حياة سعيدة وبسيطة على هذا النحو حتى اليوم الذى رأى فيه أنه لن يستطيع إخفاء سر حبه عن الأميرة . فى ذلك اليوم قال "قوج على " للأميرة وهى تصطاد الفراشات : - سيدتى الأميرة ، إنى أعشقتك ، وأتمنى عندما نكبر أن نتزوج . وغضبت الأميرة من ذلك الكلام وصفعت "قوج على " ثم أبعدته من أمامها وطردته كالكلب ، ولم تفكر مطلقا فى البلايا التى حلت برأسه .

سكت الراعى الشاب ، وقالت الفتاة : - أيها الراعى ، قل ماذا حدث بعد ذلك .

قال الراعى : - أيتها الفتاة الجميلة ، هل فكرت فيما حل برأس "قوج على " من بلايا؟

قالت الفتاة : - لم أفكر مطلقا فيما حل برأس "قوج على " من بلايا ، هل تعرف ما وصل إليه حاله مؤخرا ؟ أكمل الحكاية .

نهض الراعى وجلس بجوار فراش الفتاة ، وأمسك بيدها وهو يواصل
حكاية "أسطورة الحب" :

- كان أبو "قوج على " يعمل راعيا ، فتوجه "قوج على " على قدمه إلى
الصحراء وذهب باحثا عنه وجده أعلى الجبل . وكان الرجل يشعر
بوطأة المرض وهونائم فى مغارة الخراف ، حيث كانت تعيش معه
ابنته التى يناهز عمرها عمر أخيها "قوج على " والتى كانت دائما
تأخذ الخراف للمرعى . وقد سر الأب من رؤية ابنه وقال

له : - من عجب أنك أتيت فى هذه اللحظة ، فإنى أحتضر ، لا تترك
أختك بمفردها
حتى لا تشعر بالوحدة .

ومات الأب ، ودفنه ابنه فى نفس المكان بقمة الجبل ، وعادت أخته
عصرا فوجدت أخاها مكان أبيها ، وأخذا يبكيان أباهما معا ثم زرعا
وردا وشجرة على قبره .

مرت أيام وأسابيع وشهور وسنون ، وبلغ "قوج على " وأخته السابعة
عشرة من عمريهما . وأخذا يجويان الصحراء لترعى خرافهما فى
أحسن الأماكن . وفى الليل كانا يتركانها مع الكلاب فى المغارة . وفى
فصل الشتاء فقط ، كانا يذهبان أحيانا إلى المدينة . عندما تكون
الخراف قد دخلت الغار الشتوى وحل أوان عطلتهما . كانت أخت
"قوج على " لطيفة كنسيم الريح ، مضيئة متألقة كشمس الصيف ،
كفاكهة الخريف محببة ومعطرة كقمر ليالى الشتاء الصافية الجميلة
، وكشقائق النعمان البرية حمراء الوجه وذات جمال وحشى . ولذلك
كان "قوج على " يناديها بـ "لاله" .

و ذات يوم ، وفى طريق عودتهما بالقطيع ، رأى "قوج على " أن عنزة من القطيع قد فقدت ، فأخذ أحد الكلاب وخرج للبحث عنها فى بعض الجبال ، وفى النهاية رأى العنزة جالسة عند نبع تبكى وكأنها صفاصة ترتعد . وعندما رأى الكلب العنزة ، أخذ ينبج ويقول : - لا تبكى يا عنزة ، لقد جئنا إليك . فرحت العنزة وقالت : - كنت أخاف ألا تبحثوا عنى ، فأصبح من نصيب الذئب ، أشكركما .

حل الليل ، ونظر "قوج على " فرأى - من كوة فى الجبل - سبعة خيول بيضاء تهبط من أعلى ، فترك العنزة مع الكلب يسيران فى طريقهما ، واختبأ وراء صخرة وانتظر ، ووصلت الخيول إلى النبع ، وكان على ظهر كل واحد منها قرية ، فملاً كل منهم قريته . وعندما هموا بالعودة ، قال أحد الخيول : - أنا لا أستطيع أن أعيش مرة أخرى فى ذلك القصر . فإما أن أقتل نفسى هنا أو أعود إلى مدينتنا ، وعليكم أيضاً أن تعودوا إلى بنات عمكم .

أخذت الخيول الأخرى توأسيه ، وفى النهاية عادوا معاً ، ونهض "قوج على " خلف الخيول ، التى أخذت تسير وتسير تاركة وراءها العديد من الجبال ، حتى وصلت إلى غابة خالية تماماً حتى من أصغر الطيور والزواحف وحيوانات الرعى . ورأى "قوج على " سبعة قصور جميلة ، حيث دخل كل حصان قصراً من هذه القصور ، وانتظر "قوج على " ، فرأى ست حمامات بيضاوات يهبطن من السماء وتدخل كل واحدة منهم قصراً من القصور . وظل "قوج على " منتظراً ، وبينما هو على تلك الحال ، سمع صوت بكاء ، فأخذ يتفقد القصور السبعة واحداً تلو الآخر بحثاً عن مصدر البكاء ، ورأى فى كل قصر من

القصور فتاة كالقمر وفتى كالشمس منشغلين بالحديث والضحك ،
أما القصر السابع ، فكان يجلس فيه فتى كالشمس وحيدا مع قطعة
من الحجر الجيرى منقوش عليها صورة وردة شقائق النعمان ، وهو
يبكى بحرقة حتى أن بكاءه كان يحرق القلب المتحجر . دخل "قوج
على " على الفتى وألقى عليه السلام وقال : - أيها الشاب لا تبك
فإنك أحرقت قلبي ببكائك .

رفع الشاب رأسه وقال : - من أنت ؟ ومن أين جئت ؟
قال "قوج على " : - أنا أحد الرعاة فى هذه الجبال ، شددنى صوت
بكائك .

قال الشاب : - رأيته فى الصباح عند قمة الجبل . حسنا أنك جئت ،
تعال واجلس فإن قلبي يشواق إلى مسامر .

جلس "قوج على " وقال : - لماذا كنت تبكى هكذا ؟

قال الشاب : - قصتى طويلة ، إذا كان لديك رغبة فى سماعها
أخبرنى

وحيثنئذ انطلق الشاب يروى ذكرياته :

- نحن سبعة أخوة ، جننا إلى هذه الغابة منذ يومين لا أكثر ، كنا
نعمل حدادين فى مدينتنا ، وكان أبونا رجلا شيخا يعد من أمهر
صناع السيوف فى المدينة ، كنا فى النهار نعمل حدادين ، وفى الليل
كنا نصنع السيوف سرا فى مكان ما تحت الأرض ، وذلك لان الملك
قد حظر صنع الأسلحة . ولكن عندما كان أهل المدينة يحتاجون الى
السيوف ، كنا نضطر إلى صنعها ليلا ، وكان لدينا فى المحل سندان
أكبر من السندان العادى بعشر مرات أو بعشرين مرة . كنا نحن

الثمانية نلتف حول السندان ونضرب عليه بالمطارق الحديدية الكبيرة . وذات يوم قال لنا أبونا : - يا أبنائي ، إن أجلى يدنو ولكن الحياة مازالت أمامكم ، وكل منكم يحتاج إلى رفيق وزوجة . وقد حان أوان زواجكم ، لابد أن تتزوجوا من زوجات مثلكم يشمرن عن سواعدهن ويضربن بالمطرقة الحديدية الكبيرة ويصنعن السيوف . وبنات عمكم من الممكن أن يصبحن زوجات صالحات ولكن لكى تظهروا جدارتكم بهذا الزواج ، عقدت أنا وعمكم المرحوم امتحاناً لكم ، فقد وضعنا علامة داخل هذا السندان تدل على مكان بنات عمكم . وعليكم أن تصنعوا سيفاً حاداً يمكنه أن يشطر هذا السندان بضربة واحدة إلى نصفين حتى تستطيعوا أن تخرجوا تلك العلامة من داخله .

وبعد عدة أيام ، مات أبونا ، وانغمسنا نحن الأخوة السبعة فى العمل ، وكنا نقضى معظم الوقت فى مكاننا السرى تحت الأرض نتصارع مع الفولاذ والحديد والمطرقة الحديدية ، ولكن جميع السيوف التى صنعناها لم تؤثر فى السندان ، بل كانت تنشطر إلى نصفين . وفى إحدى ليالى الشتاء المظلمة الباردة ، مرق سيف من تحت أيدينا وكسر السندان الحجرى . وخرجت من قلب السندان علبة صغيرة كانت تحوى بداخلها ورقة صغيرة كتب عليها : - أبناء عمنا يا صناع السيوف ، جعلنا فدى لحة سيوفكم ، تعالوا مسرعين فى أثرنا ، لقد اشتقنا إليكم كثيراً ، لقد زرعنا إحدى الصحراوات الخالية بالأشجار فصارت غابة وكنسناها ورششناها بالماء ونحن فى انتظاركم ، إسألوا أول ورده تظهر فى الربيع من ورود شقائق النعمان الحمراء

عن عنواننا . بنات عمكم .

لا أستطيع أن أصف لك كيف جعلتنا هذه الورقة فى حالة اضطراب ، فأردنا فى نفس الليلة أن ننهض ونذهب فى أثرهن ، ولكننا لم نكن نعلم لهن عنوانا ولم نستطع فى الوقت نفسه ترك عملنا والذهاب وراءهن لأن محاربى مدينتنا كانوا قد طلبوا منا أن نصنع لهم فى اليوم الواحد الف سيف ، وكان علينا أن ننتهى من صنعها قبل نهاية الشتاء . ويانقضاء فصل الشتاء الطويل ، أتى الربيع متأخرا وازداد قلقنا يوما بعد يوم . وعندما لم تعد الثلوج تتساقط مرة أخرى ، رأينا أعلى التل زهرة من زهور شقائق النعمان حمراء اللون كبيرة الحجم ولها خال أسود كبير على صدرها . وسألنا الزهرة يا زهرة الشقائق : - أين نجد بنات عمنا ؟ أخبرينا عن عنوانهن . واعتدلت الزهرة من انحناءتها وقالت لى : - يا ابن العم ، قبلنى أقول لك ، فأنحنيت وقبلتها ، عندئذ قالت الزهرة : - مر الشتاء هذا العام بصعوبة وتأخر الربيع ، وبنات عمكم كن فى قمة القلق والاضطراب ، وسيظلن هكذا ، وإن لم تصلوا إليهن سريعا ربما يقتلن أنفسهن ، سأعلمكم كيف تتخفون فى جلد الحمام تارة وفى جلد الحصان تارة أخرى حتى تصلوا إليهن بسرعة .

بعد ذلك أرشدتنا زهرة شقائق النعمان على عنوان البنات وعلمتنا كيف تتخفى فى جلد الحمام تارة وفى جلد الحصان تارة أخرى . وكان آخر كلامها معى أن قالت لى : - يا ابن العم ، أتمنى من كل قلبى أن تقطفنى وأن أكون معك ، ولكن ماذا أفعل ويزور شقائق النعمان قد يبست بفعل الشتاء ، وأنا إن ذهبت فلن يلبس هذا التل

ثياباً حمراء . أريد منك ألا تقطعنى حتى أنثر بذورى فى كل مكان وأملأ التلال مرة أخرى بشقائق النعمان ، وأجعلها كلها حمراء .

وتركنا الزهرة وعدنا إلى البلدة حتى نسلم السيوف المملوكة منا ، ثم ذهبنا فى طريقنا متخفين فى جلد الحمام . وبعد ذلك ، تعبنا من الطيران فتخفينا فى جلد الخيول ومضينا ، فعبرنا البحار والجبال والصحارى ، وفى النهاية وصلنا بالأمس عصرا إلى هذه الغابة الهادئة الخالية . ورأينا القصور فدخلناها ووجدنا بها عدة أسرة فجلسنا وانتظرنا ، وفى الليل ظهرت ست حمامات بيضاوات جئن من زوايا الغابة الست . وقد فرحت الحمامات عندما رأيننا ، فهبطن وخرجن من جلد الحمام فصرن ست فتيات جميلات وقلن لنا : - يا أبناء العم ، نحمد الله على سلامتكم ، وبعد ذلك نظرنا إلى وقلن لى : - يا ابن عمنا الصغير ، نحمد الله على سلامتك أنت أيضا ، أختنا الصغيرة ، زهرة شقائق النعمان قد جفت ، ولولم تفعل أختنا الزهرة هذا العمل لفقدتمونا إلى الأبد ، فلم يكن هناك أية بذور لتخرج منها الزهور التى تدلكم على عنواننا ، ولو أن أختنا لم ترق دمائها على الأرض لنسيت الأرض شقائق النعمان إلى الأبد ، وما كان بوسع الناس أن يروا شقائق النعمان مرة أخرى .

وعندما سمعت هذا الكلام تخيلت أنى سأجن ، فصرخت قائلاً : إذن

هل كانت زهرة شقائق النعمان الموجودة فوق التل هي زهرتى ؟!
قالت الأخوات : - نعم ، تلك الزهرة الحمراء التى كانت على قمة التل هي أختنا الصغيرة ، ولم تكن تريد أن يصدق الناس أن زهرة من زهور الشقائق لم تبق فى الخلاء ، كذلك كانت تريد أن تملأ التلال

بشقائى النعمان مرة أخرى وتكسوها باللون الأحمر. نعم ، لقد كان حبها أكبر منا جميعا ، ضحت بنفسها من أجلنا ومن أجل الأرض .
وللحظة ، برقت فى رأسى فكرة ، وهى أن أعود وأقطف زهرة شقائق النعمان ، ولكن تضحية هذه الزهرة كانت عظيمة ، فبقيت ساكنا .
وحملتنى بنات عمى إلى قصر زهرة شقائق النعمان الذى كان خاليا . وفى الليلة الماضية كنا جميعا فى قصر زهرة شقائق النعمان ، فقال بنات عمنا أن الزهرة تحبنى كثيرا وأنها تقوم بعمل شاق للغاية ، فهى تخرج الماء من نبع فى قمة الجبل من أجل الأشجار . كذلك قالت بنات عمى أيضا أنهن منذ فترة كن قد دعون الحيوانات التى كانت ترعى فى مناطق الصيد الخاصة بالملك لأن تأتى إلى تلك الغابة ، فوافقت الحيوانات على أن تأتى يوم عرس الجميع ، إلا أن أخوتى وبنات عمى أجلوا زواجهم من أجلى ولم يتركونى أعود للمدينة ، واليوم أثقلت على الوحدة فبكيت ، وأردت أن أخفف عن قلبى ، أشكرك لأنك استمعت لشكاوى المؤلة .

* * *

عندما انتهى الشاب من سرد قصته ، قال "قوج على " : - لك الحق أن تبكى ، أنا أيضا كنت عاشقا للأميرة فى وقت ما ، ولكنها طردتنى من قصرها ، ولم أعد إليها مرة أخرى .
وسأل الشاب : - هل تضايقت منها ؟
قال "قوج على " : - لا ،، إذا رأيته الآن سأحبها مرة أخرى ، فإنها فائقة الجمال ولا مثيل لها . لكنها سيئة الطبع أنانية ، فشجرة واحدة من شعر زهرتك تساوى ألف فتاة مثل الأميرة .

بعد ذلك قال الشاب : - إذن فأنت تعيش بمفردك يا "قوج على" .
قال "قوج على" : - لا ، أنا أعيش مع أختي لاله .
قال الشاب : - أقلت لاله ؟ هل هي نفس الفتاة التي كانت ترعى
الغنم معك؟
قال "قوج على" : - نعم ، إنها نفس الفتاة ذات الوجه الأحمر البري ،
إنها أختي .
قفز الشاب من مكانه وقال : - يا "قوج على" ، أريد أن أقول لك
شيئاً ولكنى أخاف أن تغضب .
قال "قوج على" : - أعلم أنك تريد أختي ، فليكن ، إذن فانهض
ولنذهب الآن ، فإذا وافقت اتخذها لك زوجة ، فإنى أستطيع أن أرعى
الغنم بمفردى . وفى ذلك الوقت تعلم "قوج على" كيف يتخفى فى
جلد الحصان والحمام .

* * *

فى المغارة ، كانت لاله تمشط لحي العنزات واحدة تلو الأخرى .
وكانت تقوم بهذا العمل كلما جافها النوم وبقيت بمفردها . وكانت
العنزات تجلس بدورها وتستمع إلى القصة التى تحكيها لاله . وكانت
الخراف أيضاً تستمع ، ومما لاشك فيه أن بعضهم كان ينام أو يجتر
فى هدوء . وكانت الكلاب أيضاً تغفو عند باب المغارة . وعند
منتصف الليل ، كان القمر ينحنى من أعلى المغارة لى يبعث ضوءه
إلى داخل المغارة ويتطلع إلى لاله ويعد قليل يقول القمر لها : -
إنهضى وأشعلى النار ، فلن أستطيع القاء الضوء أكثر من هذا إن على

أذهب ، ونهضت لاله واوقدت النار عند باب المغارة فانسحب القمر
بهدوء من باب المغارة ورحل .

وبينما كانت القصة التى تحكيها لاله توشك على الانتهاء ، دخلت
حمامتان إلى المغارة إحداهما بيضاء ناصعة البياض ، والأخرى
بيضاء ولها خال أحمر فى صدرها وقالت لاله : - أيها الطائرين، لقد
ضللتما طريقكما تقدما إلى .

نظرت الحمامة البيضاء إلى الحمامة ذات الخال وكأنها تقول لها : -
تقدمى إليها لا تخافى ، وذهبت الحمامة ذات الخال وحطت على
يدى لاله . فنظرت إليها لاله وقبلتها وجاءت الحمامة الأخرى أيضاً
وحطت فى حجر لاله . بعد ذلك وضعتهما الفتاة على الأرض وقالت
لهما : - ابقيا فى مكانكما وسأذهب لأحضر لكما الحَب.

وذهبت لاله إلى آخر المغارة ونحت أحد الأحجار جانباً ، فظهرت
فتحة تؤدى إلى مغارة أصغر ، وبمجرد أن دخلتها ، خرجت
الحمامتان سريعا من جلديهما وعندما رأت الكلاب "قوج على"
أنت وجلست أمامه . وعادت لاله وفى يدها حفنة من القمح فرأت
أخاها ومعه شاب جميل فتى يجلسان داخل المغارة وقد اختفت
الحمامتان ، فقالت لاله : - أين كنت يا "قوج على" ؟ لقد تأخرت
كثيراً !

قال "قوج على" : - تعالى الآن لأعرفك بصديقى الجديد ، ثم نتحدث
بعد ذلك ، لقد جاء صديقى إلى هنا فى أثرك .

سكتت لاله للوهلة الأولى ، ثم قالت : - ألم ترى أين ذهبست
حماماتى؟

قال "قوج على" : - عندما أتينا طارتا وخرجتا ، سأذهب لأحضرهما لك ، فالحمامتان لم تستطيعا البعد عن هنا كثيرا ، لتجلسا ولتحدثا معا .

أتم "قوج على" كلامه ، ثم خرج وجلس على مصطبة حجرية ميمما وجهه صوب الخلاء ، وبعد قليل رأى لاله والشاب مقبلين عليه ويمسك كل منهما بيد الآخر . فقال : - مبروك

وقال الشاب : - يا رفيقى ، إذا لم يكن عندك مانع فأنا أريد اصطحاب لاله الآن إلى الغابة حتى لا يقلق أخوتى وبنات عمى على . قال "قوج على" لأخته ضاحكاً : - لاله ، ألا ترغبين فى أن أمسك لك حماماتك ؟

أجابت لاله ضاحكة : - فقد خدعتنى جيداً ، لقد زاد مزاحك الليلة . عندئذ ضحك الثلاثة ، وقال الشاب لـ "قوج على" : - نحن فى انتظارك غدا عصرا ، فلتأت لغابة عرسنا ، ثم تخفى فى جلد حصان أبيض ناصع البياض وحمل لاله على ظهره وانطلق ، وظل "قوج على" جالسا فى نفس المكان على المصطبة الحجرية مستيقظا حتى صاح الديك بعد ذلك نهض وتوجه لينام بجانب قطيعه .

وفى الليلة التالية ، كانت الغابة تعج بالضوضاء ، حيث أخذت الطيور والحيوانات والمجترات تفد بلا عدد من كافة أركان السماء والأرض . وأخذت تشيد لأنفسها أعشاشاً فوق الأشجار وتحتها على تراب الأرض . وكان الإخوة الحدادون السبعة يلتفون مع زوجاتهم الشابات الجميلات حول مائدة كبيرة يتناولون عشاء ليلة عرسهم .

وكان "قوج على" موجوداً أيضاً. وكانت العرائس والعريسان قد قرورا أن يتركوا الغابة فى منتصف الليل ويودعوا الحيوانات ويعودوا إلى المدينة. وأرادوا أيضاً أن يأخذوا "قوج على" معهم، لكنه رفض قائلاً: لابد أن أرى خرافى وعزراتى.

وفى منتصف الليل، أمسك كل واحد من العريسان السبعة بيد عروسه وتخفوا فى جلد الحمام ثم طاروا. تجول "قوج على" قليلاً داخل الغابة، ولكنه لم يستطع أن يخفف من حزنه ووحدته. وفى النهاية، جلس أسفل شجرة وأخذ يبكى لفترة مما خفف من حمل قلبه، ثم عاد إلى المغارة عند قطيعه.

سكت الراعى الشاب مرة أخرى، وكانت عيناة مثبتتين على عيني الأميرة. كان يريد أن يرى تأثير كلامه فى عينيها. فقالت الأميرة بصوت مرتعش: - قل لى مرة أخرى، قل لى ماذا حدث لقوج على؟ قال الراعى: - وفى مساء اليوم التالى، تذكر "قوج على" الأميرة ورأى أنه حتى ذلك الوقت كان لا يزال يحبها من أعماق قلبه، فقال فى نفسه: - لا أكون راعياً فى الجبال، إن لم أجعلها تعقل وأجعلها إنسانة، إنى أعلم تماماً ماذا يجب على أن أقوم به تجاهها حتى تتخلى عن أخلاقها وطباعها الشرسة. لابد لى أن أبعداها بشكل أساسى عن الحياة بذلك الأسلوب.

وعندئذ تخفى "قوج على" فى جلد الحمامة وتوجه إلى حديقة الأميرة، وظل منتظراً طويلاً حتى أتت وذهبت للاستحمام فى حوض اللبن، فجلس فوق شجرة الرمان الموجودة على حافة الحوض وقال:-

أيتها الفتاة الجميلة ، إن لديك جسدا جميلا ، إنى أعشقتك ، أرجوك أخرجى من الحليب حتى أراك جيداً . وأخذت الأميرة تصرخ فى البداية وتصيح كالكلب المسعور وتسب وتأمر ، ولكنها بعد ذلك نسيت أنها أميرة وتذكرت أنها مثل البنات الطيبات فصارت لطيفة وقالت: - أيتها الحمامة عذبة الحديث ، أرجوك لا تنظرى إلى ، فهذا عمل سئ . فقال "قوج على " : - ليس بيدى إلا أن أنظر إليك ، فأنا أحبك .

وقالت الفتاة : - أيتها الحمامة عذبة الحديث ، أنا لا أستطيع أن أقبل عشق حمامة . إذا كنت عاشقا حقا أخرج من جلدك حتى أراك أنا أيضاً .

لم يخرج "قوج على " من جلده . وقبلت الأميرة أن تعطى نومها لقوج على حتى يخرج من جلده . ولكن "قوج على " أخذ نوم الأميرة وطار . ومنذ ذلك اليوم لم يعرف النوم طريقا لعينى الفتاة . وظلت تعاني عدم النوم حتى مرضت وسقطت طريحة الفراش ولم يستطع حكماء المدينة علاجها .

وعندما أصدر الملك أوامره بأنه لا يحق لأى طبيب أن يمد يده إليها . إلى جسد الأميرة ، تخفى "قوج على " ذات يوم فى صورة حكيم شرج غريب الهيئة وذهب إلى الملك ، ثم توجه إلى الأميرة وشرع فى علاجها دون أن يلمسها . وظل لفترة ينظر إلى الأميرة وكأنه يراقب حركاتها ، ثم قال بعد ذلك: - إذا سمعت الأميرة "أسطورة الحب" فسوق تشفى . ولم يكن فى المدينة شخص يعرف "أسطورة الحب" ، فجاء "قوج على " مرة أخرى فى صورة الحكيم الشيخ الغريب وقال للملك أن

هناك راعيا شاباً يعيش في أحد الجبال يعرف "أسطورة الحب" جيداً، وأنه إذا جد الملك بنفسه في طلبه لاستطاع أن يحضره إلى الأميرة .

سكت الراعى الشاب مرة أخرى وهو ينظر إلى عيني الفتاة الحائرتين ، ثم ضحك وقال : نعم أيتها الفتاة الجميلة ، نعم يا سيدتى "قيز" ، هكذا طردنى أبوك ذات يوم كالكلب من قصره ، ثم جاء إلى الجبال وأحضرنى أمامك الآن ، فماذا تقولين ؟

لم تتمالك "قيز خانم" نفسها ، فأجهشت بالبكاء أمامه وقالت : - "قوج على " ، أنا أيضاً نسيت الى الأبد أننى أميرة ، وأريدك . لقد فهمت الآن كم أنا فى حاجة شديدة لحبك . خذنى معك ، أريد أن أعيش مثل الجميع .

قال "قوج على " : - ليس من السهل عليك أن تعيشى كبقية الناس ، لأنك ترعرعت فى نعمة وترف . ولكن إذا رغبت فى تلك المعيشة بنفسك ، فبدون شك أنك ستعتادين على تلك الحياة الجديدة .

قالت " قيز خانم " : - ما دمت معك ومع الآخرين ، فسيكون كل شئ سهلاً على . خذنى معك ، لا تترك ، " قيز خانم " ، بمفردها .

مسح "قوج على " دموع الأميرة وأخرج تفاحة من جيبه وقال لها : - أنت متعبة الآن تعالى وكلى هذه التفاحة ، وبعد ذلك سأجئ إليك ، فأنا أعلم أنك ستحبيننى إلى الأبد .

أخذت الفتاة الجميلة التفاحة وأكلتها ، ثم تمددت على ظهرها وأغلقت عينيها واستغرقت فى نوم عميق . ونهض "قوج على " وقبّل

الفتاة فى خدها ، ثم خرج ببطء وقال للملك : - لقد أعدت النوم لابنتك ، فلا يذهبن أحد منكم إلى القصر لمدة ثلاثة أيام ، وإلا سيصبح نومها غير مريح . فقط فى اليوم الرابع توجه إليها وأيقظها .

(٥)

فى صباح اليوم التالى وقرب بزوغ الشمس ، جاء "قوج على" إلى "قىز خانم" فى صورة حمامة ، ثم خرج من جلده وأخذ وردة حمراء من أسفل رأس الفتاة ، ففتحت عينيها وضحكت ضحكة ناعمة هامسة . وقال "قوج على" : - هل نمتِ نوما مريحاً؟ فقالت "قىز خانم" : - نعم ، لقد نمت نوما جميلاً كالسكر والعسل ، الآن هل تأخذنى معك؟ وقال "قوج على" : - نعم ، إنهضى ، فلنذهب إلى الحديقة لتغتسلى ، ثم نرحل.

كانت الشمس قد سطعت لتوها عندما انطلقت حمامتان بيضاوان من فوق شجرة الرمان الموجودة على حافة الحوض ، وطارتا صوب الشمس .

١٠- خوخة وألف خوخة

كانت هناك حديقة مترامية الأطراف بجوار قرية جدباء، وكانت هذه الحديقة عامرة عامرة ومليئة بأنواع متعددة من أشجار الفاكهة وبالمياه الوفيرة. وكانت هذه الحديقة شاسعة ومليئة بالأشجار لدرجة أنك لو وقفت فى أحد أطرافها ونظرت بمنظار، فلن تستطيع رؤية طرفها الآخر.

منذ عدة سنوات كان صاحب القرية (الإقطاعى) قد قسم هذه الأرض إلى قطع وبيعها للقرويين ولكنه احتفظ بالحديقة لنفسه. ومما لا شك فيه أن أرض القرويين كانت وعرة ولم تكن مليئة بالأشجار. وأيضاً لم يكن فيها ماء، فقد كانت هذه القرية فى الأصل أرضاً كبيرة فى وسط وادٍ بالصحراء مثلها فى ذلك مثل حديقة الإقطاعى. وقد اشترى القرويون من الإقطاعى كمية فى الأراضى الوعرة الواقعة فى أعالي التلال والمحاطة بالوديان وكانوا يزرعونها بالقمح والشعير الذى ينمو على الأمطار.

خلاصة القول دعنا من هذا الحديث فربما كان غير مرتبط بقصتنا، وكانت قد نمت فى الحديقة شجرتا خوخ. إحداهما أصغر وأصبى من الأخرى، وكانت أوراق الشجرتين وزهورهما تشبه بعضهما تماماً لدرجة أن أى شخص يمكنه أن يعرف للوهلة الأولى أنهما من جنس واحد.

كانت الشجرة الأولى مطعمة وكانت تطرح كل عام خوفاً ملوناً وكبير الحجم بحيث يصعب الاحتفاظ به فى قبضة اليد، كما أن قلب الإنسان لا يطاوعه فى أن يقضمه ويأكله.

كان البستاني يقول أن الشجرة الكبيرة كانت عُقلة أحضرها

مهندس أجنبى من بلده، ومن المعروف أن ثمار شجرة أنفق عليها هذا
القدر من المال كم تكون غالية الثمن .

وكانوا قد علقوا جذع كل من الشجرتين قطعة من الخشب مكتوب
عليها دعاء (وإن يكاد) حتى تقيهما من الحسد .

أما شجرة الخوخ الأصغر فكانت تطرح كل عام ألف زهرة تقريباً
ولكنها لم تطرح خوخه واحدة، فربما كانت تسقط كل أزهارها، أو أن
خوخها كان لا ينضج بل يصفر لونه ويتساقط ، وأخذ البستاني يفعل
كل ما كان فى وسعه ، ولكن شجرة الخوخ الأصغر كانت غير قابلة
للتغيير أساساً، كانت - عاماً بعد عام - تنبت أغصاناً وأوراقاً كثيرة،
ولكنها لم تكن تنضج ثمرة خوخ واحدة برغم العلاج الذى حدث .

وطرأت فى رأس البستاني فكرة وهى أن يُطعم الشجرة الأصغر،
ولكن الشجرة أيضاً لم تتغير، وكان الأمر انقلب إلى عناء وخصومة .
وفى النهاية ضاق صدر البستاني وأراد أن يحتسب عليها وأن
يخيفها ، فذهب وأحضر منشاراً ونادى على زوجته : - سرع فى شحذ
أسنان المنشار أمام الشجرة الأصغر. وبعد أن حشد المنشار تقهقر
للخلف ونهض مرة واحدة ورفع المنشار تجاه شجرة الخوخ وكأنه
يقول لها الآن سأقتلك من جذورك وألقى بها بعيداً حتى لا تلقى
بثمراتك مرة أخرى .

كان البستاني حتى هذه اللحظة فى منتصف الطريق، فجاءت
زوجته من خلف رأسه وأمسكت بيده وقالت : - وحياتى كف يدك ،
أعدك أن ترعى خوخها وتنضجها من العام القادم، وإذا عادت للكسل
مرة أخرى، كلانا سنقطع رأسها ونلقى بها داخل التنور لتحترق

وتصبح رماداً . ولم يغير هذا الاحتيال والخداع والتخويف من سلوك الشجرة .

لابد أنكم تريدون جميعاً أن تعرفوا ما هورأى شجرة الخوخ الصغرى ولماذا لم تكن تنضج ثمارها . حسناً جداً من الآن فصاعدا سوف تدور قصتنا نفسها حول شرح هذه القضية :

أنصتوا ...

افتحوا آذانكم جيداً فشجرة الخوخ الصغرى سوف تتحدث ، لاتصدروا صوتاً، ولننظر ماذا تقول شجرة الخوخ وكأنها تقص سيرتها. كنا حوالى مائة أو مائة وخمسين خوخه موضوعين فى سلة، وكان البستانى قد كسا جوانب السلة وأعلىها وأسفلها بأوراق الكرمة البيضاء حتى لا تجفف الشمس قشرتنا الرقيقة، وحتى لا يتراكم التراب والغبار على وجناتنا الحمراء . وكان ينسل بصيص من النور الأخضر فحسب من بين أوراق الكرمة الرقيقة ويختلط بوجناتنا الحمراء فيجعل منظرها خلاباً .

كان البستانى قد اقتطفنا مبكراً قبل بزوغ الشمس ولذلك كانت أجسامنا باردة ورطبة، وكان برد ليالى الخريف لا يزال فى أجسامنا . وينسل قليل من حرارة أوراق الشجر الأخضر فتلتصق بقلوبنا .

ومما لاشك فيه أننا كنا أبناء شجرة واحدة، وكان البستانى فى كل عام وفى نفس الوقت يقطع خوخات الشجرة الأم . وكان يملأ بها السلة ويحملها إلى المدينة . ومن هناك كان يذهب إلى بيت صاحب الحديقة ويعطيه السلة ويعود إلى القرية مثلما يحدث الآن .

كنت أقول أننا كنا مائة أو مائة وخمسين ثمرة خوخ ناضجة وبيضة،
وأقول عن نفسي أنني كنت ممتلئة بالعصير الطيب اللذيذ . وقشرتي
كانت ناعمة ورقيقة وكأنها تكاد تنفجر . كان اللون الأحمر يكاد
يقفز إلى وجنتي لدرجة أنك لو كنت رأيتني لتخيلت أنني حجلة
من عريي بالتأكيد ، وخاصة أن جسدي كان لا يزال رطباً من ندى
الخريف ، وكأنني كنت قد استحمت .

وأخذت نواتي الكبيرة والسميكة تفكر في حياة جديدة . من الأفضل
أن أقول أنني أنا نفسي كنت أفكر في حياة جديدة ولم تكن نواتي
منفصلة عني .

كان البستان قد وضعني على وجه السلة بحيث أكون أول من يظهر،
وربما كان السبب في ذلك أنني كنت أكبر الجميع وأنضجهم . مما
لا شك فيه أنني لا أركي نفسي ، فهناك مجال لكل ثمرة خوخ لأن تكبر
وتنضج وتصبح ضخمة وبيضة فيما عدا الثمرات الكسلى التي يخذعها
الدود وتسمح له أن يخرق جلدها ولحمها حتى يأكلها حتى النواة .

ولو كنا ظللنا قابعين هكذا في السلة وذهبنا عند صاحب الحديقة ،
لامناص من أنني كنت قد أصبحت من نصيب ابنة الإقطاعي
الوحيدة العزيزة . كانت ابنة الإقطاعي تقضم قضة من وجنتي ثم
تلقى بي بعيداً . ولم يكن بيت الإقطاعي مثل بيت " صاحبلى "
و " بولاد " الذى لم يكن يدخل من بابه ثمرة واحدة من المشمش
أو الخيار أو الخوخ بينما كان البستانى يحكى أن الإقطاعي كان
يجلب لابنته فاكهة من البلاد الأجنبية ويوصى بأن يحضروا لابنته
البرتقال والموز والعنب وحتى الورد بالطائرة . ومما لا شك فيه أن

هذه الأعمال كانت تحتاج إلى نفقات كثيرة ، الآن إحسب أنت كم يتكلف شراء ثياب ومصاريف مدرسة وطعام وإحضار طبيب وممرضة وخدم وشراء لعب إلى جانب رحلات بنت الإقطاعى ونزهاتها . قل عشرة آلاف تومان كل شهر ، مرة أخرى بعدت قليلاً بالحديث عن الموضوع .

عبر البستانى والسلة فى يده من شارع يتوسط الحديقة ، وفجأة وطأت قدمه جحرفاً خرب ، بحيث أوشك البستانى على السقوط على الأرض ، ولكنه احتفظ بتوازنه . فقط اهتزت السلة بشدة ونتيجة لهذا أنزلت ووقعت على الأرض ولم يرنى البستانى وتركنى وذهب . الآن مرة أخرى سطعت الشمس فى الحديقة المترامية الأطراف ، كان التراب ساخناً إلى حد ما ، ولكن الشمس كانت شديدة الحرارة ، وربما لأن جسمى كان رطباً تخيلت أن الشمس كانت شديدة الحرارة . بدأت الحرارة تترك جلدى ببطء شديد وتتسرب إلى لحمى حتى أن عصيرى أصبح ساخناً هو الآخر ، وعندئذ وصلت الحرارة إلى نواتى ، وبعد قليل أحسست بأنى ظامئة .

عندما كنت لدى أمى كنت كلما شعرت بالظما أشرب من مائها . وكنت أنظر إلى الشمس وهى تسطح على أكثر وتزيد من حرارتى . وأخذت الشمس تسطح على حتى أصبحت وجنتاى شديدتى الحرارة ، وكنت أمتص الماء من أمى وأتغذى منها ، ويسرى العصور فى بدنى ويزداد حجمى ويزداد ، ويوما بعد يوم كنت ازداد حجماً وازداد وأصبح أكثر جمالاً وحمرة وطراوة ، وكانت حمرة أكثر تجرى فى عروق وجهى ، وكان وزنى يزداد ثقلاً وأحنى ساعد أمى وأقاوم .

كانت أمى تقول : يا بنيتى الجميلة لا توارى نفسك عن الشمس ، فالشمس تحبنا ، والأرض تعطينا الغذاء والشمس تطهيه لنا . إلى جوار أن جمالك مصدره الشمس ، أنظري أولئك الذين يخفون أنفسهم عن الشمس ، فإنهم يذبلون ويجفون . يا بنيتى الجميلة ، أعلمى أن الشمس إذا غضبت من الأرض ذات يوم فإنها لن تشرق عليها، ولن يبقى كائن حى بعد على وجه الأرض سواء كان نباتا أو حيوانا .

ومن هذا المنطلق كان يمكننى تسليم جسمى للشمس، وأن أمتص حرارتها وأجمعها بداخلى، وكنت أرى أن قوتى تزداد يوما بعد يوم، وكنت دائما أسأل نفسى: - لو أن أحدا ذات يوم ضايق الشمس وغضبت منا ، فأى مصيبة ستحل برؤوسنا؟ فى النهاية لم أجد جواباً فسألت أمى : - أمى ، إذا آلم أحد السيدة شمس ذات يوم ، وغضبت علينا ، ماذا نفعل ؟

نفضت أمى الغبار من على وجنتى بأوراقها ، وقالت : - أى أفكار تعن لك؟ من المتعارف عليه أنك بنت ذكية ، فلتعلمى يا بنيتى أن السيدة شمس لا تغضب منا بسبب عدد قليل من الذين يؤذون البشر والمغرورين . ولكن من الممكن أن يخبو نورها ببطء وببطء وتقل حرارتها وتموت ذات يوم . وقتها لابد أن نفكر فى شمس أخرى . وإلا سنبقى فى الظلام ونتجمد من شدة البرد ونجف!!

حقيقة فى أى موضع كنت من القصة ؟

نعم ، كنت أقول أن الحرارة وصلت إلى نواتى وظمأت، وبعد قليل أخذ عصيرى يسخن وأخذ قشرى فى التيبس والتشقق . وجاءت نملة

كبيرة راکضة من الطريق وبدأت تحوم حولی ، فعندما وقعت من السلة على الأرض قد تهرأت قشرتی من موضع ما وسال قليل من عصیری وغلظ من حرارة الشمس، وجاءت النملة الكبيرة وأنشبت كلابتها فی العصیر وابتلعتہ ثم تركتني، وظلت فترة تنظر مذهشة إلى موضع كلابيتها، وانتصب قرناها وثبتت قدميها فی الأرض وهكذا أخذت فی السحب بقوة لدرجة أنني قلت لنفسي الآن ستقتلع كلابتیها من مكانهما، وضغطت النملة الكبيرة قليلاً ، وفي النهاية استطاعت أن تقتلع قطعة من العصیر الغليظ وبعدت عني بسرعة فی سعادة .

وفي نفس المكان سمعت صوتاً حيث قفز شخصان من أعلى السور داخل الحديقة وجاءا راکضين تجاهی . كانا " صاحبعلی " و " بولاد " وكانا قد جاءا ليشبعا من الفاكهة . لم يكونا يخافان مطلقاً من بندقية البستاني كبقية القرويين . فلم يكن بوسع القرويين أن يطأوا الحديقة مطلقاً . ولكن " بولاد " و " صاحبعلی " كانا يتسكعان دائماً داخل الحديقة بأقدامها الحافية وسراويلهما الممزقة، حتى أن البستاني كان قد صوب خلف رأسيهما أكثر من مرة . ولكنهما أفلتا . فی هذا الوقت كان عمر كل منهما يناهز السابعة أو الثامنة .

خلاصة القول أنهما جاءا مسرعين فی ذلك اليوم وأسرعاً من فوقی وذهبا نحو أمی ، وبعد قليل رأيتهما وهما يأخذان فی الرجوع ولكنهما كان في حالة مريرة ، فقد فهمت من كلامهما أنهما غاضبان على البستاني .

كان " بولاد " يقول : - رأييت ؟ هذه آخر فاكهة فی الحديقة التي لم

تصبح حتى ثمرة واحدة منها من نصيبنا .

قال " صاحبلى " : - فى النهاية ماذا يمكننا أن نفعل ؟ فمنذ شهر كامل والبستاني الحمار جالس والبندقية فى يده أسفل الشجرة ، ولا يتحرك .

قال " بولاد " : - ابن الكلب الملعون ، لم يترك لنا ثمرة واحدة ، آه ، كم أنا مشتاق لثمرة واحدة من تلك الثمرات الناضجة ألقى بها قسراً داخل فمى ! أتتذكركم من الخوخ أكلنا فى العام الماضى ؟

قال " صاحبلى " : - وكأننا لسنا بشراً ، فهو يقطع كل ثمرة ويحملها ويعطيها لهذا الرجل ابن الكلب الذى يطفحها ، كل هذا تقصير منا لأننا جالسين نضع يداً فوق الأخرى فقط، ونتركه ينهب القرية .

قال " بولاد " : - أتعلم يا " صاحبلى " ، إما أن تصبح هذه الحديقة ملكاً للقرية أو أننى سأشعل النار فى جميع الأشجار .

قال " صاحبلى " : نشعلها نحن الإثنين .

قال " بولاد " : - لو لم نفعل فسنكون بلا نخوة .

قال " صاحبلى " : - لو لم نفعل لكنا أولاد حرام .

كان الولدان فى شدة الغضب لدرجة أنهما كانا يدقان الأرض بأقدامهم لدرجة أننى خفت من أن يركلانى لكن لا ، لم يفعلا ، كنت أمام أعينهم تماماً عندما اخترقت شوكة قدم " بولاد " ، فأنحنى ليخرجها من قدمه فوقعت عيناه علىّ، ونسى الشوكة التى فى قدمه وحملنى من على الأرض وقال : - " صاحبلى " : أنظر يا " صاحبلى " !!

كان الولدان فرحين وأخذا يتلقفانى من يد إلى يد. لم يطاوعهما

قلباهما أن يأكلانى هكذا لأننى كنت ساخنة جداً ، و رغبت فى ان يبردانى ويأكلانى لأننى سأكون تحت أسنانهما حلوة المذاق .

كانت أيديهما المتشقة ذات القشف تخدش قشرتى ، ولكننى كنت سعيدة عندما علمت أنهما سيأكلاننى بلذة شديدة حتى آخر ذرة فى . وبعد الأكل سوف يلعبان شفتيهما وأصابعهما، وسيظل طعمى اللذيذ لعدة أيام وأصابع تحت أسنانهما .

قال " صاحبلى " : - يا " بولاد " أراهن أننا حتى الآن لم نكن قد رأينا خوخة كبيرة هكذا .

قال " بولاد " : - لا ، لم نر .

قال " صاحبلى " : - لنذهب بجوار البركة ولنبردها ونأكلها، سيكون طعمها أفضل .

كانا يحملاننى بحذرو كأن بدنى كان مصنوعا من الزجاج الرقيق، وبحركة واحدة أسقط وأتخطم .

كانت حافة البركة ظليلة ورطبة ، لأن أشجار الصفصاف والرمان المطعمة كانت قد ألقت بظلها الظليل عليها . وللهولة الأولى أحسست برطوبة مريحة فى نواتى . وضعانى بحرص شديد فى الماء ويأيدهما الأربعة الصغيرة ذات الكنف حالا بينى وبين الماء حتى لا يجرفنى ويلقى بى داخل البركة وكان الماء مثلجاً بدرجة كبيرة، فجلسا قليلاً ثم قال " بولاد " : - يا " صاحبلى " !

قال " صاحبلى " : - نعم ، قل !

قال " بولاد " : - أقول أن لهذه الخوخة سعرا عالياً .

قال " صاحبلى " : - نعم .

قال " بولاد " : - نعم ، هذا ليس رداً ، إذا كنت تعلم قل ما سعرها.

فكر " صاحبعلی " وقال : - أقول أيضاً أن لها سعراً عالياً .

قال " بولاد " : كم مثلاً ؟ !

فكر " صاحبعلی " مرة أخرى وقال : لو بردناها جيداً ، جيداً ، ألف تومان .

قال " بولاد " : - إنك لم تر نقوداً حتى تتخيل أن الألف تكون نقوداً أيضاً . قال " صاحبعلی " : - حسناً ، أنت الذى ما شاء الله تجلس على خزانة ، قل كم .

قال " بولاد " : - مائة تومانا

قال " صاحبعلی " : - الألف أكثر من المائة .

قال " بولاد " : - مت ، لم آت بهذا الكلام من تلقاء نفسى ولكنى سمعته من أبى .

قال " صاحبعلی " : - إذا كان الأمر هكذا ، فمن الممكن أن تكون المائة والألف عدداً واحداً ، أنا أيضاً لا أخلق فقد سمعته من أبى .

لمسنى " بولاد " بهدوء وقال : - تجمدت يداى ، فى رأى حان الوقت لنأكلها .

لمسنى " صاحبعلی " أيضاً بحذرو وقال : - نعم ، لقد صارت باردة تماماً .

فى ذلك الوقت أخرجنى من الماء ، وعندما خرجت من الماء أحسست فى الخارج بالدفء . الآن أردت أن يأكلانى بسرعة لأثبت لهما أن لذتى تفوق ما يتخيلان . كنت أرغب فى توصيل القوة والحرارة اللتين كنت قد أخذتهما من أمى ومن الشمس إلى جسدى هذين الطفلين القرويين .

وبينما قرر "بولاد" و "صاحبعلی" أكلی ، كنت غارقة في هذه الأفكار وهي أنه كم من مرة قد تغيرت من حال إلى حال طوال عمري ، وكم من مرة سوف أتغير. لقد قلت لنفسی : - ذات يوم كانت ذرات جسدی ترابا وماء ، وبعضها الآخر أيضاً كان نور الشمس ، وكانت أمی تمتصهما قليلا قليلا من الأرض وحتى ترفعهما إلى أطراف فروعها . وبعد ذلك طرحت برعماً ، ثم ازهرت وقليلا قليلا تشكلت ، وقليلا قليلا امتصصت ذرات جسدی من جسد أمی واختلطت مع ذرات نور الشمس حتى استقامت نواتی وتكونت قشرتی ولحمی وأصبحت خوخة ناضجة وبضة .

لكنی الآن يأكلنی "صاحبعلی" و "بولاد" وبعد فترة تصبح ذرات جسدی جزءا من لحمهما وشعرهما وعظامهما . ومما لا شك فيه أنهما سوف يموتان يوماً . حينئذ ماذا ستصبح ذرات جسمی ؟ قرر الطفلان أن يأكلانی ، أعطانی "صاحبعلی" إلى "بولاد" وقال :- أقضم قضمة .

قضم بولاد "قضمة وأعطانی إلى "صاحبعلی" وشرع هو الآخر في مص شفتيه . وقضمنی هو الآخر قضمة وأعطانی إلى "بولاد" . وهكذا قلت لنفسی : - لقد جعلت مذاقی لذيذا تحت أسنانهما .

الآن قد تلاشى جسدی ، ولكن نواتی كانت تفكر في حياة جديدة . وبعد دقيقة واحدة لم يعد منی ما يسمى بخوخة ، في حين أن كانت نواتی ترسم خطة فحواها متى وكيف تبدأ في النمو ، فأنا في لحظة واحدة محددة كنت أموت وكنت أحيأ .

ولآخر مرة وضعنی "بولاد" داخل فمه ، وامتنص آخر ذرات جسمی

وابتلعنى ، وعندما أخرجنى مرة أخرى ، لم أكن خوخة بعد ، كنت نواة حية ذات قشرة صلبة، وكنت قد أخفيت بداخلها بذرة حياة جديدة . وكنت أحتاج فقط إلى راحة قليلة وتراب رطب حتى أشق قشرتى وأنمو.

وعندما لعق الأولاد أصابعهما وشفتيهما عدة مرات قال " بولاد " : - ماذا نفعل الآن؟

قال " صاحبلى " : - لنمض إلى الماء .

قال " بولاد " : ألن نأكل نواتها ؟

قال " صاحبلى " : - عندى لها خطة ، دعها تنفذ.

تركنى " بولاد " أسفل شجرة الصفصاف وتقهقر قليلا ورجع بحدة إلى الخلف ونهض وألقى بنفسه فى الماء بظهره، وكان قد ضم ركبتيه إلى بطنه وحلق يديه حولها وغاص لحظة واحدة فى الماء ، وأخذ يضرب بيديه وقدميه ثم وقف وارتفعت طبقات الطين الموجودة فى قاع الماء من أطرافه وكان الماء يصل إلى ما أسفل ذقنه، وكانت أعشاب الماء تعلق برأسه وأذنه ووجهه .

قال " صاحبلى " : يا " بولاد " ، حول وجهك صوب الناحية الأخرى .

قال " بولاد " : - هل ستخلع سروالك ؟

قال " صاحبلى " : - نعم ، أريد ألا يعرف أبى أننا جئنا مرة أخرى وسبحنا ، فيضربنى علقه .

قال " بولاد " : - من الآن وحتى الظهر موعد عودتنا إلى البيت لدينا وقت كافٍ .

قال " صاحبلى " : ألا ترى الشمس فوق رأسك ؟

لم يقل " بولاد " شيئاً آخر ، وحول وجهه صوب الناحية الأخرى ، وعندما سمع صوت سقوط " صاحبعلی " فى الماء ، أعاد " بولاد " وجهه وعندئذ شرعا فى السباحة والغطس وأخذ كل منهما يرش الآخر بالماء وبعد ذلك قالا معاً : ليس هناك وقت. وخرجا ، وعصر " بولاد " رجلى السروال عدة مرات . عند ذلك أخذانى من أسفل شجرة الصفصاف وذهبنا . وتسلقا سور الحديقة وقفزا الى الناحية الأخرى وكانت بيوت القرية بعيدة عن حديقة الإقطاعى .

قال " بولاد " : - حسنا ، قلت لديك خطة من أجلها .

قال " صاحبعلی " : - عندما ينتشر الظل أناديك ونذهب ونجلس فوق التل . وسوف أقول لك أى تصرف لدى لها .

كانت حارات القرية خالية من كل شئ عدا الذباب ورائحة الروث . وثب كلب قذر من أعلى الحائط أمام أقدامنا وريت " بولاد " على رأسه ووجهه وانحنى وذهب إلى بيتهم وتبعه الكلب ودخل معه المنزل أيضاً .

كانت الحارة تصعد إلى أعلى ، بحيث أنها بعد أن ترتفع قليلا كانت الحارة تتساوى مع سقف منزل " بولاد " ، وبدأ " صاحبعلی " طريقه إلى منزله من نفس مستوى الأسطح ومضى ، وكان منزله بعد عدة منازل إلى أعلى ، فوضعنى فى قبضته وقفز قفزة داخل فناء منزلهم ، وغاصت قدماه حتى ركبتيه فى السجاد المبلل والناعم ، والذى كانت أمه قد وضعتة هناك منذ ساعة مضت ، ولم يكن " صاحبعلی " على علم بذلك ، فأخذت أمه فى الصباح حيث أخرجت رأسها من فتحة المنزل وقالت :- أسرع وتعال حتى تحمل لأبيك طعامه .

حملنى " صاحبعلی " إلى الحظيرة ، وحفر فى ركن ثقباً داخل الروث ،
ثم دفننى فيه ولم أفهم سوى الظلام ورائحة الروث ، ولا أعرف كم
ساعة بقيت هناك ، وأوشكت رائحة روث الدواب النفانة أن
تخنقنى ، وفى النهاية أحسست أن الروث يرفع من على وجهى .
كان " صاحبعلی " قد أخرجنى ، وفركنى بين يديه مرتين ، ومسحنى فى
سرواله فأصبحت نظيفة . وذهبنا من نفس الطريق الذى كنا قد جئنا
منه حتى وصلنا خلف سطح بيت " بولاد " ، كانت أم " بولاد " وأخته
يصنعان من الروث أقراصا خلف السطح ، وكانا يتحدثان مع زوجة
جارهم التى كانت تأخذ الأقراص من على الجدار وتضعها فى كومة .
سأل " صاحبعلی " أم " بولاد " قائلاً : أين " بولاد " ؟
قالت أم " بولاد " : حمل " بولاد " الجدى إلى الخلاء وهو غير موجود
فى البيت .

وجدنا " بولاد " أعلى التل ، كان قد ترك جديه الأسود يرمى خلف
التل . وكان جالساً مع كلبه وعيناه على طريقنا .
والتفت فجأة فوجدت لون بشرة " بولاد " و " صاحبعلی " تماماً مثل
لون قشرتى فكلاهما من كثرة ما سارا فى الطريق عاريين تحت أشعة
الشمس أصبحا أسودين فاحمين .

قال " بولاد " بنفاد صبر : حسنا ! قل خطتك .

قال " صاحبعلی " : - ألا تريد أن تصبح صاحب شجرة خوخ ؟

قال " بولاد " : - أكون مجنوناً لو لم أرد .

قال " صاحبعلی " : - إذن لنذهب .

قال " بولاد " : - ماذا نفعل بالجدى ؟

قال " صاحبلى " : تتركه فى البيت .
قال " بولاد " : - قالت أمى ألا أعود به حتى تغيب الشمس .
قال " صاحبلى " : - تترك الكلب عند الجدى .
مسح " بولاد " بيده على رأس الكلب وأذنه وقال : - حسناً فلتراقب
الجدى حتى أعود .
أخذنا ثلاثتنا نجرى ونجرى حتى وصلنا أسفل سور الحديقة ، وقال
" صاحبلى " : - إقفز عالياً .
قال " بولاد " : الأمر لا يحتاج بعد أن تخفى خطتك . أنا نفسى
فهمت: تريد أن نزرع نواة خوختنا .
قال " صاحبلى " : - هذا صحيح ، فلنزرع نواتنا خلف كومة التراب
الموجودة فى آخر الحديقة . بعد ذلك تمر عدة سنوات ونصبح
أصحاب شجرة خوخ . من المؤكد أنك فهمت من نفسك لماذا لن
نزرعها فى مكان آخر .
قال " بولاد " : - أعلى التل ، لا تنمو شجرة الخوخ ، فالشجرة تحتاج
إلى ماء ، وتحتاج أيضاً إلى تربة ناعمة .
قال " صاحبلى " : - الآن لا تقرأ مرثية مثل الشيخ ، أنا صاعد إلى
أعلى لعل البستانى لم يعد .
لم يكن البستانى قد عاد بعد من المدينة . أخذ " بولاد " و " صاحبلى "
يحفران الأرض فى ركن خال فى الحديقة خلف كومة التراب ،
ووضعانى تحت التراب وأخذنا يسويان التراب بيديهما . وتركاني
وذهبا .

واحتضننى التراب المظلم الرطب وضغطنى والتصق بجسدى ، ومما لاشك فيه أننى لم أكن أستطيع النمو بعد ، وتلزم فترة من الوقت حتى أجد قدرة النمو.

ومن خلال البرودة التى وجدت طريقها إلى أسفل التراب فهمت أن الشتاء قد حل، وأن الثلج قد غطى التراب، وقد تجمد التراب فوقى بنصف شب، أما تحت التراب فقد كان دافئاً بحيث لا أبرد ولا أتجمد . وعلى هذا النحو توقفت عن الحركة والاهتزاز مؤقتاً، وغرقت فى نوم عميق ولذيت تحت التراب . نمت لأستيقظ فى الربيع وأستعد بقوة أكبر، وأنمو وأخرج من التراب وأصبح شجرة يانعة مملوءة بالفاكهة من أجل " بولاد " و " صاحبلى " . شجرة مليئة بالخوخ الكبير والندى ذي الوجنات الملونة مثل البنات الحسنات الخجالات .

لا يعلق بذهنى الكثير عن الأحلام التى رأيتها فى الشتاء . ما أعلمه فحسب أننى رأيت ذات مرة حلماً أننى قد أصبحت شجرة كبيرة ، وأن " بولاد " و " صاحبلى " يتسلقانى ويهزان فروعى . وأن جميع أطفال القرية العرايا كانوا قد تجمعوا حوالى يتلقفون خوخاتى من الهواء ويأكلونها بلذة ويسيل اللعاب من أفواههم ويبلل صدورهم ويطونهم العارية . وأخذ طفل أقرع ينادى على " بولاد " وكان يقول له : " بولاد " ألم تقل لى ما اسم هذا الشئ الذى نأكله ؟ ففى النهاية أريد أن أعود إلى البيت وأقول لجدى ماذا أكلت . وأكلت منه الكثير أيضاً ولكن من كثرة ما كان لذيذاً، حتى الآن لم أشبع . ومستعد أيضاً أن أكل منه ثانية . وأنا مستعد أن أراهن أننى لم أشبع .

كان هناك طفلان أيضاً لم يكن يستر جسديهما شيئاً ، وقد كان

الذباب يحوم بكثرة حولهما بل ويحط على أنفیهما وفمیهما . كان الأطفال من كل صوب یمسكون بالخوخ الكبير فی أيديهم، وكانوا یقضمونه بلذة وهم یبدون إعجابهم به .

كان هذا أحد أحلامی .

آخر مرة رأیت فی الحلم زهرة اللوز .

كنت قد سقطت مریضة فاقدة الوعي، وفجأة علا صوت هادئ، وأحسست أن روائح معهودة قد صاحبت الصوت، وامتدت إلى ماتحت التراب . قالت الصوت : يا زهرة اللوز، تقدمی وانفتی عطرك داخل وجود الخوخة الجميلة، وإذا لم تستيقظ مرة أخرى ، إمسحی بیديك على وجهها وجسدها واتركیها تتنسم جيداً أريج الزهر . الخلاصة أيقظیها بأسرع ما یمكنك . فقدحان وقت نموها واخضرارها، وكل النوى آخذٌ فی الاستيقاظ .

كان عطر زهرة اللوز ویدها یتحركان على وجهی وجسدي ، كانا لذین بحیث أننی كنت أريد أن أظل فاقدة الوعي ، ولكن لم يحدث . عدت إلى وعی وأردت أن أتظاهر بفقدان الوعي مرة أخرى ، ولكن زهرة اللوز ضحكت وقالت : كفاك دلالاً يا روحی . إن بذرة الحياة كامنة فی داخلک فاتخذتی قرارك بأن تأخذي فی النمو وتصبحی شجرة كبيرة وتؤتي أكلک أليس كذلك ؟

كانت زهرة اللوز مثل عروس جميلة ترتدى ثوباً من الثلج الأبيض النقی وكانت شفتاها فی احمرار الورد . مما لا شك فيه أنى لم أكن رأیت الثلج من قبل وكنت قد سمعت وصفه من أمی عندما كنت ثمرة خوخ .

كنت أريد أن أعرف مع من كانت زهرة اللوز تتحدث من قبل،
ومن الذى قد أحضرها فوق إلى رأسى . طوقت زهرة اللوز رقبتي
بيديها ، وقبلتني وقالت ضاحكة: ياله من قوام ضخم تمتلكين
بحيث لا تحيط به يدي .

ثم قالت : - كان الربيع هنا أيضاً وقال : هذا أوان النماء والاختصار .
وأنا بسماعى اسم الربيع كأنى كنت نائمة واستيقظت، إذ ظننت أن
الربيع قد جاء وولى وأنا لم أشق قشرتى بعد . وبهذا الهاجس فرعت من
النوم مندهشة . ورأيت التراب الأسود الرطب يحتوينى ويداعبنى .
وكانت قشرتى مبللة من الخارج بينما تصببت عرقاً من الداخل ،
وكانت القطرات تتصبب من أعلى سطحى . وكانت تتساقط من
أطراف بدنى وتنساب أسفل جسدى وفى التربة . وكانت هناك عدة
حببات من نبات الخمخم تلتف حولى . كانت منهمكة فى بسط
جذورها ، وكانت إحداها قد استوت ولعلها كانت قد أطلت من
التراب . وكانت جذورها الرقيقة تطل هنا وهناك ، وأخذت تمتص
ذرات الغذاء والماء وتجمعها فى موضع واحد وترسلها لأعلى . وكانت
هناك بذرة مجهولة قد أنبتت جذراً صغيراً وأحنى رأسها، وأخذت
تثقب التراب بصبر وهدوء وتصعد ، إذ كانت قد قررت أن تشاهد بعد
يومين بزوغ الشمس .

وكان الجذر الجديد يعبر من تحت جسدى ، وأخذ يتقدم فى كل لحظة
ويزداد طولاً ويدغدغنى . وأخذ يقول أنه ينتمى إلى شجرة اللوز الواقعة
على حافة الجدول، وأخذ جذر اللوز يمتص رطوبة التراب وذرات
الغذاء بكل قوته ويتشربها .

وكان الماء الذى ينساب على وجهى هو الماء الذى كان على وجه التراب وانقطع بعد عدة أيام .

سمعت ذات يوم صوت خشخشة، وبعد قليل قدم إلى سرب من النمل الأسود النشط الماهر وشرع فى لدغى وعضى . وكان النمل قد جلب حرارة الشمس وهواء الربيع إلى داخل التراب . ومن لدغاتهم فهمت أنهم آخذون فى النقب . ولدغونى لفترة من الوقت ، وعندما رأوا أنهم لن يستطيعوا ثقبى حولوا مسارهم ونقبوا فى مكان آخر . ولم أرهم مرة أخرى حتى أطلت من التراب وصرت شجرة .

كنت قد امتصصت قدرا من الماء بحيث انتفخت وتمزقت قشرتى نتيجة لذلك . ذلك الوقت أخرجت جذيرى على شكل عود أبيض من شق قشرتى . وغرسته فى التراب حتى ينمو ويصبح جذراً لى حتى أستطيع أن أستند عليه وأنتصب . وبعد ذلك أخرجت سويقى ، وعلمته كيف يحنى رأسه ويثقب التراب ووجهه إلى أعلى ويسمق ويذهب ليجد الشمس . وأقصى طرف سويقى كانت توجد برعمة صغيرة ، وبينما كنت أطل من التراب أخذت أجعل منها ساقاً مورقاً حتى يصبح جذيرى جذراً ، ويستطيع أن يجمع الغذاء ، وأخذت أطعم جذيرى وسويقى من الغذاء المدخر لدى .

وكان لدى هواء أيضاً داخل التراب حتى لا أختنق . كما كانت حرارة الخارج أيضاً تنفذ داخل التراب .

وفى هذه المراحل أيضاً لم أكن تعبت بعد . وكنت من قبل قد نموت داخل نفسى وأفنيت ذاتى وصرت شيئاً آخر . مما لا شك فيه أننى كنت نواة فى مرحلة ما ، كنت نواة كاملة . ولم أكن بعد أستطيع أن

أنمو وأتحرك . أما الآن ، وأنا كنت أريد أن أصبح شجرة ، كنت شجرة شديدة النقص . وكان لا يزال لدى مجال واسع للنمو والحركة . وكنت أفكر أنه ربما كان هناك فرق واحد بين نواة كاملة وشجرة ناقصة، وهو أن النواة الكاملة تكون قد وصلت إلى طريق مسدود وإن لم تتغير سوف تعطب ، أما الشجرة الناقصة فأمامها مستقبل زاهر . وفى الأصل أن كل شئ يتغير من لحظة إلى أخرى . وعندما تتراكم هذه التغيرات وتصل إلى حد معين ، نحس نحن أننا لم نعد بعد الشئ السابق ، لكننا شئ آخر . مثلاً أنا نفسى الذى لم أكن على شكل نواة بل كنت على شكل شجرة ، كان لدى جذير وسويق وكنت قد جمعت براعمى ووريقاتى الصفراء بين فلقتى فوق رأسى، وأخذت أنمو تدريجياً . كنت أريد عندما أطل من التراب أن أنشر وريقاتى أمام الشمس حتى تصبغها الشمس باللون الأخضر . وكنت أتصور الأغصان المليئة بالبراعم وثمار الخوخ البضة الحمراء . كنت شجيرة لا قيمة لها ، ومع ذلك يا له من مستقبل مضيء كان أمامى .

وكانت حصاة بحجم الجوزة قد سدت الطريق أمامى، ولم تكن تتركنى أصعد إلى أعلى، ورأيت أننى لا أستطيع ثقبها، فاضطرت إلى الالتفاف والعبور وصعدت إلى أعلى .

وكلما كنت أصعد إلى أعلى كنت أشعر بحرارة الشمس أكثر، وكنت أنجذب صوب الشمس أكثر . والآن كنت أستطيع ثنية الحركة من بين جذور الأعشاب الموجودة على وجه الأرض . وبلغت فى النهاية موضعاً كان ضوء الشمس ينير التراب فيه بشكل أو بآخر . وفهمت أنه لم يبق فوقى أكثر من قشرة ناعمة ، ويعد عدة ساعات أخرى

شقت الأرض بهزة من الرأس ورأيت الضوء والحرارة اللذين كانا قد جاءا لاستقبالي .

كنت الآن على وجه الأرض ، الأرض التى كانت جدتى وكانت أُمى أيضاً ، وأيضاً أم جميع المخلوقات الحية .

وشجرة اللوز البيضاء كانت تلمع من قمة رأسها إلى أخمص قدمها تحت الشمس على تل من التراب . وهكذا كانت فرحة ، وجعلتنى أسعد من أعماق القلب ألقيت عليها السلام . قالت شجرة الجوز : السلام على وجهك القمرى يا روحى ، مرحباً بك على وجه الأرض ، وما أخبار باطن الأرض؟

كانت شتلات الخمخ قد نمت، وكانت تلقى بظلالها، ولكننى لم أكن أملك بعد سوى ورقتين باهتتي اللون لا أكثر. وكنت أرفع رأسى قليلاً قليلاً.

وفى اليوم الذى جاء فيه كل من " بولاد " و " صاحبعلی " نحوى، كان لدى عشرة أو إثنتا عشرة ورقة خضراء وساق كان أعلى من بعض الأعشاب ، ولكن شتلات الخمخ كانت أطول مما أنا عليه بكثير. فكانت تسمق بسرعة وقوة إلى درجة أننى كنت أتعجب ، وكنت أتخيل فى البداية أنه بعد عدة أيام أخرى سوف تمتد رؤوسها أيضاً أعلى من شجرة اللوز. ولكن عندما انتبهت وجدت أنها ليس لها جذور وعروق قوية فى الأرض . وقلت لنفسى سوف تذبل شتلات الخمخ سريعاً وسوف تمحى .

سر " بولاد " و " صاحبعلی " من رؤيتى ، وقال كلاهما : هذه فى النهاية ملكنا . أحضرا عدة حفنات من ماء الجدول وصباها تحت

قدمى وتركانى وذهبا . ولعل البستانى كان بالقرب منى يسقى الأحواض ، وكان صوت معوله مسموعاً .

وكان أواخر الربيع ، عندما رأيت أن بواتق الخمض تبدو وكأنها لن تستطيع أن تنمو ، كانت قد أزهرت وبعثرت بذورها وأخذت تموت قليلاً قليلاً . وعندما حل الشتاء كنت فى حجمها ولكن لم تكن لى فروع بعد . كنت أريد أن أستوى على عودى قليلاً ثم أنبت فروعاً .

كان " بولاد " و " صاحبلى " يأتيان كثيراً إلى ، وأحياناً كانا يجلسان فترة من الزمن ويتحدثان عن مستقبلى وعن خططهما . ذات يوم كانا قد أحضرا حية كبيرة اللون براقّة، وكان من المعلوم أنهما حطما رأسها بالهراوة، ثم حفرا الأرض على بعد نصف متر منى ودفناها هناك تحت التراب .

صفق " بولاد " وقال : سوف تقوم بعمل شديد الإمتاع .
مما لاشك فيه أنه كان يقصدنى .

قال " صاحبلى " : - الحية الواحدة تساوى عدة أحمال من السماد والروث .

قال " بولاد " : - أظن أنه فى العام القادم سوف نأكل بواكيرها .

قال " صاحبلى " : - الله أعلم ، إننا حتى الآن لا نملك شجرة .

قال " بولاد " : - ليكن ، قد سمعت أن شجرتى الخوخ والمشمش تثمران سريعاً .

كنت أيضاً أعلم هذا ، فأمى وعمرها عامان كانت قد أثرت ثمرتى خوخ .

كنت أفكر ماذا سيكون شكلى عندما تكبر خوخاتى وتنضج ، كنت

أُتمنى أن أثمر سريعاً حتى أرى كيف تمتص الخوخات عصير جذعى .
وكنيت أتمنى أن تثقل خوخاتى وتُحنى أغصانى حتى تصل أطرافها
الى الأرض .

مضى الصيف وحل الخريف

كنت قد أعددت أنابيب رقيقة داخل جسمى بحيث أن كل ما كانت
تمتصه جذورى من الأرض كانت ترسلها إلى أعلى عبر تلك الأنابيب .
وفى أواسط الخريف أغلقت الأنابيب من عدة أماكن، ولم تعد
جذورى ترسل العصارة بعد إلى أعلى . فى ذلك الوقت بدأت أوراقى
التي لم يكن يصل إليها الغذاء فى الذبول والاصفرار . وأنا أيضاً
قطعت أطرافها جميعاً حتى هبت الريح وألقت بها على الأرض،
وأصبحت عارية .

كنت قد عقدت فى طرف كل ورقة عقدة صغيرة . كان هدفي أن أنبت
فى الربيع التالي من كل منها غصناً صغيراً ، وأعد فرعا وكنيت أيضاً قد
فكرت فى بشائرى وكنيت أريد أن أثمر مثل أمى وعمرى عامان . حقا
لا أتذكر جيداً فقد كان هناك فوق جذعى أربع أو خمس عقد، وكنيت
أنتوى أن أعطى منها براعم وزهورا ، وأحببت أن أفكر بانتظام فى
زهورى .

كلما كان الهواء يزداد برودة ، كان النوم يغلب على أكثر ، بحيث أنه
عندما حط البرد على الأرض وتجمدت، كنت أغط فى نوم عميق .
وكان " بولاد " و " صاحبلى " قد أحاطانى بالأصلة وقطع الخيش ،
كنت فى النهاية لأزال أملك قشرة هشة رقيقة ، وكنيت أعتبر فى جليد
الشتاء غذاءاً لذيذاً للآرانب . علاوة على ذلك كان من الممكن أن

يضربنى البرد ، وأنذاك كنت أضطرب فى الربيع أن أنمو من الأساس مرة أخرى .

عندما حل الربيع كانت جذورى هي التى إستردت وعيها فى البداية ، وبعد ذلك إستيقظ جذعى لوصول العصارة الجديدة ، وتحركت أغصانى وانتفخت قليلاً ، والماء الذى كان يصل إلى من التراب كان يفرغ كل أغصانى من النوم ويدفعها إلى الحركة وكنت أنبت داخل أغصانى أوراق متناهية فى الصغر ، بحيث أنه عندما تتفتح أغصانى أجعلها كبيرة عريضة ، الآن كانت براعمى قد صارت مثل حبة الشعير ، أو أكبر قليلاً . ولم يكن قد تبقى لى أكثر من ثلاثة براعم . إحداها كان العصفور الشره قد نقره وأكله . وانبثقت منى ثلاثة زهرات ولكنى رأيت أنه أثناء العمل لن أستطيع أن أجعل من ثلاثتها ثمارا . سقطت واحدة من زهراتى فى البدايات وذبلت ، والثانية جعلتها ثمرة لم تنضج بعد ، ثم لم أستطع توصيل الغذاء لها فذبلت وهبت الريح وأسقطتها على الأرض . وأنذاك جمعت كل قوتى حتى أنضج ثمرة واحدة لا نظير لها ولا شبيهه ، بحيث أن كل من يراها تتسع عيناه دهشة ، وكل من يذوقها لا يقرب بشفتيه فاكهة أخرى . وبدأت فى تغذية ثمرتى داخل مئبر الزهرة وتكبيرها حتى تمزق مئبر الزهرة وخرجت ثمرتى غير الناضجة . واستقرت قبيل قمة رأسى ، بناء على هذا فمنذ ذلك اليوم الذى كانت فيه فى حجم ثمرة اللوز الفجة ، كانت تحمىنى بشكل أو بآخر . وإن كان ينتابنى القلق ، أنه كنت أريد أن أنضج ثمرة على ما أهوى فينبغى أن ينحنى خصرى وربما ينكسر ، لكنى كنت فى الأصل لا أريد بسبب المتاعب التى لابد

وأن تحدث أن أصيب ثمرتى بالذبول وألقى بها بعيداً . وإن أردتم الحقيقة كنت قد قررت أن أبلغ بثمارى فى السنوات التالية الألف عدداً ومن هنا كان من اللازم أنه منذ الخطوة الأولى وحتى الثمرة الأولى أن أنجح فى الامتحان . وكانت الحية التى دفنها الصبيان بالقرب منى تحت التراب قد تلاشت، وجعلت التراب الموجود حولى شديد القوة، ومن بركة نفس هذه الحية كنت قد صرت صاحبة فروع وأوراق ذات وزن .

وكان " بولاد " و " صاحبلى " فى تلك الأيام قليلا ما يأتیان إلى، وأظن أنهما كانا يذهبان عند أبويهما فى المزرعة إما من أجل الحصاد ، أو درس المحصول ، لكنهما فى اليوم الذى جاء فيه إلى وغرسا عصيهما إلى جوارى فى الأرض وربطانى بها ، أظن أنه كان نفس اليوم الذى قال " بولاد " فيه فجأة : " صاحبلى " !
قال " صاحبلى " : - هيا ! قل !

وقال " بولاد " : - أقول لا قدر الله أن يكتشف هذا البستانى - ابن الكلب - شجرتنا.

وقال " صاحبلى " : - يكتشفها يعنى ماذا ؟
ولم يقل " بولاد " شيئاً ، وقال " صاحبلى " : - لا يستطيع أن يقوم بعمل خاطئ ، الشجرة زرعتها نحن ورعايناها نحن وثمارها ملك لنا .
وغرق " بولاد " فى تفكيره ثم قال : الأرض ليست ملكا لنا .
وقال " صاحبلى " : - لا يستطيع أن يرتكب خطأ أيضاً ، الأرض ملك لمن يزرعها ، هذه القطعة من الأرض التى زرعتها فيها الشجرة ملك لنا وتشجع " بولاد " وقال : - نعم ملك لنا . إذا ارتكب خطأ ماغرق البستان كله .

ضرب " صاحبعلی " صدره العارى الذى لوحته الشمس بقبضته وقال: ليمت هذا الجسد إذا تركته يهنأ بشرية ماء ، نشعل النار ونفر .
أظن أنه إن لم يكن " بولاد " و " صاحبعلی " أعطيانى عصيهما فى ذلك اليوم بالتأكد كنت سأتحطم، لأن ريحا عاتية كانت قد هبت خلطت كل فروعى وأغصانى ، وفى الصباح رأيت أن عدة أغصان من شجرة الجوز قد تحطمت .

كانت الأيام تمر تلوبعضها وكنت بكل قوتى أجعل من الثمرة أكبر وأكبر وأترك الشمس تلون خديها بالاحمرار ، والحرارة تنفذ إلى داخل لحمها . والتصقت إبنتى بجسدى بشكل قوى، وأخذت تمتص بحيث كان جسدى يؤلنى أحياناً لكننى لم أكن أغضب قط منها ، وكانت لى ابنة جميلة فى النهاية .

كان " صاحبعلی " و " بولاد " قد انشغلا بى بحيث نسيا على وجه التقريب الأشجار الأخرى فى الحديقة ، ومثل السنوات الماضية لم يعودا يجلسان فى ظل ثمار أمى . وأنا كنت أعتبر نفسى ملكا لهما، وكنت أعطيتهما الحق عندما تنضج ثمرتى تماماً أن يقطفاها وأن يأكلاها ممتعين كما أكلانى أنا نفسى فى يوم من الأيام .

كانت أوائل الخريف عندما جاء " بولاد " إلى وحيداً حزينا وكانت المرة الأولى التى أرى فيها أحديهما وحيداً ، وروانى " بولاد " فى البداية، ثم جلس فوق الأعشاب وهمس إلى والى ثمرتى قائلاً: - ياخوختى ، يا خوختى الجميلة ، أتعلمين ماذا حدث ؟ ألا تعلمين قط لماذا أنا اليوم وحيد؟ نعم أرى إنك لا تعلمين . مات " صاحبعلی " ، لدغته حية ... وننه منجوق العجوز قضت ليلة كاملة فوق رأسه،

وأظن أنه لم تكن تتأتى منها فائدة وكل الأدوية التى كانت قد ذكرتها ذهبت أنا ووالد " صاحبلى " وجئنا بها من الجبل والصحراء ولكن " صاحبلى " لم يعاف .

مسكين " صاحبلى " ! لماذا ذهبت آخرًا وتركتنى وحدى؟
وبداً " بولاد " فى البكاء ثم تحدث ثانية قائلاً: منذ عدة أيام عندما كنت عائداً من الخلاء ظهراً، التقينا فوق التل، وقررنا أن نذهب ونصيد حية مثل العام الماضى وندفنها فى نفس المكان بحيث تجعل تربتك شديدة القوة، وذهبنا إلى وادى الحيات ، وفى وادى الحيات ، حيات لا تحصى، وفى ناحية من الوادى جبل كله من صخر، لا تظني أن الجبل قطعة واحدة من الصخر، لا ، تخيلي أحجاراً كبيرة وصغيرة إنصببت من السماء فوق بعضها وصارت تلاً، واتخذت الحيات جحورها وسط الحجارة، وعندما كانت الحرارة تصادف أجسادها تخرج . وأرضنا وأرض جيراننا وأرض ابن خالة " صاحبلى " وعدد آخر كلها داخل وادى الحيات، ومن باطن الأرض يسمع دائماً صوت فحيح الحيات .

أخذنا ننظر أنا و " صاحبلى " فى سفح الجبل إلى ما وراء الأحجار، وكنا نضع عصينا داخل الجحور حتى نجد لك حية سمينة ، وكنا كالعادة عرايا ، كان على جسد كل منا مجرد سروال، وكان ظهرانا قد إكتويا بالحرارة بحيث لو وضعتى بيضة عليها لنضجت . وهكذا بينما كنا نقفز من هذه الصخرة إلى تلك الصخرة، إنزلقت فجأة قدم " صاحبلى " وسقط على ظهره وصرخ فجأة بحيث امتلأ الوادى بصوته ، كان " صاحبلى " قد سقط على صخرة كانت حية قد

تحلقت فوقها وصرخ " صاحبلى " صرخة أخرى وسقط فى أعماق
الوادي فوق التراب . وأنا بدورى لم أمهل الحية فضربت بها بالعصا فوق
رأسها ثم فوق بطنها ثم ثانية فوق رأسها وكان فى بطنها فأران
وعصفور .

كان " صاحبلى " قد سقط فاقد الوعي ولم يكن يصدر عنه صوت .
وألقيته عصاه بعيداً لا أدري إلى أين، وكان موضع لدغ الحية أحمر
اللون، ولو كانت الحية قد أصابت قدمه أو يده كنت أعلم ماذا ينبغى
على أن أصنع لكن أى أمر كنت أستطيعه والدغة فى وسط ظهره؟
واضطرت إلى حمل " صاحبلى " على كتفى وجئت به إلى القرية ،
وقالت "ننه منجوق" العجوز لأمى صباحاً عند القبر أننى لو كنت
حملت " صاحبلى " إليها أسرع لما مات . الخلاصة بأى شكل كنت
أستطيع أن أحمل " صاحبلى " أسرع يا شجرة الخوخ ، أنت نفسك
تعلمين أن " صاحبلى " كان أثقل منى وزناً، ولو كان لدى حمار
ووصلت متأخراً لكان لـ "ننه منجوق" الحق فى القول بأننى
تأخرت . فى النهاية أى أمر كنت أستطيع القيام به ؟

وبداً " بولاد " ثانية فى البكاء، وكنت الآن أحس أننى أحب
" صاحبلى " و " بولاد " حباً شديداً . وعندما فكرت أننى لن أرى
ثانية " صاحبلى " أوشكت من شدة الحزن أن أسقط أوراقى وأن
أجف إلى الأبد ولا أنبت غصناً .

وانتهى " بولاد " من بكائه وقال: إننى لا أستطيع أن أبقى فى القرية
ثانية فحيثما أذهب أرى صورة " صاحبلى " أمام عيني وأحزن،
وعندما أذهب إلى الجبل، أو آخذ الماعز إلى الخلاء، وعندما أريت

بيدى فوق رؤوس الكلاب، أو أمضى سائرا فوق الروث، أو اصطاد مع الأطفال الآخرين داخل المزرعة الجراد والضب أو أدق الأعشاب ، وعندما أصدع فوق السطوح، دائما صورة " صاحبلى " أمام عيني وكأنه يناديني " بولاد " " بولاد " !! أجل يا شجرة الخوخ إننى لا طاقة لى على سماع هذا الصوت أريد أن أذهب إلى المدينة عند خالى أعمل صبيا لبقال، وأنا لا أعلم ماذا كان ينبغي على فعله لكى يبقى " صاحبلى " حيا ، والآن لا أدري أيضا ماذا أفعل بحيث لا أسقط مثله فجأة وأموت ، أنا صغير لا يسع عقلى أى شئ ، كل ما أعلمه أننى لا أستطيع أن أبقي فى القرية . أنا ماض يا شجرة الخوخ، تركت ثمرتك أيضا من أجلك .

وعندما رأيت أن " بولاد " يريد أن ينهض ويهضى تركت ثمرتى تسقط أمام قدمه، وحمل " بولاد " الثمرة وشمها ثم نظفها من التراب، وتحسنى من أخمص القدم حتى مفرق الرأس بيديه وتركنى ومضى .

وفى السنة التالية كنت قد استويت تماما على عودى، وكنت قد أنبت أوراقا وأغصانا كثيرة من جميع أجزاء جسمى ، وكنت قد طرحت عشرين أو ثلاثين زهرة، وكنت أستطيع آخر الأمر أن أرتفع على تل التراب، وأطل برأسى وأشاهد أنحاء البستان، وذات يوم انتبه البستانى إلى، وجاء وأمعن النظر فى ، ومن الفرحة لم يكن يعلم ماذا يصنع، ومن شكلى ولون أوراقى وزهورى فهم إبنة من أكون ، كانت شجرة خوخ جميلة قد نبتت داخل بستانه بدون أن يقوم بأى مجهود،، وكنت فى غاية الضيق لأننى سقطت فى النهاية فى يد

بستانى هو نفسه خادم لرجل غنى آخر ومن أجل النقود جعل من أهل القرية أعداء له .

كنت قد أنضجت عشرة أو خمس عشرة ثمرة لكننى عندما كنت أفكر من أجل من ستكون ثمراتى نصيباً، كنت أستاذ من نفسى ، لقد كان قد زرعنى " بولاد " و " صاحبلى " وريبانى والحق كان أن يأكلها ثمراتى .

وذات يوم عنيت لى فكرة، ومنذ نفس ذلك اليوم بدأت فى إسقاط ثمارى وعندما انتبه البستانى أنه لم تبق ثمرة أخرى فوق ، ظن أن مغرسى سيء وقال بصوت عال: فى السنة التالية أغير مغرسك بحيث تستطيعين أن تروى جيداً وتثمرى ثماراً كبيرة وجميلة .

وفى ربيع السنة التالية عندما أيقظت جذورى، رأيت أن كل نظامها قد اختل وبعضها جف، كما أن بعضها قد أقتلع، ولا جدال كانت لدى جذور سالمة وكثيرة ، فبدأت أغمس جذورى السالمة فى التراب الرطب ثم أنبت جذوراً جديدة ووزعتها حولى، وفكرت ذلك الوقت فى إنبات أغصان وأوراق وبراغم ، وعرفت أمدى .

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن لم أدركم عام مر من عمري، لم يستطع البستانى أن يجعل من ثمارى بشائر، ومن الآن فصاعداً لن يجعل منها بشائر، فأنا لا أطيعه، وهو الآن يريد أن يخوفنى أو يقطعنى بالمنشار أو يتوسل إلى .

١١ - أربع وعشرون ساعة من القلق

القارئ العزيز:

لقد كتبت قصة " نوم ويقظة " لكى تصبح تدريبا لك ، وقصدى أن تتعرف أكثر على أطفال وطنك ، وتفكر فى وسيلة لعلاج الآمهم ؟ لو أردت أن أكتب ما حاق بى فى طهران لطال الأمر ، وربما أصاب الجميع الملل ، ومن هنا سأشرح الأربعة والعشرين ساعة الأخيرة التى أظن أنها أيضاً ليست مملة ، ولا جدال فى أننى مضطر أن أتحدث أيضاً فى كيفية مجيئنا أنا وأبى إلى طهران :

كانت قد مرت عدة شهور وأبى عاطل . فى النهاية ترك أمى وأختى وإخوتى فى مدينتنا ، وأخذ بيدي وجئنا إلى طهران ، وكان عدة أشخاص من معارفنا ومن نفس المدينة قد ذهبوا إلى طهران من قبل ، واستطاعوا أن يجدوا عملاً . وجئنا أيضاً بناء على رغبتهم ، فواحد من المعارف كان لديه كشك صغير لبيع الثلج . وآخر كان يشتري الثياب القديمة ويبيعها . وواحد آخر كان بائع برتقال ، وأحضر أبى أيضاً عربة يد وأصبح بائعاً جائلاً ، كان يدور بالبصل والبطاطس والخيار وأشياء من هذا القبيل . كنا نأكل لقمة عيش ونرسل لقمة عيش لأمى . كنت أنا أيضاً أحياناً أتجول بصحبة أبى وأحياناً أخرى أتسكع فى الشوارع بمفردى ، وكنت أعود إلى أبى فى الليل فقط . وأحياناً أيضاً كنت أبيع اللبان بريال أو فال حافظ وما إلى هذا .

الآن نأتى إلى أساس الموضوع :

تلك الليلة كنت أنا وكان " قاسم " ، وابن زيور بائع اليانصيب ، و" أحمد حسين " واثنان آخران قد تصادقنا منذ ساعة أمام طوار البنك.

كنا جالسين نحن الأربعة على طوار البنك وكنا نقول أين نذهب لنلعب بالزهر، فجاء الجميع وجلسوا بجانبنا، كلاهما كانا أكبر منا، كان أحدهم أعور وكان الآخر يتعل حذاء أسود جديداً، ولكن العظمة القذرة لإحدى ركبتيه كانت تطل من ثقب في سرواله، وكان مظهره أسوأ منا.

بدأنا نحن الأربعة نسترق النظرات إلى حذائه ثم نظرنا أيضاً إلى وجهه، وقال بعضنا للبعض بالنظر أيها الأطفال فلتنتبهوا أننا نتعامل مع سارق أحذية. وقال صاحبنا الذى انتبه إلى نظراتنا: ماذا؟ ألم تروا حذاء؟!

قال صديقه: لا تعبأ بهم يا محمود، ألا ترى أنهم جميعاً فى غاية الهزال، فأين رأوا حذاء هؤلاء المساكين.

قال محمود: كان ينبغي أن أنظر إلى أقدامهم الحافية ثم أسألهم: ألم يروا حذاء فى أرجلهم.

قال صديقه وكان أعور: ليس الجميع مثلك لديهم أب من الأعيان ينفق ببذخ ويشترى لأطفاله أحذية جديدة.

بعد ذلك أغرق الاثنان فى ضحكة مكتومة. وبقينا نحن الأربعة وحدنا، نظر "أحمد حسين" إلى "ابن زيور" ثم نظر كلاهما إلى قاسم، ويعد ذلك نظر ثلاثتهم إلى، ماذا نفعل؟ نشاغب أو نتركهم يضحكون علينا ويخدعوننا؟

قلت لمحمود بصوت عال: أنت لص! لقد سرقت الأحذية.

إنطلق كلاهما فى ضحك مكتوم كالفقاقيع، وأخذ الأعور ينخره بكوعه وهو يقول: ألم أقل يا محمود؟ هاها، ألم أقل؟؟ هه... هه... هه...

وكانت سيارات مختلفة الألوان قد توقفت على جانب الشارع، وكانت قد ألصقت ببعضها وكأنها جدار من حديد كان قد وضع أمام وجوهنا . وتحركت السيارة الحمراء التي كانت أمام وجهى مباشرة، وظهرت فجوة بحيث أرى وسط الشارع .

وكانت السيارات المتنوعة من أجرة وملاكى وحافلات قد ملأت نهر الشارع وأخذت تتحرك ببطء ولصق بعضها البعض، وكانت تحدث جلبة وهى تتقدم وكأن كل منها تدفع الأخرى وتصرخ كل منها فى الأخرى . وفى رأى أن طهران أكثر أماكن الدنيا ازدحاماً، وهذا الشارع أكثر الشوارع ازدحاماً فى طهران .

أوشك الأعور وصديقه محمود على الإغماء من شدة الضحك، وأخذت أدعوا الله أن تقع بيننا مشاجرة لأننى كنت قد تعلمت شتمة جديدة ، وكنت أريد بأى شكل كان حتى ولو كانت فى غير موضعها أن أوجهها إلى أحد . أخذت أقول لنفسى : ليت محمود يصفعنى ، ذلك الوقت أغضب وأقول له: " ترفع يدك علىّ؟ الآن آتى وأمزق خصيتك بالمطواة أنا بنفسى؟! وعلى هذه النية أمسكت بخناق محمود الذى كان جالسا إلى جوارى وقلت : إن لم تكن لصا فقل لى من الذى أشتري لك الحذاء؟

هذه المرة انقطع الضحك ، وأبعد محمود يدي بعنف وقال : إبقى فى مكانك، يا ولد ، ألا تفهم معنى كلامك؟

ألقي الأعور بنفسه بينهما ولم يترك المشادة تحتدم ، قال : دعك منه يا محمود ، هذا الوقت من الليل لا يحتاج إلى إثارة مشاجرة ، اترك مذاق الضحك يظل فى أفواهنا .

نحن الأربعة كنا نفكر فى المشاجرة والتضارب، ولكن محمود والأعور
كانا يرغبان حقيقة فى المرح والضحك .

قال محمود لى : - يا أخينا نحن لا نفكر الليلة فى الشجار، ولو كنت
تشتهى الشجار، لنؤجله إلى الليلة القادمة .

قال الأعور : - الليلة ، نرغب أن نتمازح قليلا حسنا ؟
قلت : - ليكن .

جاءت سيارة لامعة ووقفت أمامنا على جانب الشارع، وشغلت
المكان الخالى . ونزل منها سيد وسيدة شابان وكلب أبيض لامع .
وكان هناك ولد فى قامة أحمد حسين تماما، يرتدى سروالا قصيرا
وجورياً أبيض . وحذاء مكشوفاً ذا لونين وكان مصفف الشعر
مدهونه . ويمسك فى إحدى يديه نظارة بيضاء . وأمسك بيده الأخرى
يد أبيه، وكانت سلسلة الكلب فى يد السيدة ، بينما كان ساعداها
وساقاها عاريين وفى قدمها حذاء ذو كعب عال ومررت بنا فصافح
أنوفنا عطر جميل . ورفع "قاسم" قشرة من تحت قدمه وألقاها بشدة
فى قفا الولد . عاد الولد ونظر إلينا وقال : متشردون .

قال أحمد حسين بغضب : غور فى داهية ، ولد مدلل . وجدت فرصة
وقلت : الآن آتى وأمزق خصيتك بالمديّة ، وانطلق الأولاد فى الضحك
مرة واحدة فسحب الأب يد الولد ودخلا فندقا كان يبعد عدة أمتار .
اتجهت الأنظار كلها مرة أخرى إلى حذاء محمود الجديد ، قال
محمود بمودة : ليس الحذاء بالنسبة لى مهما جدا، لو أردتموه فليكن لكم .
ثم التفت إلى أحمد حسين ، وقال - تعال يا صغيرى ، تعال إخلع
الحذاء عنى وضعه فى قدمك .

وألقى أحمد حسين نظرة شك إلى قدم محمود ولم يتحرك .
قال محمود: لماذا وقفت تنظر؟ لا تريد الحذاء الجديد؟ هيا تعال خذه.
هذه المرة نهض أحمد حسين، وذهب وانحنى أمام محمود ليخلع عنه
الحذاء . وأخذ

ثلاثتنا ننظر ولا نقول شيئاً .

أمسك أحمد حسين بقدم محمود بشدة وسحب، لكن يديه انزلقتا
وسقط على ظهره فى الشارع . إنطلق محمود والأعور فى الضحك
بحيث أننى قلت لنفسى ستوجعهما بطناهما . وكانت يدا "أحمد
حسين" قد اسودتا وأخذ الأعور يلرز جنب محمود ويقول: ألم أقل يا
محمود؟ هاها ... ها : ألم أقل؟ هه ... هه ...

وكانت آثار أصابع أحمد حسين المنزلة تشاهد على قدم محمود .
وانتبه ثلاثتنا أخيراً إلى أننا خدعنا ، وسرت إلينا عدوى ضحك ذلك
الرفيقين النصابين فانطلقنا ضاحكين ، ونظر إلينا أحمد حسين لفترة
الذى كان قد قام متضايقا من تحت أقدام الناس ، ثم انطلق هو
أيضاً فى الضحك ، ثم ضحك لا نهاية له . وأخذ المارة ينظرون إلينا
ويمرون ، انحنيت ونظرت إلى قدم محمود عن كثب ، أين كان الحذاء
!! كان محمود قد دهن قدميه بحيث كان المرء يظن أنه لبس حذاءً
أسود جديداً ، فيالها من خدعة عجيبة .

قال محمود : - هيا نلعب نحن الستة بالزهر.
كان لدى أربعة قروش ، ولم يقل قاسم كم لديه من النقود . وكان مع
ذلكما الرفيقين خمسة قروش ، وكان مع ابن زيور، بائع البانصيب

عشرة قروش . ولم يكن مع أحمد حسين أية نقود ، وكان أسفل الشارع قليلاً محل مغلق ، وذهبنا إليه وأمامه شرعنا فى رمى الزهر .

ولنبداً اللعب رمينا رمية القرعة . وقعت القرعة الأولى على ابن زيور ، رمى الزهر ، جاء على الخمسة ثم جاء دور قاسم ، رمى الزهر جاء على الستة وأخذ قرشاً من ابن زيور وألقى بالزهر مرة أخرى فجاء على اثنين وأعطى الزهر لمحمود ، جاءت لمحمود على أربعة فأخذ قرشين من قاسم ، صفق بيده بسرور وقال : بركة يا بنى !! وقال هذا حظنا .

وعلى هذا النحو أخذنا نلقى بالزهر اثنين اثنين ونلعب . وعن يميننا كان شابان أنيقان يأتیان ، تقدم أحمد حسين جارياً وقال برجاء : سيدى أعطنى قرشاً ، قرش لا يعد شيئاً ، بالله عليك .

وبينما كانا يمران بنا ، أمسك الشاب بقفا أحمد حسين ورفعهُ ووضعهُ على بطنه فوق سور بجوار الشارع ، وكان رأس أحمد حسين معلق ناحية وسط الشارع وقدماه ناحية الطوار وفلفص أحمد حسين حتى وصلت قدماه إلى الأرض وفى نفس المكان وقف على حافة الجدول ، وكانت فتاتان تأتیان بصحبة شاب من الناحية اليسرى ضاحكتين ، وكانت الفتاتان ترتديان ثوبين قصيرين ذا لون حسن ، كانتا تسيران على جانبي الشاب ، تقدم أحمد حسين مسرعاً وقال راجياً إحدى الفتاتين : بالله عليك يا سيدتى أعطنى قرشاً ، فأنا جائع ، القرش لا يعد شيئاً ، بالله عليك ، قرش يا سيدتى .

فلم تأبه الفتاة ، وألح أحمد حسين ثانية ، أخرجت الفتاة قطعة نقود من حقيبتها ووضعتها فى كف أحمد حسين ، عاد إلينا أحمد حسين سعيداً وقال : - أنا أيضاً سألقى الزهر .

قال ابن زيور : - أين نقودك ؟
فتح أحمد حسين قبضته وأشار إليها ، وكانت قطعة من العملة ذات
القرشين في يده.

قال قاسم : هل تسولت ثانية ؟
وهم بضرب أحمد حسين وأمسك محمود بيده ولم يتركه يفعل .
لم يقل أحمد حسين شيئاً ، وأفسح لنفسه مكاناً وجلس ، نهضت
وقلت لن ألعب بالزهر مع متسولين .
الآن لم يكن معي أكثر من قرش واحد . كنت قد خسرت ثلاثة قروش
من الأربعة التي معي . وقال محمود الذي كان قد خسر كثيراً : - كفى
لعباً بالزهر ، لنلعب لعبة أسفل الجدار .

قال لي قاسم : يا لطيف ، ثانية لا تفسد اللعبة بكلامك هذا . بعد ذلك
قال للجميع : من الذي سيلقى ؟ !
قال الأعور : - إرم أنت وحدك ، سنلعب لعبة أسفل الجدار . أشار
ابن زيور إلى قاسم وقال : - لعب الزهر بهذا لا فائدة منه كل ما يأتي
به خمسة أو ستة فنلنلعب ملك أو كتابة .
قال أحمد حسين : - فليكن .

قال محمود : - لا ، لا نلعب لعبة أسفل الجدار .
كان الشارع في سبيله إلى الخلو . كانت عدة محلات متواجهة قد
أغلقت . ولبداية اللعبة ألقى كل منا بقطعة من فئة القرش من حافة
الجدول إلى أسفل الجدار . وكانت قطع العملة لا تزال الجدار حين
صرخ " أحمد حسين " قائلاً : الشرطى .

وكان الشرطى والهرأوة في يده على بعد خطوتين أو ثلاث منا . وأفلت

أنا وأحمد حسين والأعور. وكذلك هرب محمود وابن زيور خلفنا.
وأراد قاسم أن يجمع النقود من أسفل الجدار إذ وصل الشرطى، صرخ
قاسم من ضربة الهراوة وبدأ فى الجرى.

وصاح الشرطى خلفه قائلاً: أيها المتشردين المقامرين! أليست لكم
بيوت وحياة؟ أليست لكم آباء وأمهات؟!

ثم انحنى وجمع النقود ومضى.

عندما عبرت الميدان وجدت أننى بقيت وحيداً. كان محل الأرز
بالشواء الواقع من الناحية الأخرى من الشارع مغلقاً، كنت قد
تأخرت عندما كان صبي المحل يترك الباب الحديدى حتى نصفه،
كان هذا هو وقت عودتى إلى أبى. وكنت أعبر الشوارع والميادين
مسرعا وأنا أقول لنفسى. الآن ثانية نام أبى متضايقاً، ليته يجلس
فى انتظارى، لابد أنه الآن نام متضايقاً ثم قلت لنفسى مرة أخرى:
وماذا عن محل لعب الأطفال؟ هو أيضاً مغلق. من الذى لديه فى هذا
الوقت من الليل صبر لشراء لعب أطفال. لابد الآن أنهم حشروا جملى
داخل المحل وأغلقوه وذهبوا. ليتنى كنت أستطيع أن أتحدث مع
جملى، أخاف أن ينسى ما اتفقنا عليه بالأمس، ولولم يأت إلى؟
لا.. لا... لابد سيأتى، هو نفسه قال سأتى ليلة الغد تركبنى ونمضى
وتطوف طهران، ركوب الجمل فيه متعة أيضاً.

وفجأة ارتفع صوت فرملة وطرت فى الهواء. بحيث أننى ظننت أننى
انتهيت، وبمجرد أن سقطت على الأرض أدركت أننى اصطدمت
وسط الشارع بسيارة ولم يحدث لى شئ. بينما كنت أدلك رسغ يدي
أخرج شخصاً رأسه من السيارة وصاح قائلاً: يا لالا غور من قدام
السيارة! لست تمثالاً.

عدت فجأة إلى وعيى . كانت تجلس خلف عجلة القيادة عجوز
متزينة ويقبع إلى جوارها كلب ضخم وكان طوق رقبتة يلمع.
وفجأة انتابتنى حالة بحيث ظننت أننى إن لم أقم بعمل ما فى التو
واللحظة - كأن أكسر زجاج السيارة مثلاً - فإتنى سوف أنفجر من
شدة الغضب ولن أستطيع أن أتحرك من مكانى أبداً .
وضريت العجوز بوق السيارة مرتين وقالت : هل أنت أصم يا ولد؟
غور من أمام السيارة .

جاءت سيارتان أخريان ومرا بجوارنا ، أخرجت العجوز رأسها
وهمت بقول شئ فبصقت بصقة كبيرة فى وجهها وجهت إليها عددا
من الشتائم وابتعدت عن ذلك المكان سريعا . عندما مشيت قليلا ،
جلست فوق مصطبة محل مغلق ، كان قلبى يدق بشدة . كان للمحل
باب حديدى ذو فجوات وكان داخل المحل مضيئا ، وكانوا قد عرضوا
أحذية متنوعة خلف الزجاج وكان أبى يقول ذات يوم أننا لانستطيع
حتى بأجر عشرة أيام أن نشتري زوجا من هذه الأحذية .

أسلمت رأسى إلى الباب ، ومددت قدمى وكان رسغ يدى لازال
يؤلنى . وكانت بطنى تنقبض، وتذكرت أننى حتى الآن لم آكل، قلت
لنفسى : ينبغى على أن أنام الليلة جائعا ، ليت أبى ترك لى شيئا .

تذكرت فجأة أن جملى سوف يأتينى الليلة ويتركبنى ويحملنى للنزهة،
قفزت من مكانى وأسرعت فى الطريق ، كان محل بيع اللعب مغلقا،
ولكن أصوات اللعب كانت تصل إلى مسامعى من خلف الباب
الحديدى . قطار بضاعة كان يفح ويصفر، ودب ضخم أسود كأنه كان
يجلس خلف مدفع رشاش وهو يطلق الطلقات ويخيف الدمى الجميلة

الرقيقة . وكانت القرية تقفز من مكان إلى آخر وتارة أخرى تتعلق
بذيل الجمل حيث كان الجمل يرفع صوته وهو يطلق السباب
والشتائم ، وحمار طويل الأذن كان يصك أسنانه ببعضها وينهق
ويضع فوق ظهره أطفال الدببة والدمى ويسير بخطوات واسعة . وكان
الجمل ينصت إلى دقات ساعة الحائط وكأنه وعد أحداً . وطائرات
الهيلوكبتر كانت تدور فى الهواء . والسلاحف كانت تنعس داخل
أصدافها وإناث الكلاب كانت ترضع جراءها . وكانت القطعة
تسحب البيض خفية من السلة ، والأرانب كانت تنظر بدهشة إلى
الصيد فى الرف المقابل لها، والقرود الأسود كان يضع بين شفثيه
الغليظتين الناي الخاص بى الذى كان دائماً خلف الزجاج، وكان
يصدر منه أصواتاً جميلة متنوعة والسيارات والحافلات كانت
تُركب الدمى وتطوف بها . وكانت الدبابات والبنادق والمسدسات
والرشاشات تطلق الطلقات بسرعة شديدة . وصغار الأرانب البيضاء
كانت قد أمسكت بأيديها ثمار جزر ضخمة وأخذت تمضغها بينما
كانت أفواهها مفتوحة حتى أسافل آذانها . والأهم من هذا كله
جملى أنا نفسى الذى إذا أراد أن يتحرك حركة واحدة لخلط كل شئ
ببعضه ، كان ضخماً لدرجة أنه لم يكن يسعه مكان خلف الزجاج،
وطوال النهار كان يقف على حافة الطوار يتفرج على الناس، وهو الآن
واقف وسط المحل ويجعل الجرس المعلق فى رقبتة يرن، وكان يمضغ
اللادن وهو يسلم أذنه لدقات الساعة . وصف من صغار الجمال ذات
الوبر الأبيض أخذت تصيح من داخل الرف : أمى ، إذا خرجت إلى
الطريق سنأتى معك ، حسناً؟

أردت أن أتحدث مع جملى كلمتين ولكن مهما صرخت لن يسمع صوتى ، اضطررت إلى رفس الباب عدة مرات عل الآخرين يصمتوا ، ولكن فى نفس الوقت أمسك أحدهم بأذنى وقال : هل جننت يا ولد ، هيا إذهب ونم .

لم يكن هناك محل للوقوف . وخلصت نفسى من يد الشرطى وبدأت فى العدوحتى لا أتأخر أكثر من هذا .

عندما وصلت إلى أبى ، كانت الشوارع كلها ساكنة خالية . وكان عدد قليل من سيارات الأجرة يأتى ويمر، وكان والدى نائماً فوق عربة اليد الخاصة به بحيث أننى لو كنت أردت أن أنام أيضاً فوق العربة كان لزاماً علىّ أن أوقظه حتى يزيج قدميه ويترك لى مكانا . وغير عربة اليد الخاصة بنا كانت هناك أيضاً عربات أخرى على حافة الجدول أو إلى جوار الجدار نام عليها أشخاص آخرون . كان هناك عدة أشخاص أيضاً ناموا فوق الأرض إلى جوار الجدار . كان هذا ميدانا . كان أحد مواطنينا يمتلك كشكا لبيع الثلج . كان النوم يجتاحنى من رأسى إلى قدمى فسقطت أسفل عربة اليد الخاصة بنا .

ترن ! ترن ! ترن !

- أين أنت يا لطيف ؟ لماذا لا تجيب يا لطيف ؟ لماذا لا تأتى لنذهب للنزهة .

ترن ! ترن ! ترن !

- لطيف يا حبيبى هل تسمع صوتى ؟ أنا جملك ، جئت لنذهب للنزهة هيا إركب لنذهب .

عندما وصل الجمل أسفل الشرفة ، نهضت من فراشى وقفزت من ذلك العلو وسقطت على ظهره وقلت ضاحكاً ، امتطيتك فلماذا تصيح ؟

سرّ الجمل من رؤيتى ووضع قليلاً من اللادن فى فمه وأعطانى أيضاً منه وانطلقنا . كنا قد سرنا قليلاً حين قال الجمل : - آتيتك بنايك خذه وانفخ فيه لنسمع .

أخذت نايى الجميل من الجمل . وبدأت النفخ فيه بقوة وصاحب الجمل أيضاً نايى بأجراسه الكبيرة والصغيرة .

وأدار الجمل رأسه ناحيتى وقال : يا لطيف ، تعشيت ؟

قلت : - لا ، لم يكن معى نقود .

قال الجمل : لنذهب أولاً لنتعش .

فى نفس الوقت قفز الأرنب الأبيض من أعلى شجرة إلى أسفل وقال : - أيها الجمل الحبيب : الليلة سنتناول طعام العشاء فى الفيلا . سأذهب وأخبر الآخرين ، فلتذهباً أنتما .

وألقى الأرنب بطرف الجزيرة الصغيرة التى كان يأكلها فى الجدول وابتعد عنا قافزاً .

قال الجمل : - أتعلم ما معنى فيلا ؟

قالت : - أعتقد أنها المصيف .

قال الجمل : ليست المصيف . فأصحاب الملايين يشيدون لأنفسهم قصوراً ومنازل فخمة فى أماكن حسنة الجو كلما أرادوا ذهبوا إليها واستراحوا . ويطلقون على هذه المنازل فيلا . ولا شك أن هذه الفيلات فيها أيضاً حمامات سباحة ونافورات وحدائق كبيرة مليئة بالورود

وفيهما أيضاً طاقم من البستانية والخدم والحشم ، وبعض أصحاب الملايين عندهم فيلات خارج القطر مثلاً فى سويسرا وفرنسا . الآن نذهب إلى إحدى الفيلات فى شمال طهران حيث نُخرج حرارة الصيف من أجسادنا .

قال الجمل هذا وكأنه أخرج جناحاً وارتفع فى الهواء مثل الطيور . وكانت المنازل الجميلة والنظيفة أسفل أقدامنا . ولم تكن رائحة الدخان والقاذورات موجودة فى الهواء . وكانت المنازل والحارات تبدو لى وكأننى أرى فيلماً . فى النهاية قلت للجمل : - أخشى أن نكون ذاهبين خارج طهران .

قال الجمل : - كيف حدث وفكرت فى هذا ؟
قلت : الخلاصة أن هذه الأنحاء لا سخان فيها ولا قذارة . منازلها كلها كبيرة ومثل باقة ورد .

ضحك الجمل وقال : - معك الحق يا عزيزى لطيف ، تنقسم طهران إلى قسمين وكل قسم يختلف عن الآخر . جنوب وشمال ، الجنوب ملئٌ بالدخان والقاذورات والغبار والأتربة ، ولكن القسم الشمالى نظيف ، لأن كل الحافلات التى تعمل فى هذه الأماكن قديمة ومستهلكة وكل قمائن حرق الطوب موجودة فى هذه الأماكن . وكل القطارات وعربات النقل تمر من تلك الأنحاء وكثير من حارات وشوارع الجنوب ترابية . وجميع المياه القذرة والعفنة لجداول الشمال تصب فى الجنوب . الخلاصة أن الجنوب هو حى المعوزين والجوعى والشمال حى الأعيان والأثرياء . هل رأيت قط فى "حصير آباد" و"نازى آباد" و"شارع الحاج عبد الحمود" عمارات مرمرية من عشرة طوابق ؟ هذه

العمارات الشاهقة التى يوجد بأسفلها محلات فاخرة وعملاؤها
يركبون سيارات فارهة وبها كلاب بالآف التومانان.

قلت : - فى شوارع الجنوب لا تشاهد هذه الأشياء ، لا أحد هناك يملك
سيارة ، لكن الكثيرين لديهم عربات يد وينامون فى أكواخ .

كنت جائعاً بحيث كنت أحس أن قاع بطنى مثقوب ، كان تحت
أقدامنا حديقة كبيرة مليئة بالمصابيح الملونة ، وجوها معتدل وشديد
الطراوة ومليئة بالورود والأشجار . وفى وسطها بناء ضخم كأنه باقة
ورد وعلى بعد عدة أمتار من الطرف الآخر يوجد حمام سباحة كبير
ذى مياه صافية وأسماك حمراء ويحيط به مناضد وكراسى وورود
وبراعم . وصف فوق المناضد ما لا يحصى من الأطعمة المختلفة كانت
رائحتها تسكر المرء .

قال الجمل : فلننزل العشاء جاهز .

قلت : لكن أين صاحب الحديقة؟

قال الجمل : لا تفكر فيه ، سقط فى السرداب معقود اليدين ونام .

حط الجمل فوق القيشانى الملون على حافة حمام السباحة وقفزت
وهبطت . كان الأرنب موجوداً . أخذ يدي واصطحبنى وأجلسنى إلى
إحدى المناضد ويعد قليل ظهر الضيوف الدمى بالسيارات ، وعدد
منهم بالطائرات الهيلوكبتر ، ووصل الحمار يبرطع والسلاحف متعلقة
بأذيال صغار الجمال والقرود قافزة ومتشقلبة والأرانب مسرعة
مسرعة .

كانت ضيافة عجيبة ذات ضجيج ومع أطعمة كانت رائحتها
فحسب تجعل اللعاب يسيل فى فم المرء ، الديكه الروميه المحمرة

والدجاج المشوى ، والحملان المشوية ، وأنواع الأرز والخضار المطبوخ
المتنوع والعديد والعديد من الأطعمة المتنوعة التى لم أكن أستطيع أن
أفهم ما هى . وكل ما يشتهي قلبك من فاكهة كانت كثيرة ملقاة
تحت الأيدي والأقدام .

وقف الجمل على رأس حمام السباحة وأسكت الجميع بإشارة من
رأسه وعنقه وقال : - مرحبا بكم جميعا صغارا وكبارا، نزلتم أهلا ،
ولكن كنت أريد أن أسألكم من أجل من ولماذا أقمنا مثل هذه الوليمة
باهظة التكاليف؟

قال الحمار : - من أجل لطيف ، كنا نريد أن يأكل وجبة محترمة
ولاتبقى في قلبه حسرة .

قال الدب من خلف المدفع الرشاش : الخلاصة أن لطيف يأتى كثيرا
لرؤيتنا ولذلك نحبه جميعاً .

قال النمر : نعم بالطبع ، كما أنه يرغب فى أن نكون ملكا له ، فنحن
أيضاً نشتهى أن نكون ملكا له .

قال الأسد : نعم ، فإن أولاد الأثرياء سرعان ما يملوننا فأبائهم
يشترى لهم يوميا لعب جديدة ، ثم إنهم يلعبون بنا مرة أو مرتين
ويملون منا ثم لا يأخذوننا للعب ثانية يهملوننا ونبقى ونتعفن
وننتهى .

وتحدثت قائلاً : لو أن كل منكم أصبح ملكا لى ، أعدكم ألا أمل منكم
أبد ، دائما ألعب معكم ولا أترككم بمفردكم .

قالت اللعب فى صوت واحد : نعلم ذلك فنحن نعرفك جيداً ، ولكن
لأنستطيع أن نصبح ملكك، يبيعوننا بسعر غال .

ثم قال أحدهم : لا أظن أن دخل أبيك لمدة شهر يكفى لشراء واحد منا .

أسكت الجمل الجميع مرة أخرى وقال : نعود لأصل الموضوع ، كل كلامكم جميعا ضجيج ، ولكننا أقمنا وليمة الليلة من أجل شئ آخر مهم لم تشيروا إليه .

وتحدثت مرة أخرى قائلاً : أنا نفسى أعلم لماذا أتيتم بى إلى هنا !! حتى تقولوا لى أنظر ليس كل الناس مثلك أنت وأبيك ينامون جوعى على طوار الشارع .

كان عدد من الرجال والنساء قد جلسوا حول المناضد ويأكلون بسرعة شديدة وكان من الواضح أنهم خدام المنزل وحشمه . وبدأت أنا أيضا فى الأكل ، وكان معدتى كانت مثقوية مهما أكلت لم أصبح شبعاً وكانت بطنى تقرقر مثل تلك الأوقات التى أكون فيها جائعاً جداً لدرجة أننى فكرت أنها مصيبة أن أكون أحلم ولذلك لا أشبع؟ حككت عيني بيدي، كانتا مفتوحتين تماماً . قلت لنفسى :-هل أنا نائم ؟ لا لست بالنائم ، الإنسان الذى ينام لا تكون عيناه مفتوحتين ولا يرى مكانا، إذن لماذا لا أشبع؟ لماذا لا أزال أظن أن بطنى تؤلمنى ؟ والآن بينما كنت أطوف بالبناء وأتحسس جدرانہ والأحجار الثمينة فى جداره لا أعلم من أين كان يأتى التراب والغبار ويصطدم مباشرة بوجهى . الآن لابد أننى كنت فى السرداب حيث كنت أظن أن التراب والغبار من ذلك المكان، وعلى أول درجة انحسر التراب والغبار فى أنفى وفمى بحيث غلبنى العطاس .

قلت لنفسى ماذا حدث ؟ أين أنا ؟
مكنسة الكناس مرت من أمام وجهى تماماً وألقت التراب والغبار
على وجهى .

قلت لنفسى : ماذا حدث ؟ أين أنا ؟ مصيبة أن أكون فى حلم؟
ولكننى لم اكن نائماً ، رأيت عربة اليد الخاصة بأبى، وبعدها سمعت
جلبة سيارات الأجرة ثم وقعت عينائى على ضوء المصباح الخافت
على العمارات حول الميدان .

إذن لم أكن نائماً ، كان الكناس قد مر من أمامى ولكنه كان يثير
التراب والغبار ويرسم خطوطاً على الطوار ويتقدم .
قلت لنفسى : رأيت كل ذلك فى النوم ؟ لا ! أجل رأيت فى النوم
لا ؟ لا ؟ لا !!

قال الأب : لست نائماً فلماذا تصرخ ؟ اصعد بجانبى.
صعدت ووضع أبى ساعده تحت رأسى لكن النوم لم يغلبنى، كانت
بطنى تؤلنى ، فقد كانت بطنى قد التصقت بلوح ظهرى، ورأى أبى
أن النوم لم يغلبنى ، قال : تأخرت الليلة ، أنا أيضاً كنت متعباً
فنمت سريعاً .

قلت : - كانت سيارتان قد اصطدمتا ووقفت أتفرج فتأخرت .
ثم قلت : أبى هل يستطيع الجمل أن يتحدث ويطير ؟
قال أبى : لا ، لا يستطيع .

قلت : - نعم ، ليس للجمل جناح .
قال أبى : ماذا بك يا ولدى ؟ عندما تستيقظ كل صباح تتحدث عن
الجمل .

قلت بينما كنت أفكر فى شئ آخر

- الثراء شئ جيد ، أليس كذلك يا أبى؟ الإنسان يستطيع أن يأكل

كل ما يشتهيهِ وأن يملك ما يشتهيهِ أليس كذلك يا أبى؟

قال أبى : لا تجحد يا بنى ، الله يعلم جيدا من يجعله غنيا ومن يجعله فقيرا . كان أبى دائما يقول هذا الكلام .

عندما طلع النهار حمل أبى حذاءه من تحت رأسه ولبسه، ثم نزلنا من فوق العرية . قال أبى : - بالأمس لم أستطع تصريف البطاطس فبقى أكثر من نصفها لدى .

قلت : - كنت ترغب فى إحضار صنف آخر .

لم يجب أبى . فتح قفل العجلة وأتى بجوالين مليئين وفرغهما فوق عرية اليد . وأخرجت الميزان والسنج وصففتها ، ثم سرنا .

قال أبى : لنذهب فنتناول حساء .

كلما كان يقول أبى فى الصباح لنمضى ولنتناول حساء كنت أفهم أنه لم يتناول عشاء .

كان الكناس قد خط خطوطا حتى وسط الشارع ، وأخذنا نمضى نحو منتزه المدينة (بارك شهر) وكان الرجل الشيخ بائع الحساء جالسا كعادته على حافة الجدول ظهره إلى وسط الشارع وقدر الحساء أمامه فوق موقد بفتيله يغلى . وأمامه ثلاثة من زبائنه من الرجال والنساء البائعين الجائلين يأكلون حساءهم من أطباق مصنوعة من الألومنيوم، هم زوجة بائع اليانصيب مثل "زيور" بائع اليانصيب وطراحتها فوق رأسها، كانت قد جلست القرفصاء وقد وضعت مجموعة أوراق اليانصيب بين بطنها وركبتيها وقد سحبت طراحتها القذرة فوق ركبتيها .

وتبادل أبى السؤال عن الصحة مع الرجل الشيخ ، أكل كل منا طبقاً صغيراً من الحساء وقمنا . أعطاني والدي قرشين ، وقال : أنا ذاهب لأسرح ، فلتأت ظهراً في نفس المكان لنتناول طعام الغداء معاً .

* * *

أول من رأيت كان ابن زيور بائع اليانصيب ، اعترض رجلاً وأخذ يقول : إشترو ورقة يا سيدى ، إن شاء الله ستكسب ، بالله يا سيدى إشترو .

تملص الرجل من ابن زيور وذهب ، همس ابن زيور ببضع شتائم وكان يوشك على المضي حين ناديته وقلت : لم تستطع خداعه ! قال ابن زيور : كان نكداً ، وكأنه تشاجر مع زوجته .

وذهبنا معاً ، كان ابن زيور يعترض الناس بمجموعة من أوراق اليانصيب تبلغ عشرة أو عشرين ورقة ولا يزال يكرر يانصيب ياسيدى ؟ يانصيب ياست ؟

كان ابن زيور يأخذ من أمه قرشاً على كل ورقة يانصيب يبيعها ، ولم يكن يبيع بمجرد أن يحصل على نفقاته ، فكان يذهب للعب والنزهة والشجار والسينما . كان أكثرنا نقوداً ، وكان من عادته في أوقات الظهر أن ينزل إلى مجرى ماء (جاف) تحت جسر ويمدد وينام لساعة أو لساعتين ، كان يستيقظ صباحاً قبل طلوع الشمس ، فيأخذ من أمه عشرة أو عشرين ورقة يانصيب ويمضى حتى لا يفقد زبائن الصباح وحتى ينهى عمله قبل الظهر . لم يكن يرغب في أن يهدر فترة ما بعد الظهر عنده أيضاً في بيع اليانصيب .

وحتى شارع "نادرى" باع ابن زيور ثلاث ورقات ، عندما وصلنا هناك ، قال : يجب أن أبقى في هذه الأنحاء .

كان قليل من المحلات مفتوحة، وكان محل اللعب مغلقاً، ولم يكن جملى قد جاء إلى جانب الطوار بعد ، ولم يطاوعنى قلبى أن أدق عليه الباب خشية أن أفسد عليه نومه فى الصباح . مررت وتقدمت وتقدمت ، كانت الشوارع مزدحمة بتلاميذ المدارس . وفى كل عربة تلميذ أو تلميذان ، كانوا قد جلسوا إلى جوار آبائهم وأمهاتهم ذاهبين إلى المدرسة .

هذا الوقت فى النهار كنت أستطيع فقط أن أجد "أحمد حسين" حتى أتخلص من الوحدة . وعبرت ثانية بضع شوارع حتى وصلت إلى شوارع لم يكن فيها ذرة من الدخان أو رائحة القذارة. والصغار والكبار جميعاً كانوا يرتدون ثياباً نظيفة كانت وجوههم جميعاً تلمع . وكانت البنات والنساء يتلألأن مثل الورد الملونة . وكانت المحلات والمنازل تبدو كالمرايا تحت أشعة الشمس . كنت كلما مررت من هذه الأحياء أتخيل أننى جالس فى السينما أشاهد فيلماً، لم أكن أستطيع أن أفهم أى نوع من الطعام يأكلونه فى منازل بهذا الارتفاع وبهذه النظافة، وكيف ينامون وكيف يتحدثون وكيف يلبسون ، هل تستطيع بينك وبين نفسك أن تفهم كيف كنت تعيش فى بطن أمك؟ وهل تستطيع مثلاً أن تجسد أمام عينك كيف كنت تأكل الطعام داخل بطن أمك؟ طبعاً لا تستطيع ، أنا أيضاً كنت مثلك ، لم أكن أستطيع أصلاً أن أفكر فى هذا الموضوع .

وأمام أحد المحلات كان ثلاثة أولاد قد وقفوا والحقائب فى أيديهم يشاهدون الأشياء المعروضة خلف الزجاج ، ووقفت أنا أيضاً خلفهم ، كان عطر جميل يفوح من شعورهم المصطفة ودون إرادة تنسجت قفا

أحدهم . والتف الأولاد وتفحصوني ثم ابتعدوا عني بعبوس واشمئزاز ومضوا، وسمعت من بعيد أحدهم كان يقول : أى رائحة كريهة تفوح منه !

وجدت الفرصة فحسب أن أرى وجهى فى زجاج المحل ، كان شعر رأسى طويلا ومشعثا بحيث غطى أذنى ، وكأننى كنت قد وضعت قلنسوة ذات شعر فوق رأسى ، كان ثوبى المصنوع من الدمور قد تلون بالقذارة والسواد ومن ياقته الممزقة كان يُشاهد بدنى الملفوح ، كانت قدمى حافية قدرة وكعباى مشققين، وكنت أرغب من كل قلبى أن أحطم رؤوس أولاد الأعيان هؤلاء .

أكان ذنبهم أننى أعيش بهذا الشكل ؟

وخرج رجل من داخل المحل وبإشارة من يده زجرنى وقال : اذهب يا ولد ، مازلنا فى الصباح ولم نستفتح بعد لأعطيك شيئا .

لم أحرك ساكنا كما لم أقل شيئا . وزجرنى الرجل ثانية بإشارة من يده . وقال : هيا ! غرواذهب ، يا لها من وقاحة .

ولم أتحرك وقلت : لست شحاذا .

قال الرجل : العفويا سيدى الولد ، إذن فماذا تريد ؟

قلت : لا أريد شيئا ، أنا أتفرج .

ومضيت، ودخل الرجل المحل ، وكانت قطعة من القيشانى الأبيض تلمع داخل ماء الجدول، ولم أنتظر طويلا حملت قطعة القيشانى وبكل قوة ساعدى طيرتها نحو الواجهة الزجاجية للمحل، وأصدرت الواجهة صوتا وتحطمت ، وكأن حملا ثقيلًا قد انزاح من فوق صدرى، وحينذاك كأننى أقترضت قدمين فوق قدمى (وهات يا جبرى)

وأطلقت ساقى للريح ولا أدري كم من الشوارع عبرت حين التقيت بـ "أحمد حسين" وفهمت أننى ابتعدت كثيرا عن المحل .

وكان "أحمد حسين" كالعادة يتسكع أمام مدرسة البنات الابتدائية ويتسول من السيارات التى كانت تنزل البنات الصغيرات . وفى الصباح الباكر كان هذا عمل "أحمد حسين" . والخلاصة لم أفهم مع من يعيش "أحمد حسين" لكن "قاسم" كان يقول إن "أحمد حسين" له جدة متسولة أيضاً، ولم يكن "أحمد حسين" نفسه يتحدث .

وسرنا عندما دق جرس المدرسة ودخل التلاميذ الفصول ، قال "أحمد حسين" : - لم أكسب كثيرا اليوم ، الجميع يقولون ليس معنا عملات صغيرة (فكه) .

قلت : أين نريد أن نذهب ؟

قال أحمد حسين : نتسكع أيضاً .

قلت : لا يمكن هكذا ، نذهب ونجد "قاسم" ويشرب كل منا كويا من اللبن المخمر (المخيض) .

كان "قاسم" يبيع فى شارع الثلاثين كوب اللبن المخمر بقرش، وكنا كلما ذهبنا لرؤيته يشرب كل منا كويا من اللبن بالمجان ، كان والد "قاسم" يتاجر فى الملابس القديمة فى شارع عبد الحمود ، القميص الواحد بخمسة عشر قرشا والزوج من السراويل الداخلية بخمسة وعشرين قرشا والسترة والسروال بسبعين أو ثمانين قرش . وكان محل عمل "قاسم" يلتقى فى انحناءه بشارع الحاج عبد الحمود ، وكان باب الشارع وحائطه وأرضه مليئة بالأشياء القديمة والمستهلكة ، كان أصحابها يقفون أمامها يناون الزبائن . كان لوالد "قاسم" حانوت

صغير جدا ، كانوا ينامون فيه أيضاً ثلاثتهم هو زوجته و "قاسم" ، لم يكن لهم بيت آخر، وكانت والدة "قاسم" من الصباح حتى الليل تغسل الملابس الممزقة والقذرة التى كان والد "قاسم" يشتريها من هذا وذاك داخل الدكان أوفى جدول شارع الثلاثين ثم ترتقيها، كان شارع الحاج عبد الحمود ترابيا وليس به جدول ماء، ولم تكن سيارة تمر فيه قط .

وصلت أنا و "أحمد حسين" بعد ساعة أو ساعتين من المشى إلى محل عمل "قاسم" ولم يكن قاسم هناك . ذهبنا إلى شارع الحاج عبد الحمود ، قال والد "قاسم" : قاسم أخذ أمه إلى المستشفى .كانت دائما تعاني من ألم فى ساقها أوفى معدتها .

قبيل الظهر كنت أنا و "أحمد حسين" وابن "زيور" جالسين فى شارع "نادرى" على حافة الجدول بجوال الجمل نقرقز اللب ونتناقش بشأن ثمن الجمل ثم قررنا فى النهاية أن ندخل المحل ونسأل البائع . وقال البائع ظنا منه أننا متسولون ولما ندخل من الباب بعد : أخرجوا ليس معى عملة صغيرة .

قلت : لم نكن نريد نقودا ياسيدى ، بكم تبيعون الجمل ؟ وأشرت بيدي إلى الخارج ، قال صاحب المحل بدهشة : الجمل ؟! وقال " أحمد حسين " و "قاسم" من خلفى : نعم بالطبع ، بكم تبيعونه؟

قال صاحب المحل : أخرجوا يا شطار ليس الجمل للبيع . وخرجنا من المحل محبطين، وكأنه لو كان للبيع كان لدينا هذا القدر

من النقود بحيث ندفعها ونأخذ بزمام الجمل ونسحبه، كان الجمل واقفا ثابتا في مكانه ، كنا نظن أنه يستطيع أن يُركبنا ثلاثتنا ولا يحس بالتعب مثقال ذرة . كانت يد "أحمد حسين" تصل بصعوبة إلى بطن الجمل وكان ابن زيور يريد أيضاً أن يختبر يده إذ خرج البائع وأمسك بأذن "قاسم" وقال : - ألم تر أنه مكتوب عليه ممنوع اللمس ؟!

وأشار بيده إلى قطعة من الورق كانت مشبوكة بدبوس على صدر الجمل وكان مكتوبا عليها شيء . ولكن أحداً منا لم يفهم شيئاً ، وابتعدنا عن ذلك المكان وبدأنا في قزقة اللب والمشى . وبعد قليل قال ابن زيور إن النوم يغلبه، ووجد مكانا خالياً وذهب إلى جدول الماء تحت جسر ونام . قلت أنا و "أحمد حسين" لنذهب إلى منتزه المدينة "بارك شهر". كان الجو حارا خانقا . كنا قد عرقنا عرقا لا يوصف ، لم يكن أحدهنا يتحدث ، كنت أشتي أن أكون عند أمي في الحال، كنت أحس بالغربة بشكل فظيع .

على باب "بارك شهر" دفع "أحمد حسين" قرشين واشترى سندوتش بيض وتركه حتى اقضم منه قضة . ثم ذهبنا إلى المكان المعتاد داخل الجدول لنستحم ، وكان عدد آخر من الأطفال على بعد منا أيضاً يستحمون ويرشون وجوه بعضهم البعض ورؤوسهم بالماء، وتمددنا أنا و "أحمد حسين" في الماء ساكتين وغسلنا رأسينا وجسدنا ولم يكن لنا شأن بهم . وجاء حارس الحديقة بجلبة نحونا وفررنا جميعا، ومضينا وجلسنا في ضوء الشمس فوق الرمل، وكنت أشكل أنا و "أحمد حسين" بالرمل جملاً . سمعت صوت أبي فوق رؤوسنا ،

تركنا "أحمد حسين" ومضى وذهبت أنا وأبى إلى حانوت بائع كبده
وتغذينا ، رأى أبى أننى لا أتكلم وغارق فى الفكر فقال : لطيف ، ماذا
حدث؟ أأست بخير؟
قلت : لا شئ .

ذهبنا وتمددنا تحت أشجار "بارك شهر" لننام ، رأى أبى أننى أتقلب
من هذا الجنب إلى ذاك الجنب ولا أستطيع النوم. قال : يا لطيف ،
هل تشاجرت؟ هل قال لك أحد شيئاً ؟ الخلاصة قل لى ماذا حدث .
لم يكن عندى فى الأصل استعداد للحديث . كنت استعذب إحساس
الألم دون كلام . كنت أشتهى أن أسمع الآن صوت أمى وأشم
رائحتها واحتضنها وأقبلها . ومرة واحدة أجهشت بالبكاء وخبأت
رأسى فى صدر أبى ، ونهض أبى وجلس واحتضننى وتركنى أبكى
كما أشتهى ، لكنى لم أقل شيئاً لأبى ثانية ، قلت فحسب أننى
أشتهى أن أكون مع أمى ثم غلبى النوم. وحين فتحت عيني رأيت
أبى جالساً إلى رأسى وقد ضم ركبتيه وينظر إلى الناس ، فأمسكت
بقدمه وهزتها وقلت : أبى !

نظر أبى إلى وريت على شعري بيديه وقال : استيقظت يا حبيبى؟
هزيت رأسى علامة الموافقة .

قال أبى : سوف نعود غداً إلى بلدتنا ، نذهب عند أمك ، إذا تيسر
عمل نقوم به هناك ونأكل لقمتنا وإن لم يتيسر ، لا تيسر ، مهما يكن
فأفضل مما نحن فيه من أن نبقى هنا مشردين يتامى ، ليكن هذا
أيضاً هناك .

فى الطريق ، من الحديقة إلى الموقف لم أكن أدري هل أنا سعيد أو لا ،

لم يكن قلبى يطاوعنى أن ابتعد عن الجمل، ولو كنت أستطيع لأخذه معه، ولم أشعر بعدها بحزن قط .

ذهبنا واشترينا تذكرة السفر، ثم سرنا ثانية فى الشوارع، كان أبى يريد أن يبيع عربة اليد الخاصة به حتى العصر بأى شكل من الأشكال، وكنت أرغب أن أرى الجمل وأشبع منه مرة أخرى، واتفقنا أن نلتقى ليلاً بالقرب من الموقف وننام ، لم يكن أبى يريد أن يتركنى وحدى ولكنى قلت له أننى أريد أن أذهب فأتنزه قليلاً ربما يستريح قلبى .

كان الوقت قبيل الغروب، لا أدري كم ساعة كنت قد قضيتها واقفاً أشاهد الجمل . عندما رأيت سيارة مكشوفة تصل من الطريق وقفت بالقرب منى ومن الجمل ، وكان هناك رجل وطفلة نضرة ونظيفة جالسين داخل السيارة ، كانت عين البنت قد تركزت على الجمل وتضحك وهى سعيدة وحدثنى قلبى أنهما يريدان شراء الجمل وأخذه إلى منزلهما، وأمسكت البنت بيد أبيها تجره خارج السيارة وتقول سريعاً يا بابا ربما يأتى أحد آخرو يشتريه .

كان الأب والبنت يريدان دخول المحل عندما أبصرانى أقف أمامهما وأسد الطريق، لا أدري أية حالة انتابتنى هل كنت خائفاً ؟ هل كان البكاء يغلبنى ؟ هل كنت حزيناَ لشيء ما ؟ لست أدري أية حالة انتابتنى ، كل ما أدريه أننى وقفت أمام الأب والبنت وأخذت أقول بشكل رتيب ، سيدى ليس الجمل للبيع ، لقد قال لى هو نفسه فى الصباح صدقنى ليس للبيع .

وانتحي الرجل جانباً بشدة وقال : لماذا سددت الطريق يا ولد ، تنح جانباً .

ودخل كلاهما الحانوت وبدأ الرجل الحديث مع صاحب المحل وكانت البنت لا تفتأ تعود وتنظر إلى الجمل . كانت فى حالة سعيدة بحيث يظن المرء أنها لم تشعر طوال حياتها بذرة من الحزن ، وأنا كأن لسانى كان قد عقد ، وقدمائى تسمرتا وكنت واقفاً إلى الباب أمسح بنظرى داخل المحل القردة وصغار الجمال والديبة والأرانب ، والأخرون أخذوا ينظرون إلى ، وكنت أظن أن قلوبهم تحترق من أجلى .

أراد الأب والبنت أن يخرجاً من المحل، ومد الأب يده بعملة من فئة القرشين إلى فوضعت يديى خلف ظهري ونظرت إلى وجهه ، لأدري بأى بشكل نظرت الى وجهه بحيث وضع القرشين سريعاً فى جيبه ومر . وفى ذلك الوقت أبعدنى صاحب المحل عن الباب وخرج إثنان من عمال المحل وذهبنا نحو الجمل، وكانت البنت قد ذهبت وجلست فى السيارة وهى تنظر إلى الجمل وتداعبه بعينيها وحاجبيها، وعندما رفع العاملان الجمل من الأرض أسرعى دون إرادة متقدماً وأمسكت بقدم الجمل وصرخت، الجمل ملكى ، إلى أين تحملونه؟ أنا لا أسمع . قال أحد العمال : تنح جانباً أيها الولد، هل جننت ؟!

وسأل والد البنت صاحب الحانوت : هل هو شحاذ ؟

وكان الناس قد تجمعوا للمشاهدة ولم أكن لأترك قدم الجمل، وفى النهاية اضطروا العمال إلى ترك الجمل على الأرض ليبعدونى بالقوة، وسمعت صوت البنت من السيارة تقول لأبيها: بابا لا تتركه ثانية يلمسه .

وذهب الأب وجلس إلى عجلة القيادة ووضعوا الجمل خلف الأب
والبنت وأوشكت السيارة على الحركة عندما خلصت نفسى
وأسرعت نحو السيارة وألصقت كلتا يدي بالسيارة وصرخت إلى أين
تحملون جملى؟! أريد جملى.

وأظن أن أحدا لم يسمع صوتى، وكأننى كنت قد صرت أخرس، ولم
يكن صوتى يخرج من حلقى، وكنت أظن فقط أننى أصرخ، وتحركت
السيارة وجذبنى أحدهم من ظهري، وانتزعت يداى من السيارة،
وسقطت على وجهى فوق أسفلت الشارع، ورفعت رأسى، ورأيت
جملى لآخر مرة يبكى ويهز جرس رقبتة بغضب.

وسقط وجهى فوق الدم الذى كان قد نزف من أنفى، وضربت الأرض
بقدمى وأجهشت بالبكاء. كنت أتمنى أن يكون المدفع الرشاش
الموجود خلف الزجاج ملكا لى.

١٢ - السمكة السوداء الصغيرة

كانت ليلة في منتصف الصيف ، عندما جمعت السمكة العجوز في قاع البحر حولها إثني عشر ألفا من صغارها وأحفادها لتقص عليهم قصة ، وأخذت تقول :

كان يا ما كان ، كانت هناك سمكة صغيرة سوداء تعيش مع أمها في أحد الجداول . كان الجدول ينبع من الجدران الصخرية للجبل وينساب في قاع الوادي . وكان بيت السمكة الصغيرة وأمها خلف صخرة سوداء ، أسفل سقف من الطحالب ، وكانا ينامان ليلا أسفل الطحالب . كانت قد بقيت في قلب السمكة الصغيرة أمنية عالية هي أن ترى ضوء القمر مرة ثانية في بيتها كما حدث من قبل .

ومن الصباح إلى المساء ، كانت الأم وابنتها كل في أثر الأخرى يمضيان مسرعين إلى مواضع ما ثم تعودان ، وأحيانا كانتا تختلطان بالأسماك الأخرى . كانت السمكة وحيدتها ، هي الوحيدة التي نجت من بين عشرة آلاف بيضة كانت الأم قد وضعتها .

كانت السمكة الصغيرة قد استغرقت في التفكير منذ عدة أيام وقد قل حديثها بشكل ملحوظ ، وأخذت تمضي بتكاسل وبلا حماس من موضع إلى آخر ثم تعود ، كما كانت تتخلف عن أمها معظم الوقت . وكانت الأم تظن أن طفلتها متوعدة ، وسرعان ما تشفى . لكن - ولانطيل عليكم - فقد كان إنشغال السمكة السوداء بسبب شيء آخر . وذات يوم في الصباح الباكر ، وقبل أن تشرق الشمس ، أيقظت السمكة الصغيرة أمها وقالت : يا أمي ، أريد أن أتحدث معك قليلا .

قالت الأم وهي ناعسة : وهل هذا وقته يا ابنتي العزيزة ؟ أجلى الكلام إلى وقت لاحق ، أليس من الأفضل أن نذهب للنزهة ؟

قالت السمكة الصغيرة : لا يا أمي ، لم أعد أستطيع النزهة ، لا بد أن أذهب من هنا. قالت الأم :

- أمن المؤكد أنك يجب أن تذهبي ؟ قالت السمكة الصغيرة :

- نعم يا أمي ، يجب أن أذهب . قالت أمها :

- إلى أين تريدان الذهاب في هذا الوقت المبكر ؟

قالت السمكة السوداء الصغيرة :

- أريد أن أذهب لأكتشف نهاية الجدول ، تعلمين يا أمي أنني ومنذ عدة شهور وأنا مستغرقة في التفكير إلى أين ينتهي الجدول ، وإلى الآن لم أفهم شيئاً ، ومنذ ليلة أمس وحتى الآن ، لم تغمض لي عين ، وأفكر في هذا الأمر ، الخلاصة لقد صممت على الذهاب بنفسني لأكتشف نهاية الجدول ، فضلاً عن أن قلبي يشترق إلى معرفة ما يحدث في الأماكن الأخرى .

ضحكت الأم وقالت : عندما كنت صغيرة ، كانت تتنابني كثيراً مثل هذه الأفكار. في النهاية يا عزيزتي الجدول لا بداية له ولا نهاية ، فهو كما هو ، دائماً ينساب ولا يصل إلى مكان قط .

قالت السمكة السوداء الصغيرة : أليس لكل شيء نهاية ؟ الليل والنهار ينتهيان ، وأيضاً الأسبوع والشهر والسنة
وأثناء حديثها قاطعتها أمها قائلة :

- دعك من هذه الكلمات الكبيرة ، وانهضي لنذهب للتجوال ، فالآن وقته ، وليس وقت مثل هذه الكلمات .

قالت السمكة السوداء الصغيرة : - لا يا أمي ، لقد سئمت من هذه النزعات ، أريد أن أمضي وأذهب لأرى أماكن أخرى وما يحدث

فيها. ومن المحتمل أن تظني أن هذا الكلام قد لقنه أحد للسمة الصغيرة. لكن إعلمي أنني من تلقاء نفسي أفكر في هذا منذ فترة طويلة. ولا شك أنني تعلمت أشياء كثيرة من هنا وهناك ، وفهمت مثلا أن أغلب الأسماك العجوز قد ضيعت حياتها بلا طائل وبلا إرادة ، ودائما تئن وتلعن وتشكو من الجميع ، وأريد أن أعلم حقا وصدقًا: هل تعني الحياة أن تذهبي إلى مكان ما ثم تعودي إلى أن تصيبك الشيخوخة ، ولا شيء سوى ذلك أو أنه يمكن العيش في الدنيا بشكل آخر؟

عندما انتهى كلام السمكة الصغيرة ، قالت أمها :

- يا ابنتي العزيزة ، هل فقدت رشذك ؟ الدنيا .. الدنيا ؟! عالم آخر يعنى ماذا ؟ الدنيا هي هذا المكان الذى نوجد فيه ، والحياة هي مانعishها .

في هذا الوقت ، اقتربت سمكة كبيرة من منزلهم وقالت :

- أيتها الجارة ، لأى سبب تدخلين في نقار مع ابنتك ؟ كأنكم لا تفكرون اليوم في النزهة ؟

خرجت السمكة الأم على صوت جارتها من البيت وقالت :

-عجبا على هذا الزمن ، الآن يريون الأبناء أن يعلموا أمهاتهم أشياء!!

قالت الجارة : - كيف ذلك ؟

قالت السمكة الأم : أنظري هذه النصف شبر.. إلى أين تريد أن تذهب ، دائما تقوال أنها تريد أن تذهب لتري ما يحدث في الدنيا .. يالها من كلمات كبيرة !!

قالت الجارة : يا صغيرتي .. منذ متى أصبحت فيلسوفة وعالمة ولم تخبرينا ؟

قالت السمكة الصغيرة : أيتها السيدة ، لا أعلم لمن تقولين عالمة وفيلسوفة ، أنا قد سئمت فحسب من هذا التجوال ، ولا أريد أن أواصل هذه النزعات التي لا طائل من ورائها ، وأسعد سعادة واهية ، وأفتح عيني فجأة لأجد أن الشيخوخة قد لحقتني مثلكم، ولا زلت نفس السمكة مغمضة العين والأذن التي كنتها ..

قالت الجارة : آه يا لها من كلمات !!

قالت أمها : لم أكن أعتقد أن طفلي الوحيدة تفاجئني بأن تكون هكذا ، لا أعلم أى شرير سمم أفكار طفلي المدللة .

قالت السمكة الصغيرة : لا أحد يحرضني ، فأنا لي عقل ، وفهم ، ولي عينان أرى بهما .

قالت الجارة لأم السمكة الصغيرة : أختاه ، أتتذكرين ذلك الحلزون المتلوى ؟

قالت الأم : نعم ، حسنا ما قلت ، فهو يلزم ابنتي كثيرا ، وأنا أقول يا إلهي ماذا بينه وبينها ..

قالت السمكة الصغيرة : كفى يا أمي ، كان صديقي .

قالت الأم : لم نكن قد سمعنا قط عن صداقة بين سمكة وحلزون .

قالت السمكة الصغيرة : وأنا أيضا لم أكن قد سمعت قط عن عداوة بين سمكة وحلزون ، ولكنكم طردتم ذلك المسكين .

قالت الجارة : هذا كلام قديم .

قالت السمكة الصغيرة : أنت نفسك التي طرحت هذا الكلام القديم .

قالت أمها : كان من الواجب قتله .. هل نسيت أى كلام كان يقوله عندما كان يجلس هنا وهناك ؟

قالت السمكة الصغيرة : أقتلونى أنا أيضا ، لأننى أقول نفس الكلام. مالي أصدعكم .. لقد أدى صوت الحوار بينهم إلى تجمع الأسماك الأخرى ، وكان كلام السمكة الصغيرة قد أغضب الجميع .

قالت إحدى السمكات العجائز : أتظنين أننا سوف نرحمك ؟
قالت أخرى : إنها فقط في حاجة إلى تأديب بسيط .
قالت أم السمكة السوداء : ابتعدوا ، لا تلمسوا طفلى .

قالت سمكة منهم : يا سيدتى ، ما دمت لا تريين طفلك كما ينبغي ، فيجب أن ترى عاقبة ذلك .

قالت الجارة : إننى أحس بالخجل أننى أعيش إلى جوارك .
قالت أخرى : حتى لا يتطور أمرها إلى مالا يحمد عقباه ، نرسلها إلى الحلزون العجوز.

عندما اقتربت الأسماك لتمسك بالسمكة الصغيرة السوداء ، التفت صديقاتها حولها وأخرجنها من الحلقة ، وأخذت أم السمكة السوداء تلطم رأسها ووجهها وتبكي وتقول:

—وامصبتاه .. ماذا أفعل ، ابنتي تضيع من يدى .. أية مصيبة تحل برأسى.

قالت السمكة الصغيرة : لا تبكي يا أمي من أجلى ، بل ابك من أجل تلك الأسماك العجوز المسكينة .

صاحت إحدى الأسماك من بعيد قائلة : لا تشتمي يا نصف الشبر.
قالت أخرى : إذا ذهبت ثم ندمت، فلن نسمح لك بالعودة.

قالت ثالثة: هذا هوجنون الشباب، لا تذهبي.

قالت رابعة: ما عيب هذا المكان؟

قالت خامسة: ليس هناك عالم آخر، العالم هو ما نحن فيه، عودي.

قالت سادسة: إذا عاد عقلك وعدت، نصدق آنذاك أنك حقاً سمكة عاقلة.

قالت سابعة: لقد اعتدنا في الحقيقة على رؤيتك.

قالت لأمها: إرحميني، لا تذهبي... لا تذهبي.

لم يكن لدى السمكة الصغيرة ما تقوله لهم، ورافقها بعض صديقاتها اللائي في عمرها حتى الشلال، وعدن.

عندما افترقت السمكة الصغيرة عنهن قالت: صديقاتي، أتمنى أن أراكن ثانية، لا تنسونني.

قالت صديقاتها: كيف ننساك وأنت قد أيقظتينا من نوم الغفلة، وعلمتينا أشياء لم يكن لدينا حتى الحق في أن نفكر فيها، لنراك دائماً بخير أيتها الصديقة الجريئة الشجاعة.

هبطت السمكة الصغيرة من الشلال وسقطت في بركة مليئة بالمياه، في البداية فقدت توازنها. لكنها بعد ذلك بدأت في السباحة والتجوال في البركة، حتى ذلك الوقت لم تكن قد رأت مثل تلك الكمية من الماء متجمعة في مكان واحد، وكانت آلاف من صغار الضفادع تتحرك كيفما اتفق في الماء، وما إن رأت السمكة الصغيرة السوداء حتى سخرت منها وقالت - أنظروا إلى هيئتها!! أي نوع من المخلوقات أنت؟

وتفحصتهم السمكة جيداً، وقالت:

- أرجوكم لا تهينوني ، إسمي السمكة الصغيرة السوداء ، فماذا تسمون ؟ قولوا لكي نتعارف .

قال أحد صغار الضفادع : ينادى كل منا الآخر ابوزنيمة ..

قال آخر : نحن أصحاب الأصالة والشرف .

قال آخر : ولا يوجد في الدنيا من هو أجمل منا .

قال آخر : نحن لسنا مثلك قبحاء ولا شكل لنا .

قالت السمكة : لم أتخيل قط أنكم على هذه الدرجة من الغرور .. ليكن ، فأنا أسامحكم ، فأنتم تتحدثون بهذه الكلمات جهلا .

صاح صغار الضفادع في صوت واحد : يعنى نحن جهلاء .. نحن جهلاء؟

قالت السمكة : إن لم تكونوا جهلاء ، لعلمتم أنه يوجد في الدنيا آخرون كثيرون ، أشكالهم تعجبهم ، وأنتم حتى أسماؤكم ليست ملكا لكم .

غضب صغار الضفادع بشدة ، لكنهم عندما رأوا أن السمكة الصغيرة تقول الحق ، سخاوا من باب آخر ، وقالوا :

- إنك في الحقيقة تجاهدين بلا طائل ، فنحن يوميا نتجول من الصباح حتى المساء

في الدنيا ، ولكننا لا نرى سوى أنفسنا وآباءنا وأمهاتنا وبعض الديدان الضئيلة والتي لا تعد في الحسبان .

قالت السمكة : أنتم لا تستطيعون الخروج من البركة ، فكيف تتحدثون عن الطواف بالدنيا ؟

قالت صغار الضفادع : هل هناك عالم آخر غير البركة ؟

قالت السمكة : ينبغي أن تفكروا على الأقل من أين يأتي هذا الماء ويصب هنا ، وماذا يوجد خارج هذا الماء .

قالت صغار الضفادع : أى مكان تعنين بخارج الماء ؟ على كل حال ، نحن لم نر قط خارج الماء . وأخذوا يقهقهون .. ها ها .. معتوهة أنت يا أختاه .. وضحكت السمكة السوداء الصغيرة أيضا ، وفكرت أنه من الأفضل أن تترك صغار الضفادع لحالها ، وتذهب ، ثم فكرت أنه من الأفضل أن تتحدث بكلمتين إلى أمهم ، فسألتم قائلة :
- والآن ، أين أمكم ؟

وفجأة جعلها صوت غليظ لضفدعة تقفز من مكانها . كانت الضفدعة الأم قد جلست على حجر عند حافة البركة ، فقفزت في الماء ، وتقدمت من السمكة وقالت :

- أنا هنا ، أى خدمة ؟ قالت السمكة الصغيرة :

- سلاما أيتها السيدة الكبيرة . قالت الضفدعة الأم :

- يا له من موضع للتعالم ، مخلوقة عديمة الأصل سيئة النسب ، قمت بصيد الأولاد ولا تزالين تتحدثين إليهم بكلام كبير ، وقد عشت عمرا يكفي لي أعلم أن الدنيا هي البركة فحسب . من الأفضل أن تذهبي إلى عملك ، ولا تفسدي أطفالي .

قالت السمكة الصغيرة : إن عشت مائة ضعف هذا العمر ، ستظلين ضفدعة جاهلة عاجزة ليس أكثر .

غضبت الضفدعة ، وقفزت نحو السمكة السوداء الصغيرة ، فتحركت السمكة حركة سريعة ومركبة مثل البرق ، وأصابت الطمي والطين والديدان في قاع البركة بالإضطراب .

كان الوادى مليئاً بالتعاريج والانحناءات ، كما تضاعف ماء الجدول، لكن إذا أردت أن تنظر من فوق الجبال إلى قاع الوادى لرأيت الجدول مثل خيط أبيض . كانت قطعة كبيرة من الصخر قد انفصلت عن الجبل وسقطت في قاع الوادى وقسمت الماء إلى قسمين . وكانت سحلية ضخمة بحجم كف اليد قد ألصقت بطنها بالصخرة ، وكانت مستمتعة بحرارة الشمس وتنظر إلى سرطان مستدير وضخم ، قد قبع في قاع الماء فوق الرمال حيث كان عمق الماء أقل ، وانهمك في إلتهام ضفدعة كان قد صاها .

وقعت عين السمكة الصغيرة فجأة على السرطان فخافت ، وسلمت عليه من بعيد ، ونظر إليها السرطان بازدياء شديد ، وقال :
- يا لك من سمكة مؤدبة ، تقدمي يا صغيرة ، تقدمي .

قالت السمكة الصغيرة : أنا ذاهبة لأتجول في الدنيا ، كما أنني لأريد أبدا أن أصبح صيدا لسعادتك .

قال السرطان : لماذا أنت خائفة ومتشائمة إلى هذا الحد أيتها السمكة الصغيرة ؟

قالت السمكة الصغيرة : أنا لا خائفة ولا متشائمة ، لكن لسانى يتحدث بما يمليه عليه عقلي وما أراه بعيني .

قال السرطان : حسنا ، تفضلي لأر ماذا رأيت عينك وماذا قال عقلك حتى تعتقدى أنني أريد أن أصيدك ..

قالت السمكة : لا تحاول تنفيذ ما في نيتك ..

قال السرطان : تقصدين الضفدع ؟ أنت طفلة تماما يا عزيزتي ، فبيني وبين الضفادع خصومة ، ولذا أصيدها ، تعلمين أنهم يظنون

أنهم المخلوقات الوحيدة في الدنيا ، وهم سعداء بهذا ، وأنا أريد أن أفهمهم أن الدنيا في الواقع في يد من ، فلا تخافي ثانية يا عزيزتي ، تقدمي ، تعالي ... قال السرطان هذا وأخذ يقترب من السمكة الصغيرة متسللا ، كان يمشي بطريقة مضحكة مما جعل السمكة تضحك بالرغم منها ، وقالت :

- أيها المسكين ، إنك حتى الآن لا تعرف كيف تمشي ، من أين لك أن تعلم في يد من تكون الدنيا ؟!

ابتعدت السمكة السوداء عن السرطان ، ووقع ظل على الماء ، وفجأة جاءت ضربة محكمة أسقطت السرطان في الرمال ، وأخذت السحلية تضحك بشدة من شكل السرطان بحيث انزلقت قدمها وأوشكت على السقوط في الماء . ولم يستطع السرطان الخروج ثانية . رأت السمكة الصغيرة راعيا صبيا كان واقفا على حافة الماء ، وكان ينظر إليها وإلى السرطان ، وكان قطيع من الخراف والماعز قد اقترب من الماء ، وقد مدت أفواهها ، ملأ صوت الثغاء الوادي .

انتظرت السمكة الصغيرة السوداء طويلا حتى انتهى القطيع من الشرب وذهب . وحينذاك نادى على السحلية وقالت :

- أيتها السحلية ، أنا السمكة الصغيرة السوداء ، ذاهبة لأكتشف نهاية الجدول ، وأظن أنك مخلوقة عاقلة وحكيمة ، لذلك أريد أن أسألك عن شيء ما ..

قالت السحلية : سلمي على نفسك

قالت السمكة : لقد خوفوني كثيرا في طريقني من البجعة وسمكة

المنشار وطائر النورس ، إذا كنت تعرفين شيئا عنهم فأخبريني .
قالت السحلية : سمكة المنشار وطائر النورس لا يظهران في هذه
الأنحاء ، وبخاصة أن سمكة المنشار تعيش في البحر ، ولكن من
الممكن أن يكون البجع هنا ، فلا تنخدعي به ، فتقعين في كيسه .
قالت السمكة : أى كيس ؟

قالت السحلية : للبعجة كيس تحت رقبتها يسع كثيرا من الماء ،
وأحيانا وهي تسبح في الماء تدخل الأسماك كيسها دون إرادة منها ،
ومن ثم تذهب إلى بطنها مباشرة ، ومما لاشك فيه أن البعجة عندما
لا تكون جائعة ، تدخر الأسماك في نفس الكيس لتأكله في وقت
آخر .

قالت السمكة : أما وقد دخلت سمكة الكيس ، ألا سبيل لها إلى الخروج ؟
قالت السحلية : لا سبيل لها إلا أن تمزق الكيس . سوف أعطيك
خنجرا ، فإن سقطت أسيرة للبعجة ، تقومين بهذا العمل
ثم زحفت السحلية داخل شق في صخرة وعادت بخنجر صغير جدا .
أخذت السمكة الصغيرة الخنجر وقالت

- أيتها السحلية العزيزة ، أنت عطوفة جدا ، لا أعلم كيف أشكرك .
فالت السحلية : لا لزوم للشكريا عزيزتي ، فأنا لدى الكثير من هذه
الخناجر ، عندما لا يكون لدى ما أفعله ، أجلس وأصنع الخناجر من
نصال النباتات ، وأعطيها للأسماك الحكيمة مثلك .

قالت السمكة : وهل مرت سمكة قبلي من هنا ؟
قالت السحلية : مر الكثيرون ، وهم الآن قد شكلوا جماعة من
أنفسهم ، ويسببون الضيق للصياد .

قالت السمكة السوداء : فلتسمحي لي بالكلام يجرب بعضه ، إن لم تعتبرى قولي هذا فضولا ، أخبريني كيف سببت الضيق للصياد ؟
قالت السحلية : الخلاصة أنهم متحدون ، ما إن يرمي الصياد شبكته ، فإنهم يدخلون الشبكة معا ويسحبونها ويحملونها معهم إلى قاع البحر.

وضعت السحلية أذننها على شق في صخرة وأصغت ثم قالت :
- عن إذنك ، فأطفا لي قد استيقظوا .

ذهبت السحلية داخل شق الصخرة ، ولم يكن في وسع السمكة السوداء إلا الرحيل ، لكنها أخذت تسأل نفسها السؤال تلو السؤال :
لأرى حقا هل يصب الجدول في البحر؟ مصيبة أن تتمكن البجعة منى !! أحقل يطاوع سمكة المنشار قلبها وتأكل من هم من جنسها؟! أى عداء لطيور النورس معنا ؟

ظلت السمكة الصغيرة في سيرها سابحة تفكر ، كانت ترى في كل شبر تخطوه جديدا وتتعلم ، وهي الآن سعيدة لأنها راحت تتشقلب هابطة من مياه الشلال ، ثم تعاود السباحة ، وكانت تحس بحرارة الشمس فوق ظهرها ، فكانت تستمد منها القوة . وفجأة شاهدت غزالا يعب الماء بسرعة فحيته السمكة الصغيرة وقالت له :

- أيها الغزال الجميل ، لم هذه العجلة ؟

أجاب الغزال: الصياد يطاردني ،وقد أطلق علي رصاصة ، هذا أثرها ..
لم تر السمكة الصغيرة مكان الرصاصة ، لكنها فهمت من جرى الغزال وهو يعرج أنه صادق . وفي موضع ما كانت السلاحف تغفو تحت حرارة الشمس ، وفي موضع آخر كان هديل القطا يرن في الوادي.

وكان شذى الأعشاب الجبلية يتموج في الهواء ويمتزج بالماء .
وبعد الظهر وصلت إلى مكان كان الوادى يتسع فيه . وكانت المياه
تمر وسط غابة، وكانت المياه كثيرة جدا، وكانت السمكة السوداء حقا
سعيدة بهذا . ثم التقت أيضا بأسماء كثيرة ومنذ ان كانت قد تركت
أمها لم تكن قد رأت سمكة ، والتفت عدة سمكات صغيرة حولها
وقالت : يبدو أنك غريبة ها ؟

قالت السمكة السوداء : نعم ، فانا غريبة ، جئت من مكان بعيد .

قالت الأسماك الصغيرة : أين تريد أن تذهبي ؟

قالت السمكة السوداء : أريد أن أذهب لاكتشف نهاية الجدول .

قالت الأسماك الصغيرة : أى جدول ؟

قالت السمكة الصغيرة : هو نفس الجدول الذى نسبح فيه .

قالت الأسماك الصغيرة : نحن نطلق على هذا نهر .

لم تقل السمكة السوداء شيئا . وقالت احدى السمكات الصغيرات :

ألا تعلمين أن البجعة على رأس الطريق ؟

قالت السمكة السوداء : نعم أعلم .

قالت أخرى : وهل تعلمين أيضا أن للبجعة كيسا واسعا ؟

قالت السمكة السوداء : نعم أعلم ذلك أيضا .

قالت سمكة صغيرة : مع كل هذا ومازلت تريدين الذهاب ؟

قالت السمكة السوداء : نعم ، مهما يكن من أمر ، لابد أن أذهب .

وسرعان ما انتشر بين الأسماك خبر السمكة السوداء الصغيرة التى

كانت قد جاءت من بعيد وتريد أن تذهب لتكتشف نهاية النهر .

ولاتخشي أيضا من البجعة مطلقا . خطر لبعض السمكات الصغيرات

الذهاب معها ولكن لم تنبس خوفا من الكبار. وقال بعضهم : " لو لم تكن البجعة هناك لاتينا معك ولكننا نخشى كيسها " .

كان هناك قرية على ضفة النهر، وكانت نساء القرية وفتياتها يغسلن ملابسهن ومواعينهن راحت السمكة الصغيرة تنصت إلى ضجيجهن لفترة، وشاهدت أيضا أطفالهم وهم يستحمون لفترة ثم ذهبت . وأخذت تسير وتسير حتى حل الليل، وأوت إلى أسفل صخرة ونامت، واستيقظت في منتصف الليل فرأت أن ضوء القمر سقط في الماء وأضاء كل مكان .

كانت السمكة الصغيرة السوداء تحب القمر كثيرا . ففي الليالي التي كان ينعكس القمر فيها على الماء، كانت السمكة تحب أن تخرج من أسفل الطحالب وتتحدث معه ببضع كلمات . ولكن كل مرة كانت أمها تستيقظ وتسحبها تحت الطحالب وتنيماها مرة أخرى .

تقدمت السمكة الصغيرة من القمر وقالت : " سلاما يا قمرى الجميل " قال القمر : سلاما ، ايتها السمكة الصغيرة السوداء . أين أنت من هذا المكان ؟

قالت السمكة : أطوف حول العالم .

قال القمر : العالم كبير جدا وأنت لا يمكنك الطواف فيه كله .

قالت السمكة : ليكن ، سأذهب إلى حيث أستطيع .

قال القمر : أريد أن أبقى أمامك حتى الصباح ، ولكن هناك سحابة سوداء كبيرة تتجه صوبى وسوف تحجب ضوءى .

قالت السمكة : أيها القمر الجميل ، أنا أحب ضوءك كثيرا ، وأريده أن يشع على دائما .

قال القمر : أيتها السمكة العريضة ، فى الحقيقة أنا لأملك ضوءا ،
فالشمس تعطينى الضوء ، وأنا بدورى أعكسه على الأرض . حقا ألم
تسمى قط أن البشر فى خلال بضع سنوات قادمة قد يطيروا ويحطوا
على سطحى .

قالت السمكة : هذا غير ممكن .

قال القمر: إنه عمل صعب للغاية، ولكن البشر كل ما يرغبون فيه
لم يستطع القمر ان يتم كلامه لأن سحابة السوداء وصلت وغطت
وجهه . وأظلم الليل مرة أخرى . وظلت السمكة السوداء بمفردها تماما
ولبضع دقائق حدقت فى الظلمه وهى مبهوته ومتحيرة ثم زحفت
أسفل الصخرة ونامت .

استيقظت مبكرة ، فرأت أعلى رأسها عدة سمكات صغيرات كن
يتحدثن مع بعضهن همسا وما أن رأين السمكة السوداء تستيقظ
حتى صحن معا قائلات :
صباح الخير.

وسرعان ما عرفتهم السمكة السوداء وقالت : صباح الخير، فى النهاية
تبعتمونى

قالت إحداهن : نعم ، ولكن الآن لم ينته خوفنا .

قالت أخرى : التفكير فى البجعة يؤرقنا .

قالت السمكة السوداء: أنتم تفكرون كثيرا . لا ينبغي أن تفكروا طوال
الوقت، بمجرد أن نبدأ السير يزول خوفنا تماما .

ولكن عندما أرادوا السير رأوا أن الماء من حولهم إرتفع ووضع غطاء
فوق رؤوسهن وأصبح المكان مظلما تماما ولا مجال للهرب أيضا .

فأدركت السمكة السوداء فوراً أنهن قد وقعن فى كيس البجعة .
قالت السمكة السوداء : ياأصدقاء لقد وقعنا فى كيس البجعة ، ولكن
طريق الفرار لم يخلق تماماً .

شرعت السمكات الصغيرة فى البكاء والنحيب ، قالت إحداهن :
ليس أمامنا طريق للفرار . فهذا تقصير منك ، فأنت التى أغويتنا
وضلللتنا .

قالت أخرى : الآن ستبتلعنا جميعاً وينتهى أمرنا .
فجأة دوت ضحكة مخيفة فى الماء . كانت هذه هى البجعة تضحك
وتقول : ياها من سمكات صغيرة كثيرة حصلت عليها ، هاها هاها ...
أننى أشفق عليك حقاً ولايطاوعنى قلبى على ابتلاعك ها !! هاها
هاهاها .

أخذت السمكات الصغيرة تتوسلن وقلن : يا صاحبة السيادة البجعة
لقد سمعنا الثناء عليك منذ وقت طويل ، وإذا تفضلت فلتفتحي
منقارك المبارك قليلاً كي نخرج ، وسوف نشكرك وندعوك دائماً!
قالت البجعة : اننى لأريد أن أبتلعك الآن ، فلدى سمك فائض ،
أنظرن أسفل بطونكن

كانت بعض السمكات الصغيرة والكبيرة ملقاة أسفل الكيس . قالت
السمكات الصغيرة : يا صاحبة السعادة أيتها البجعة ، إننا لم نفعل
شيئاً ، نحن أبرياء . هذه السمكة الصغيرة السوداء هى التى
أغوتنا..... .

قالت السمكة الصغيرة : أيتها الجبانات ، هل تعتقدن أن هذا الطائر
المحتال هو معدن العطاء بحيث تلتمس منه هكذا .

قالت السمكات الصغيرة : ألا تفهمين ماتقولين ؟. الآن ترين كيف أن
حضرة سيادة البجعة ستعفو عنا وتبتلعك أنت !!!!
قالت البجعة : نعم ، أعفو عنكن ولكن بشرط واحد .

قالت السمكات الصغيرات : تفضلى أملى شرطك يا صاحبة السعادة.
قالت البجعة : أخنقوا هذه السمكة الفضولية حتى تظفروا بحريتك.
نحت السمكة الصغيرة السوداء نفسها جانباً وقالت للسمكات
للصغيرات : لاتقبلن، هذا الطائر المحتال يريد أن نتشاجر معا ... لدى
خطة

لكن السمكات الصغيرات كن يفكرن فى خلاصهن بحيث لم يفكرن
فى شىء خر

وهجمن على السمكة الصغيرة السوداء، فأخذت تتراجع نحو أسفل
الكيس وهى تقول بهدوء : أيتها الجبانات ، على كل حال لقد وقعتن،
وليس لكن طريق للفرار، ولا قدرة لكن على .

قالت السمكات الصغيرة : لابد أن نخنقك ، نريد حريتنا .

قالت السمكة السوداء : هل جننتن ؟ إذا خنتننى فلن تجدن طريق
الفرار، لا تخذعن البجعة .

قالت السمكات الصغيرات : تقولين هذا الكلام لتخليص نفسك ،
والأفأنت فى الأصل لا تفكرين فينا .

قالت السمكة السوداء : إذا أنصتن سأدلكن على حل ، سأتظاهر
بالموت وسط الأسماك الميتة ، ولنر عندئذ هل ستطلق البجعة سرا
حكن أو لا ، وإذا لم تقبلن كلامي ، أقتلكن بهذا الخنجر وأخلصكن
وأخلص نفسي

قاطعتها إحدى السمكات وصاحت : كفى ، لا أتحمل هذا الكلام ..
أوهو.. أوهو.. أوهو

عندما رأتها السمكة السوداء تبكي قالت : أيتها الطفلة المدللة ، لماذا
اصطحبتموها معكم ؟

ثم أخرجت خنجرها وشهرته أمام السمكات الصغيرات ، فقبلت
التعسات اقتراح السمكة السوداء الصغيرة ، وتظاهروا كذبا بشجار
فيما بينهم ، كما تظاهرت السمكة السوداء بالموت ، وصعدت
الأخريات وقلن :

- يا حضرة البجعة ، خنقنا السمكة السوداء الفضولية
ضحكت البجعة وقالت : حسنا فعلن ، والآن مكافأة لهذا العمل ،
سأبتلعن وأنتن حيات لتقمن برحلة طيبة في بطنى .
لم يعد أمام السمكات الصغيرات أى فرصة ، وعبرن حلقوم البجعة
بسرعة البرق ، وانتهى أمرهن .

أما السمكة السوداء فقد سحبت خنجرها فى نفس الوقت، وبضربة
واحدة مزقت جدار الكيس، وخرجت وصرخت البجعة من شدة الألم ،
ودقت رأسها فى الماء ولكنها لم تستطع مطاردة السمكة الصغيرة .
ظلت السمكة السوداء تسبح وتسبح دون توقف حتى الظهيرة. الآن
كان الجبل قد اختفى وكذلك الوادى . وكان النهر يعبر خلال سهل
منبسط . وكانت عدة أنهار صغيرة قد أتصلت به من يمين ومن يسار
وتضاعفت كمية الماء . وكانت السمكة السوداء تستمتع بكثرة المياه .
ثم أفاق فجأة ورأت أنه ليس للماء قاع ، ذهبت هنا وهناك ولكنها

لم تصطدم بشيء . كانت المياه غزيرة لدرجة أن السمكة الصغيرة تاهت فيها ، وسبحت بقدر ما اشتهت لكن رأسها لم تصطدم بمكان . وفجأة رأت حيوانا طويلا ضخما ينقض طرفها بسرعة البرق ، وكان منشار ذو حدين يتقدم فمه . واعتقدت السمكة الصغيرة أن سمكة المنشار سوف تمزقها إربا في نفس اللحظة . وتحركت بسرعة وجمعت نفسها ، وارتفعت قريبا من سطح الماء ، ثم بعد فترة نزلت أسفل الماء مرة أخرى لرؤية قاع البحر . وألتقت في وسط الطريق بمجموعة من الأسماك ، آلاف آلاف الأسماك ! فسألت إحدى الأسماك قائلة : " أيتها الرفيقة ، أنا غريبة ، جئت من طرق بعيدة ، أين نحن ؟ "

نادت السمكة على رفيقاتها وقالت : " أنظرن .. واحدة أخرى " ثم قالت للسمكة السوداء : أيتها الرفيقة ، مرحبا بك في البحر . " قالت واحدة أخرى من السمكات : كل الأنهار والجداول تصب هنا ، ومما لا شك فيه أن بعضها يغوص في المستنقع .

قالت أخرى : يمكنك الانضمام إلى مجموعتنا في أى وقت تشائين . كانت السمكة الصغيرة السوداء سعيدة لأنها قد وصلت إلى البحر . فقالت : من الأفضل أولا أن أتجول ثم أجيء بعد ذلك وأنضم إلى مجموعتك ، فأنا أرغب أن أكون هذه المرة بصحبتك وأنتن تسحبن شبكة الصيد .

قالت إحدى السمكات : ستحققين رغبتك سريعا ، الآن إذهبي وقومي بجولتك ، ولكن كوني حذرة من النورس إذا صعدت إلى سطح الماء ،

لأنه في هذه الأيام لا يخشى أحدا ، وكل يوم لا ينصرف ما لم يصد أربع أو خمس سمكات منا .

في ذلك الوقت تركت السمكة السوداء مجموعة أسماك البحر ، وأخذت في السباحة . وبعد قليل صعدت إلى سطح البحر ، كانت الشمس دافئة ساطعة ، فكانت السمكة الصغيرة السوداء تحس بحرارتها الشديدة على ظهرها ، وكانت تقول لنفسها :

يمكن للموت الآن أن يتجه صوبي بسهولة ، لكن ما دمت أستطيع الحياة ، فعلى ألا أذهب لاستقبال الموت ، ولا جدال لواضطرت لمواجهة الموت في وقت ما ، ليس يهم ماذا سأصبح ، المهم أى أثر يكون لحياتي أو موتي في حياة الآخرين

لم تستطع السمكة الصغيرة السوداء أن تمضي في أثر أفكارها وخيالاتها أكثر من ذلك إذ جاء النورس ورفعها وحملها . حاولت السمكة الصغيرة تخليص نفسها من بين منقار النورس ، لكنها لم تستطع ، فقد قبض النورس على خصرها بشدة كادت تزهق روحها .. وفي النهاية كم يمكن لسمكة صغيرة أن تبقى حية خارج الماء ؟!.. فكرت السمكة : ليت النورس يبتلعها في الحال ، حتى يحول الماء الرطب داخل بطنه دون موتها بضغ دقائق على الأقل .. وعلى هذا الأساس قالت للنورس : لماذا لا تبتلعني حية ؟ فأنا من ذلك الصنف من السمك الذى يصبح لحمه ساما بعد الموت

وفكر النورس دون أن يقول شيئا : أيتها الماكرة ... ترى ماذا وراؤك؟ مصيبة أن تريدنى دفعي إلى الكلام حتى تخرجني .

وكان الشاطيء يبدو واضحاً من بعيد ، وأصبح أكثر قرباً ، وفكرت السمكة الصغيرة : إذا وصلنا إلى اليابسة فقد انتهيت . فكان أن قالت :

- أعرف أنك تريد أن تأخذني لأطفالك ، لكن إلى أن نصل إلى الشاطيء سأكون ميتة ، وقد يصبح جسدى كيساً من السم ، فلماذا لاترحم أطفالك ؟

فكر النورس : الاحتياط واجب ، تكونين لي وأصطاد سمكة أخرى لأطفالي ، لكن لأر ..

هل هناك خدعة في الأمر ؟ لا .. إنك لا تستطيعين عمل شيء .. بينما كان النورس يفكر في هذه الأمور ، رأى جسد السمكة السوداء قد شل وبقي بلا حراك ، ففكر بينه وبين نفسه : يعني ماتت ، الآن أنا نفسي لا أستطيع أن أكلها ايضاً ، لماذا خسرت سمكة بهذه الليونة واللذة ؟

وكان أن نادى السمكة السوداء وأخذ يقول : أيتها الصغيرة أما زال بك حتى الآن بعض الروح حتى أستطيع أن أأكلك ؟

لكنه لم يستطع أن ينهي كلامه ، لأنه ما إن فتح منقاره حتى قفزت السمكة السوداء وسقطت ، ورأى النورس أنه خدع ، فبدأ فى مطاردة السمكة الصغيرة السوداء أخذت السمكة تتشقلب كالبرق فى الهواء ، وكسنت السمكة فاقدة الوعي من شدة اشتياقها إلى ماء البحر فأسلمت فمها اليابس إلى رياح البحر الرطبه . ولكن ما إن وصلت السمكة داخل الماء وتنفست من جديد حتى وصل النورس مثل البرق ، وهذه المرة اصطادها بسرعة ، وابتلعها بحيث ظلت السمكة فترة لاتعى

ماحل بها من بلاء كانت فقط تحس أن المكان كله رطب ومظلم ولا طريق . وكان صوت بكاء يأتى ، وعندما اعتادت عيناها على الظلمة رأت سمكة صغيرة جدا ، كانت قابعة فى زاوية وهى تبكى وتنادى على أمها . اقتربت منها السمكة السوداء وقالت : أيتها الصغيرة .. انهضى وفكرى فى حل ، يعنى ماذا البكاء والنداء على أمك ؟

قالت السمكة الصغيرة : من تكونين أنت الأخرى ؟ ألا ترين أن تهى؟ أهى أهى أهى أمى أمىلم أستطع ثانية أن آتى معك وأسحب شبكة الصياد إلى قاع البحر أهى ... أهى!!!!

قالت السمكة الصغيرة السوداء : كفاك يابنيه ، ضيعت كرامة كل الأسماك عندما توقفت السمكة الصغيرة عن البكاء ، قالت السمكة الصغيرة السوداء : أريد أن أقتل النورس وأريح السمك منه . ولكن يجب بداية أن أخرجك ، حتى لاتقومى بعمل فاضح .

قالت السمكة الصغيرة : أنت نفسك تموتين ، فكيف تريدين أن تقتلى النورس ؟

أشارت السمكة الصغيرة السوداء إلى خنجرها وقالت : سأمزق بطنه من الداخل ، الآن اسمعى ماذا سأقول . أنا سأبدأ بالرواح والغدو والذهاب هنا وهناك وذلك سوف يدغدغه فيفتح منقاره ويبدأ فى الضحك وتسرعين أنت إلى الخارج .

قالت السمكة الصغيرة : وماذا عنك أنت ؟

قالت السمكة الصغيرة السوداء : لاتفكرى فى . أنا إن لم أقتل هذا الشرير لن أخرج .

قالت السمكة السوداء هذا وبدأت فى الرواح والغدو والذهاب هنا وهناك ودغدغت بطن النورس وكانت السمكة الصغيرة واقفة عند فم معدة النورس مستعدة . ما إن فتح النورس منقاره وشرع فى الضحك والهقهقة حتى قفزت السمكة الصغيرة من فمه وهربت ويعد قليل سقطت فى الماء ولكنها ظلت منتظرة ولم يكن هناك خبر عن السمكة السوداء . فجأة رأت النورس قد أخذ يتلوى ويصرخ . وما أن بدأ الرفرقة والسقوط حتى سقط فى الماء محدثا صوتا وعاد يرفرف مرة أخرى حتى سكنت تماما عن الحركة . ولكن لم يكن هناك خبر عن السمكة الصغيرة السوداء بل ولا خبر عنها حتى الآن .

أنهت الجدة قصتها وقالت لأولادها وحفدتها الإثنى عشر ألفا : حان وقت النوم ، أيها الأطفال ، اذهبوا لتناموا .

قال الأولاد والأحفاد : يا جدتنا لم تخبرينا ماذا حدث للسمكة الصغيرة؟

قالت السمكة العجوز لتبقى بقية قصتها إلى ليلة الغد . الآن حان وقت النوم ، تصبحون على خير .

قال إحدى عشرة ألف وتسعمائة وتسع وتسعون سمكة صغيرة : تصبحين على خير . وذهبن ونمن .

ونامت الجدة أيضا ، ولكن سمكة صغيرة حمراء لم يغلبها النوم مهما فعلت، وظلت تفكر فى البحر طوال الليل وحتى الصباح .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تصدير
٩	مقدمة المترجمة
٣٧	١ - أولدوز والدمية المتحدثة
٩٧	٢ - أولدوز والغربان
١٦٣	٣ - الأقرع اللاعب بالحمام
١٨٥	٤ - الصبى بائع البنجر المسلوق
١٩٧	٥ - سيرة حبة الثلج
٢٠٣	٦ - العجوز ودجاجتها الذهبية
٢٥١	٧ - قطتان فوق الجدار
٢١٧	٨ - دومرول المجنون
٢٣٣	٩ - أسطورة الحب
٢٦١	١٠ - خوخة وألف خوخة
٢٩٣	١١ - أربع وعشرون ساعة من القلق
٣٢٣	١٢ - السمكة السوداء الصغيرة

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٧/٤٥٢٧

الترقيم الدولي
I.S.B.N.
977 - 235 - 966 - 9

مطابق الاستخدام بکوریئیس انیل

أهم ما يتميز من أعمال صمد حقيقة تلك المجموعة من القصص التي كتبها للأطفال وعن الأطفال ، ومن خلالها ولج إلى حياة الكبار ومشاكلهم في مرحلة تعد من أعقد مراحل التاريخ الإيراني المعاصر ، ورغم عمره القصير ، اعتبر واحدا من بناء الفكر الثوري الإيراني المعاصر ، وترجمت مجموعات من قصصه إلى لغات أوربية عديدة من أهمها الإنجليزية والفرنسية ، وكتبت عنه دراسات نقدية عديدة ، وفازت بعض أفلام الأطفال التي أخذت عن قصته « السمكة السوداء الصغيرة » بجوائز أولى في مهرجانات عالمية لسينما الأطفال .

